أســرار القــرآن

الجزء الثالث

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

/ تليفون المكتبة

002 022 3901030

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾{٢٥٣}

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾

الإشارة ب ﴿تِلْكَ﴾ إلى من سبق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من الرسل من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، أى جعلنا بعضهم فاضلا وبعضهم مفضولا، ثم بين وجوه التفضيل فقال سبحانه : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ ﴾كموسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ (بما آتاهم من الآيات، وما أظهر على أيديهم من المعجزات، وبصبرهم على ما أصابهم فى سبيل الدعوة إلى الله، كنوح والخليل ولوط وغيرهم عليهم السلام .

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

يعنى الآيات التى بينت الحقائق ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾يعنى بروح الله تعالى، وقد بينا روح القدس فيما تقدم، والذى عليه العلماء أنه جبريل عليه السلام فكان عيسى عليه السلام ممنوحا الآيات البينات فيخبر عن المغيبات، ويبرىء الأكمه والأبرص، ويحى الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وهنا أشير إليك إشارة خفية : إن أكمل الرسل صلوات الله عليهم هو سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بل وأفضلهم بوجوه عقلية ،أولها أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ بعثه الله بالقرآن المجيد الذى استنارت به القلوب وأطمانت، وسجدت له العقول وسلمت، وزكت به النفوس وإلى ربها سكنت، وبين كمال عبودية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فتحمل عليه الصلاة والسلام أذية الجاهلية الأولى تحملا لا تتحمله الجبال، فلم يدع على أحد، بل ولم يسأل الله الانتقام له من خصمه كما فعل الأنبياء السابقون كنوح ولوط وإبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام ! بل كان كلما اشتد عليه البلاء، وأحاطت به نكبات الجاهلية الأولى رفع طرفه إلى السماء وقال

: [اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون] ! فنظرته العيون فى الرؤوس عبدا ذليلا لله تعالى، ونظرته العيون فى القلوب إنسانا جمله الله بما يحبه من علم وعمل وحال، لايقبل الله عبدا لم يتجمل بجماله، ولا ينظر الله إلى من خالف سنته نظرة ود وحنان وإحسان، أكمل الله به الدين وأتم به النعمة قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (١).

أما ألوا العزم من الرسل، فإنه الله سبحانه أكرمهم بمعجزات دعت القلوب إلى الشك، والعقول إلى الطيش، حتى اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى أو عاداهم أممهم، فسلط الله على من عاداهم الخسف، وأهلكهم شر هلاك، فترى بعضهم يقول : عزير بن الله، والآخر يقول : عيسى بن الله، أو إله، وبعضهم يرمى الرسل عليهم السلام بما لا يليق بمقامهم !!

أما سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن الله أكرمه فحفظ به القلوب من الشرك، والعقول من الطيش، والأبدان من النفور . ولا أشك أن الكافر إذا تجرد من حظه وهواه، ونظر إلى ما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليسارع إلى اعتناق الإسلام فرحا مسرورا . ولو أن المسلمين عملوا بوصايا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لدام لهم المجد فى الدنيا والآخرة، كما من الله بذلك على سلفنا الصالح .

سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ سيد الرسل وخاتمهم وهو الخير العام لجميع بنى الإنسان والرحمة العظمى لجميع الخلق .. قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بسند الإمام ابن جرير : ﴿أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : بعثت إلى الأحمر والأسود، ونصرت بالرغب، فإن العدو ليرعب منى على مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا . وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد كان قبلى . وقيل لى : سل تعطه فاختبأتها شفاعة لأمتى فهى نائلة منكم إن شاء الله من لايشرك بالله شيئا ﴾ .

أما ما بينه الله من المقامات العلية لحبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى صريح القرآن فإنا نرجئه حتى نفسره فى مواضعه .

﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾

(١) سورة المائدة آية ٣

معنى هذة الآية الشريفة : أن الله تعالى خلق الخلق بإرادته وتقديره ومحض مشيئته، فكل مخلوق أحاط به العرش مقهور بقهره، ومظهر لمعانى أسمائه وصفاته، ليس فى الكون إلا الكون، وليس فى ذات الله إلا الله وكل ما سواه ومن سواه مخلوق له سبحانه، فهو خالق الأجسام وخالق الصفات وخالق الأعمال، قال سبحانه : (والله خلقكم وما تعملون) [1] فاختلاف العالم عقيدة ومذهبا وعملا بمشيئة الله تعالى، ولو شاء أن يخلق العالم الإنسانى طهرا كالملائكة لفعل، ولكنه قدر الأقدار بمشيئته، يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وكل ما عليه فى الكون هو إرادة الله تعالى فيه، وقد شاء سبحانه أن يكون الناس مختلفين ولايزالون كذلك، فالحق والباطل يتغالبان،

فمرة يظهر الحق على الباطل فيوفق أهل الحق لمحابه ومراضيه، ويعزهم فى الدنيا وألاخرة، وتارة يظهر أهل الباطل على أهل الحق فيستدرج أهل الباطل، ويجمل أهل الحق بالصبر والرضا وكمال اليقين، فيكونون من المجاهدين فى سبيله . وهكذا يفعل الله ما يشاء، وينفذ ما يريد لا معقب لحكمه، فاقتتال العالم ونزوع النفوس إلى الباطل وجرأة أهل الضلال على سلب الأنفس والأموال والأعراض سابق فى إرادة الله تعالى، فينتقم منهم بالخلود فى نار جهنم، وابتلاء أهل الإيمان بتسليط الأعداء عليهم سابق فى إرادة الله تعالى ليمحصهم ويطهرهم مما جنته أيديهم فى معصية الله ومعصية رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وذلك لأن ما أتى به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لو أن العالم تمسكوا به لعاشوا كأنهم فى جنة الرضوان، ولكن مشيئة الله قهارة وقدرته تنفذ مشيئته، قال تعالى : ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾[2].

﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾

﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ﴾ تنفيذا لمشيئته سبحانه، ﴿مَّنْ آمَنَ﴾ وهم الذين سبقت لهم منه الحسنى، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وهم الذين سبقت لهم منه السوءى .

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

---

(١) سورة الصافات آية ٩٦

(٢) سورة الشورى آية ٧

و لو شاء الله أن يعصمهم ويهديهم الصراط المستقيم ما اقتتلوا، ولكنه سبحانه وتعالى وكلهم إلى أنفسهم، وأنساهم عهده لهم يوم ﴿ألست بربكم﴾ [(١)] وحرمهم التوفيق والهداية فضلوا واقتتلوا،﴿و لكن الله يفعل ما يريد﴾ أى يوفق من شاء لما يحب، ويحجب من شاء عما يحب فيخذله ويضله، وفى هذة الآية مشهد على من مشاهد التوحيد لا ينتفع به إلا من جعل الله لهم نورا فى قلوبهم . أما أهل النفوس العنادية التى خلقها الله فى سجين فإنهم لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لايسمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها، أولئك كالأنعام بل أضل سبيلا .

قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ {٢٥٤}

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾
يخاطب الله أهل الإيمان فيقول سبحانه : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله تقربوا إلى الله بما فرضه عليكم فى أموالكم من زكاتها، ومن النفقة على الأصول والفروع الواجبة والزوجة، ومن النفقة المندوبة التى بها صلة الرحم، وإغاثة الفقير والغريم وذى القربى واليتامى والمساكين، وبرالوالدين فى فروعهما لتكون لكم ذخيرة يوم القيامة .

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾
أى تقربوا إلى الله بالنفقة قبل نزول الموت الذى يكون الإنسان بعده لا عمل له ولا مال ولابيع، ولا صحبة تجعل الخليل يساعد خليله بماله ورأيه وشفاعته . يخاطب الله المؤمنين محذرا لهم من الوقوع فى عمل أهل الكفر بالله الذين يؤثرون المال على أمر الله تعالى، فيمسكونه شحا به عن أن ينفقوه فيما أمر الله به أن ينفق فيه، فإن الشح صفة الكافرين بالله تعالى وفى قوله تعالى : ﴿و لاشفاعة﴾ حكمها عام، والمراد بها خاص وهم الكفار بالله،

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

وليست دليلا على منع شفاعة الشافعين يوم القيامة، فإن المؤمنين بالله لهم سوق يوم القيامة يربحون فيه الثواب الجميل، ولهم مال وهو ما قدموه بين أيديهم من عمل الخيرات، ولهم خلة وهم الأتقياء الذين يشفع الله بعضهم فى بعض، قال تعالى : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (1) ولهم شفعاء، وسيد الشفعاء رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فالمرسلون، فأبدال الرسل، فالمتقون . وتلك الشفاعة بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ولحصول الشفاعة حكمة . هى إكرام الله لأحبابه ليظهرهم أمام الخلق ولهم الجاه العظيم فى التماس الشفاعة من الله لمن يستحقوها من عصاة المؤمنين، والشفاعة العظمى هى المقام المحمود الذى وعد الله به سيدنا محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ وإنما ينكرها من سجل عليه القضاء بحرمانها يوم القيامة .

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

هذة الآية الشريفة خير بشرى الله بها عباده المؤمنين حيث قال : ﴿والكفرونهم الظلمون﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون، وهذا سر يتذوقه من يعقل عن الله تعالى كلامه، أى ومن ستر الله عنه حقائق الإيمان فكفر بالله لأن الكفر هو الستر، والظالم لنفسه الذى استعمل نعم الله فى إنكار آيات الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾

بينت لك معنى الاسم (الله) فيما سبق، وقوله : ﴿لا إله إلا هو﴾ نفى للألوهية عما سواه جل جلاله، وحصرها فى ذاته جل جلاله . والإله بحسب ما يمكنك أن تتعقله هو الغنى عما سواه، المحتاج إليه كل ما عداه، فانفرد سبحانه بغناه الذاتى عن جميع خلقه، وانفرد الخلق

(١) سورة الزخرف آية ٦

بالاحتياج الذاتى إليه سبحانه، والإله من يأله إليه الخلق . ففى قوله : ﴿إلا هو﴾ حصر حقيقى بمعناه، و﴿هو﴾ هنا ليس ضميرا يرجع إلى الله تعالى، بل هو اسم من أسماء الله الحسنى، ولأهل المعرفة مشهد على فى مدلول هذا الاسم لأنه يدل على عظمتة الغنية عن الخلق، وكبرياء النزاهة عن أن تدركه العقول والأرواح، وعلو التفريد والتقديس عن الشبيه والنظير والند والمثل، وتلك الآية الشريفة هى خير آية فى القرآن تكشف أسرار التوحيد العالية لأهل القرب من الله تعالى خاصة، ولا يشم عبير غيبها إلا أهل الإيمان الكامل ، لأنه سبحانه كشف دلائل التوحيد بالبرهان العقلى لأهل العقول فقال : ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ (١)،

وهنا يخبر أهل اليقين الذين سلموا لرسول الله تسليما فيقول : ﴿الله لا إله هو﴾ يعنى إن الله هو المتفرد بالألوهية دون غيره، المعبود الذى أظهر للحس مكوناته، وللعقول آياته، وللأرواح تجلياته، ولأهل محبته جماله وجلاله وبهاءه وضياءه ونوره، وأله العالم أجمع إليه، وجمع أهل محبته فى الدنيا والآخرة عليه، وقهر أعداءه حتى رجعوا إليه مقهورين بقهره، نادمين على تفر يطهم فى جانب الله، قال سبحانه : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً {٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ (٢) فإذا فهمت تعريف الإله بأنه الغنى عما سواه، نزهته عن المكان والزمان، والولد، والوالد، والصاحبة والصاحب، والشريك والنظير، والضد والند، تنزه وتعالى . وإذا تحققت أن الخلق جميعا مفتقرون إليه سبحانه شهدت بنور بصيرتك أنه قادر مريد، واسع عليم، خلاق رزاق، وهاب هاد، إلى أن تحصى تسعة وتسعين اسما قد أدمجت فى هذا التعريف، وسهل عليك تفصيلها .

﴿الْحَيُّ﴾

أى الحى بذاته لا بصفة زائدة على ذاته، أو حى بصفة زائدة على ذاته، أو بتدبير الكون، والمحققون يعتقدون أنه حى بذاته لا بصفة زائدة على ذاته، والقائلون بصفة زائدة قاسوا الغائب على الشاهد، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فى كل شىء، والقائلون أنه حى

(١) سورة البقرة آية ٢١

(٢) سورة مريم آية ٩٣ – ٩٤

بتدبير الكون لأن الكون فيه الحياة ولا يفيض الحياة إلا الحى، وبهذا يدللون على حياة الله بحياة الكون، ولو فقد الكون هل يكون الله تعالى ميتا ؟ ! تتره سبحانه وتعالى . نسأل الله تعالى أن يلقينا التوحيد منه كما تلقى آدم من ربه سبحانه وتعالى . فهو حياة كل حى من غير أن ينفصل من حياته المترهة شيء، إذ ليس فى الكون إلا الكون، وتتره ربنا أن يحل منه فى الكون شيء، وليس فى ذات الله إلا الله تعالى .

﴿الْقَيُّومُ﴾

القيوم أو القيام أو القوام الذى قامت به الحقائق، أو الذى قامت به كل نفس بما كسبت . هذان الاسمان الشريفان سر الوجود من بدئه لختمه، وهما الاسم الأعظم، ومن ذكرهما ملاحظا معناهما، مستحضرا أسرارهما شهد الغيب المكنون، وطالع السر المصون، وأحياه الله حياة أهل الإيقان، وأقامه فى محابه ومراضيه.

﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾

إثبات على أنه سبحانه خلق الكون، والسموات والأرض، ويمسكهما، فلو أخذته سنة أو نوم لفسدتا، وقد خطر على قلب موسى هل الله ينام ؟ ! فأمر الله ملائكته أن يمنعوا عنه النوم أياما، ثم امره أن يمسك بكل يد قارورة، وتركوه وشأنه، فغلب عليه النوم فنام، فضرب بيديه القارورتين فكسرتا، فتيقن أن الله لا ينام لأنه لو نام لترك السماء والأرض من يديه الكريمتين .وهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل المعرفة ،وقصم به ظهور من يحكمون على الغائب بالشاهد، (و السنة) : النعاس، وهى النون الخفيف . والنوم : هو الثقيل الذى يستغرق فيه الإنسان فيفقد حسه فقط . وفى هذه الآية بيان من الله تعالى كل البيان . كما علمنا الجمع فى قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(١). وكما قال تعالى : ﴿ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾(٢) ولله الحجة البالغة .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢

(٢) سورة البقرة آية ١٩٦

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

أى والسموات والأرض مملوكتان له سبحانه إيجادا وإمدادا وإبداعا وملكا وتصريفا، لأن ما فى السموات وما فى الأرض له، فلزم بالضرورة أن تكونا له من باب أولى، لأن الأرض والسموات بما فيهما ومن فيهما مملوكة لله مقهورة بقهره، ومتى كان فى السموات والأرض لله ثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد، وأن من سواه وما سواه عبيد مقهورون وعباد مربوبون، يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، لأنه الملك المطلق يتصرف فى ملكه كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، وكل همامات النفوس ونزوعها، وبحث العقل ونظره وحركات الأجسام وسكناها، بقدرة الله عن إرادته ومشيئته، إذ لا فاعل إلا الله تعالى، ومن وقف عند تلك الحقائق باحثا بها عن الحق جل جلاله ضل وهوى فى هاوية القطيعة عن الله، ومال العقل والبحث عن الحق جل جلاله ؟ .

وكيف يحكم العقل المقهور المخلوق على الخلاق العظيم القاهر سبحانه ؟ ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [1] وكل علم تلقيته بسمعك وخيالك، ووهمك، وعقلك، وذوقك، ولمسك، علم الكون، لا المكون . أما علم المكون سبحانه فإنما يتلقى من إخبارالله سبحانه، ومن بيان رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وهدى أئمة الهدى الذين استودعهم الله علم كتابة وأسرار تنزيله، ويتلقى المؤمن هذا العلم مسلما ومعتقدا أو مطمئنا به قلبه، وعند ذلك يجعل الله له سلطانا على قواه الحسية والعقلية والروحية ينفذ به من هذه الأقطار . قال تعالى : ﴿يمعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموت والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطن﴾[2]

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾

استفهام إنكارى يدحض الله تعالى به حجة أهل العقول الكادحين فى فيافى الظلمات، من الفلاسفة والمدعين العلم، ويرد به على الشاطحين الخارجين عن السنة والكتاب التائهين فى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢.

(٢) سورة الرحمن آية ٣٣ .

فيافى الأوهام، الذين لم يهتدوا بكتاب الله وسنة نبية ﴿ ﷺ وآله﴾ ولم يسلكوا على الصراط المستقيم، ولم ينهلوا من حوض الله المورود، ولم يقتدوا بالمنهج القويم، من المتصوفين الشاطحين الذين يدعون انهم يشهدون بأجسامهم مالا يجوز أن يشهد إلا للأرواح، ويعملون بأبدانهم ما يوقع فى نار جهنم من ترك الصلاة والصيام وإباحة المنكرات، ومن الإشارة إلى الغيب المصون بغير أد ب، رد الله على هؤلاء جميعهم بقوله تعالى : ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ .

أى أن الدعاوى من الخائفين على الله تعالى وهم أهل العقول الذين أقاموا أنفسهم فى مقام تأويل كلام الله وكلام رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بحسب عقولهم يؤولون اليد بالقدرة وما أشبهها خوفا على الله تعالى ،و يرد على الشاطحين الذين يدعون انهم أولياء الله تعالى، ينفعون ويضرون ويعطون ويمنعون، اجتراء على الله تعالى، وسوء أدب معه، لأنه جل جلاله لا يقبل شفاعة أحد منهم إلا من ارتضى ممن تشبهوا بنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وجاهدوا أنفسهم فى ذاته، ووقفوا بين يديه لكمال العبودية، يشهدون لأهل خلتهم بما عرفوه منهم، فيأذن لهم سبحانه أن يشفعوا فيشفعون، ويقبل شفاعتهم فى إخوانهم فى الله . ومن خالف السنة فى عمل أو قول أو حال، وطار فى الهواء أو مشى على الماء، فالواجب علينا أن ننكر عليه ونخالفه، وننهى عن هذا المنكر بما أوتينا من قوة وحجة . ومن تأول القرآن، أو قال فيه بغير ما قال السلف، أو بغير ما علمه من آثارهم رضى الله عنهم ، أو بغير ما علمه الله بإلهام مع أدب كامل، عرض نفسه لغضب الله تعالى، ولم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . وقد بينت لك حكم الشفاعة فيما سبق، وفى هذه الآية حجة قوية على جواز الشفاعة بدليل قوله تعالى : ﴿إلا بإذنه﴾ .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

أى يعلم ما قبلهم وما بعدهم، ومن بعدهم ومن قبلهم، والذى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم مما لا يعلمون ولا يعلمه إلا هو سبحانه يعلم ما فى ضمائرهم وما هو أخفى من ذلك .

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾

بين الله لنا فى هذة الآية أنه يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا من الدنيا والآخرة، أو ما سبق قبلنا وما يأتى بعدنا . وبهذة الآية انفرد بالعلم دون غيره، والمنفرد بالعلم سبحانه هو المعبود بحق، الذى لا تصح ولا تجوز العبادة لغيره، وكيف يعبد العاقل من لا يعلم شيئا بذاته إلا إذا علَمه الله ؟ ! . فالعالم المنفرد بالعلم الذى يعلم الأشياء خفيها وظاهرها، وماضيها ولا حقها، وبالعلم الذى يعلم به غيره هو المعبود حقا لا غيره، وكل معبود سواه باطل وهالك وفى هذه الآية بيان اختصاصه بالعبادة جل جلاله، وبطلان عبادة كل عابد لغيره من الأناسى والملائكة او الكواكب، أوالأصنام .

ففى قوله تعالى : ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه﴾ إثبات أن الخلق جميعا لا علم لهم بشىء، ودليل ذلك أن الطفل يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا قال الله تعالى : ﴿و الله أخرجكم من بطون أمهتكم ولا تعلمون شيئا﴾ (1) فالعلم منه لخلقه، ومن لدنه جل جلاله لأنبيائه وأبدالهم وورثتهم، أولاهم بالوحى والإلهام بعد أن خلق فيهم القابل الذى يقبل العلم وهو السمع والبصر والفؤاد، فلا علم لأحد من الخلق إلا لمن خلق القابل فيه ومنحه التوفيق للتلقى من غيره ممن تلقى قبله العلم، فهو الذى يعلم من شاء ما شاء سبحانه ولو شاء أن يعلم الثرى علوم الغيب لفعل، بل ولو شاء أن يواجه كل مخلوق بوجهه الجميل لفعل، لأنه سبحانه يقول ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾ أى بما شاء أن يحيطهم به أحاطهم، ولو شاء جل جلاله يلفت وجهه الجميل عن كل مخلوق لفعل، ولا ترى فى مخلوق إقبال على الله ورغبة فى تحصيل العلم النافع ومسارعة إلى العمل الرافع إلا بمواجهة وجهه الجميل جل جلاله لمن شاء ولا حظر على فضل الله تعالى فإنه يقول : ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾أن يحيطهم كما قررت لك، ومعلوم أن الله وهب العقول، ووهب الجوارح المجترحة من سمع وبصر ولسان وفؤاد يعقل، وأحاط من شاء بما شاء، إما من لدنه جل جلاله ، او بوا سطة الوحى ، أو بو اسطة الإلهام ، أبواسطة التلقى ممن هو أكثر علماً منك، وكل ذلك تعليم الله لعباده، إذ العالم الذى احاط بكل العلوم

(1)سورة النحل آية ٧٨ .

الدنيوية والأخروية خرج من بطن أمه جاهلا لا يعلم شيئا، وتفضل الله عليه بعد ذلك بالعلم، واحاطه بما شاء أن يحيط به .

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾

قبل أن نتكلم فى تأويل هذة الجملة من الآية يجب أن نبين بيانا تطمئن به القلوب، والله جل جلاله يخبر عن نفسه بما شاء أن يخبر، وما علينا إلا أن نسلم مع الرعاية بأنه تتره وتعالى عن أن يحتاج إلى كرسى، أو إلى مكان وزمان، لكن الواجب علينا أن نقول : له كرسى لا كالكراسى، والكرسى معلوم والكيف مجهول، والأستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب . وما على العبد المؤمن إلا أن يقول ما قاله الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (١)

فإذا كانت تلك صفة الراسخين فى العلم فنحن أولى بها منهم تسليما لله ولرسوله ﴿ﷺ وآله﴾، فنقول آمنا به كل من عند ربنا، وقد ورد عن العلماء فى الكرسى أقوال كثيرة، وروايات بين حسنة وصحيحة، وكل ما اتى عن الكرسى مما يفيد أنه جسم يجب علينا أن نسلم معتقدين الجهل بالكيف، والذى يطمئن إليه قلبى أن الكرسى هو علم الله تعالى، بدليل أن الكتاب الذى يجمع العلم يسمى كراسا، والعرب تسمى الرجل العالم كرسيا، أى حاملا للعلم، وتسمى أصل الشىء الشريف كرسيا، وقد وردت شواهد كثيرة على ذلك يعنى وسع علمه السموات والأرض، والسموات والأرض نهاية ما يتعلقه العقل الإنسانى الكامل .

و قد ورد أن الكرسى موضع القدمين، وأنا أسلم وأصدق ذلك فإن السموات والأرض محل قهر الله تعالى، وإنما يضع الملك قدميه على المقهورين بجلاله، المربوبين لعظمته، المكلفين بعبادته سبحانه، فالكرسى الذى أحاط بالسموات والأرض وسعهما ويسع أمثالهما، أعد لوضع القدمين عليه، والرب جل جلاله استوى على العرش كما قال سبحانه، وبهذة

---

(١) سورة آل عمران آية ٧

الآية وأمثالها يقف العقل حائرا عن تصور تلك العظمة العلياء، ويتمثل بلطيفته الروحانية هذا الكبرياء وهذا المجد والعزة والجلال، فيسجد عاجزا ويذل خاشعا مقهورا حسيرا عن أن يحوم حول فناء هذا الجبروت المقدس . قال تعالى : ﴿و تلك الأمثل نضربها للناس وما يعقلها إلا العلمون﴾ [1] فحظر على غير أهل العلم أن يعقلوا عن الله شيئا . ونرجع إلى أن نقول : ﴿كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألبب﴾ولما أنزل الله تلك الآية على نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ سأله الصحابة إذا كان موضع القدمين وسع السموات والأرض فكيف بالعرش ؟ فطمأن الله قلوبهم بما أنزله من النورعليهم بقوله سبحانه : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيمةوالسموت مطويت بيمينه﴾[2]

وتلك الآية بينت أن الأرواح والعقول، فضلا عن الأشباح والحس، عاجزة عن أن تقدر الله قدره، والواجب عليها التسليم لخبره سبحانه، والعجز عن إدراك الكيف وترك السؤال عن الكيف واجب، فإنه بدعة ومعلوم أن البدعة فى هذا المقام ضلالة، وأن الضلالة فى النار، وبسند الإمام ابن جرير الطبرى قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس))، وبه قال أبو ذر : سمعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول : ((ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من الحديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض)) .

و أكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه الذى لا يحيطون به علما . وفوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بالتتريه والتقديس له تعالى شأنه .

﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾

أى ولا يثقله ولا يشق عليه حفظهما، لأن السموات والأرض أجسام هائلة محمولة فى الجو من غير عمد تحملها نراها، وأهل المعرفة يرون سريان قدرة الله فى كل كائن، ومع عظم تلك الأجرام عظما يعجز العقل عن إدراكه، فهى سابحة فى هذا الجو بنظام مقدر تقديرا فوق تصوير العقول الكاملة وتدبيرها، وهذا لمصالح الخلق جميعا . ولو نظر أهل الفكر إلى

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣

(٢) سورة الزمر آية ٦٧

أية ذرة من ذرات التراب، أو أى جزء من أجزاء الهواء، أو إلى قدر شعيرة من فسيح السموات وطباقها، أو من جسم الأرض وما عليها من جبال وماء، بل ونظر فى تلك الأفلاك السائرات المنتسقات والثابتات، لظهر له فى أقل من الذرة أسرار تحير العقول، وآيات تسكر الأرواح من إبداع بدائع آيات البديع الخلاق العظيم، وهذا فى أصغر ذرة مما خلقه الله تعالى، فكيف تقوى العقول على كشف أسرار تلك الكائنات وسر إبداعها وإيجادها ؟ بل كيف تحوم العقول السليمة من الهوى حول أنوار ما أودعه الله فيها من الحكمة الدالة على الحكيم سبحانه وتعالى، وأنوار القدرة الباهرة القائمة حجة على قدرة القادر سبحانه ؟ بل كيف تشرف الأرواح الطاهرة الملكوتية على جلال وعظمة القادر الحكيم جل جلاله ؟ الله إلا ما من به الله علينا ببيانه على لسان الصادق الأمين ﴿ ﷺ وآله﴾ فى صريح القرآن . ﴿ولايؤده﴾ ماضيه آد، قال سبحانه وتعالى :﴿الذى خلق سبع سموت طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فرجع البصر هل ترى من فطور﴾ (١)

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

و هذان الاسمان المقدسان ليس كمثلهما شيء، فلا يفهم معناهما بما يدل عليه بحثنا، فإن العلو هو الارتفاع فوق المكان العالى، ولكن معناه هنا أنه سبحانه هو العلى عن أن يجانسه أو يشاكله أو يدانيه شيء ما، بل هو العلى سبحانه المنفرد بكمال الرفعة عن كل شيء، فله سبحانه الفوقية المطلقة، وهو الظاهر فى كل شيء، وفوق الفوق وفوق التحت، فله الفوقية المطلقة، وبهذا البيان يجب أن نفهم أسماء الله تعالى وصفاته، فإن كل اسم من أسمائه وضع لغة لحقيقية من الحقائق، تنزه الله وتعالى عن أن تشابهه تلك الحقائق، وأسماؤه وصفاته وأفعاله وكلامه ليس كمثلها شيء، فى كل شيء، ومن لم يجعل الله له نورا يفقه به تلك الآيات فالواجب عليه أن يسعى إلى أن يحصل علمها عند من هو أعلم بها منه، وفى هذه الآية دليل على أن السموات والأرض مما خلق الله تعالى، وهى أصغر عوالم الله تعالى، ومن أحاطه الله علما من علوم الغيب المصون أو من أسرار القدر قال : سبحان الله والحمد لله، سبحان من لا يعلم قدره غيره، ولايبلغ الواصفون صفته، ثم صدق موقنا بقوله تعالى : ﴿وما قدروا الله

---

(١) سورة الملك آية ٣

حق قدره﴾[1] لأنه عجز عن الحيطة بعلم ما خلقة الله تعالى، فكيف يقدر الله تعالى حق قدره تترهت ذاته ؟ .

قوله تعالى :﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦)

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾
سبب نزول هذه الآية الشريفة أن رجلا من الأنصار كان له أولاد تنصروا قبل بعثة النبى ﴿ﷺ وآله﴾ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه فتوجه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : هل ترضى أن يكون بعضنا فى النار ؟ فترلت الآية ﴿لآ أكراه فى الدين﴾ أى لا تكرهوا أبناءكم ولا إخوانكم على الإسلام، فإن نور الإسلام لا تشهده إلا أعين القلوب التى جعل الله لها نورا، ولكن الإكراه الذى يلجىء المكره إلى الإسلام لا يجعله مسلما عند الله تعالى .
و قد بين الله للقلوب الممنوحة هذا النور دلائل الحق، وأقام حججه المسلمة التى سارعت إليها قلوب من سبقت لهم الحسنى فهشت لها وبشت، فتبين الرشد من الغى أى ظهر لتلك القلوب الرشد نورا عليا جليا، فظهر الغى ظلمة تنكرها القلوب الطاهرة، والذين يؤمنون بتلك الآيات والحجج هم المؤمنون حقاً، والذين يترددون فى قبولها أو ينكروها هم الذين أضلهم الله تعالى من سابق الأزل . ولو أكرهوا على الإسلام وأسلموا لأفسدوا المسلمين وكانوا خبالا فيهم . وهذه الآية الشريفة منسوخة بالآيات التى نزلت بعدها .

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾
هذة الآية الفاء فيها فاء الجواب لشرط مقدره تقديره إذا تقرر حكم هذه الآية السابقة من ترك إكراه أهل الكفر بالله على الإسلام ﴿فمن يكفر بالطغوت﴾ أى يكفر بمعبوده الذى كان يعبده غير الله تعالى، ويؤمن بالله أى يصدق الله ورسوله، ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ والفاء هنا رابطة لجواب الشرط مثل الله تعالى حال من أمن بالله وكفر بالطاغوت

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧

بحال من تمسك بعروة قوية عاصمة له من كل ضرر وخطر والعروة الوثقى هى العقيدة الحقة التى بينها القرآن وهى الإيمان والإسلام، ومعنى ﴿وثقى﴾ أى وثيقة تقوى بها ثقة المتمسك ﴿لا انفصام لها﴾ صفة للعروة أى عروة وثقى لا تنفصم .

﴿وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
أى سميع يسمع كلام نفوسكم، وكلام ألسنتكم، عليم بخواطركم ، وورداتكم ، وأحوالكم ، وحركاتكم، وسكناتكم، فى جميع أعمالكم، فيتفضل على من كفر بالطاغوت وآمن بالله بالتوفيق والهداية والعناية فى الدنيا، وبالمغفرة والنعيم المقيم يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥٧)

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾
الولاية معلومة وهذا خبر من الله تعالى، يبين لنا سبحانه فيه أنه تولى من قدر لهم الإيمان أزلا، وأنه يخرجهم بها من ظلمات الكفر الذى كانوا عليه أولا، إلى نور الإيمان والهداية والتوفيق الذى قدره لهم سبحانه . أو من ظلمة المعصية والغفلة والنسيان إلى نور التوبة والإنابة . أو من ظلمة النفس الأمارة بالسوء ومن سوء الطبع إلى نور النظر بالفكر إلى الدلائل الواضحة، والحجج القائمة على ما فى الكون من الآيات الدالات على تفريد الله تعالى بالألوهية، والإيجاد، والإمداد، أو من ظلمة وحلة التوحيد إلى صفاء التنزية والتفريد، أو من ظلمة بادية الإلحاد إلى نور كمال مشاهد التوحيد . لأن السالك كلما وصل إلى مقام من المقامات العالية إذا وقف عنده وقع فى الظلمة، والسالك إلى الله لا يقف، فإذا جذبته العناية ورفعه الله إلى مقام أعلى من مقامه تاب إلى الله مما كان آنسا به من المقامات،

ولو أن السالك عكف على الله ألف سنة ووقف نفسا فإنه بقدر ما فاز به فى سلوكه أضاع بقدر ما عكف عليه . قال تعالى : ﴿و لدينا مزيد﴾ (١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾
سبب نزول هذه الآية أن قوما من المشركين تنصروا وآخرين هودوا، فلما جاء الإسلام سارع من كانوا على دين الجاهلية إلى الإسلام، وامتنع من كانوا هودوا وتنصروا، فبين الله لنا أن أولياء الذين كفروا الذين هم ساداهم وكبراؤهم منعوهم عن الدخول فى الإسلام فأخرجوهم من النور الذى قامت الحجة على صحته، وكان الأولى بهم بعد انكشاف الحقائق واستبانة الرشد من الغى أن يسارعوا للإسلام، وجائز أن يكون معنى هذة الآية ما تقدم ولها معنى آخر وهو دلالتها على الغيب، لأن كثيرا ممن أسلموا ارتدوا بعد أن ارتفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى . فتكون تلك الآية من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ . والطاغوت اسم يدل على الواحد والجمع، بدليل قوله :﴿ يخرجونهم﴾ وطاغوت كل إنسان هو ما يحبه ويعمل فى مرضاته من شياطين الجن والإنس، وما يدعو إليه الحظ والهوى، والمسلم الذى لم يكفر بطاغوته ويؤمن بالله إيمانا حقا لا يخلو من شرك، وفى قوله تعالى : ﴿يخرجونهم من النور إلى الظلمت﴾ يعنى من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر بالله تعالى.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾
الإشارة إلى الذين كفروا بالله وآمنوا بالطاغوت، وكلمة أصحاب النار لملازمتهم لها إلى مالا نهاية .فكانوا كانهم أصحابها . فهو تهديد ووعيد شديد ﴿هم فيها خلدون﴾ تأكيد لمعنى قوله تعالى : ﴿أصٰحب﴾ وفيها من التخويف الشديد ما يفزع قلوب أهل الإيمان بالله خوفا من السابقة والخاتمة، ولذلك كان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يكثرون البكاء خوفا من سلب الإيمان بسب خاطر أو وارد أو فتنة، أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من سلب الإيمان.

---

(١) سورة ق آية ٣٥

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥٨)

افتتح الله الآية بالاستفهام ﴿ألم تر إلى الذى﴾ وسيقت للتعجب، والخطاب لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ والمعنى ألم تر بقلبك وما أعلمناك به ﴿إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه﴾ وهو نمروذ بن كنعان، وكان بصرح بابل، وسبب المحاجة أن نمروذ طلب إبراهيم عليه السلام بعد أن خرج من النار فقال له : من ربك ؟ قال : ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾. فقال النمروذ ﴿أنا أحى وأميت﴾ . ثم أحضر رجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فقال الخليل عليه السلام : ﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر﴾ أى قامت عليه الحجة، وكاد يذل أمام قومه .

﴿وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

يعنى أن الحجة القوية قصمت ظهر النمروذ، وكان الأولى به أن يؤمن بالله بعد هذه الحجة ولكن الله قدر أزلاً ضلاله وبقاءه على الكفر، فلم يؤمن بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٥٩)

الجملة معطوفة على التى قبلها لأنها مما يتعجب منه وإن كانت للاستفهام، والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها هو عزيز أو أرميا، واختلف المؤرخون فى هذه الحادثة، فمنهم من قال : إن أرميا كان فى بلادمصر فأمره الله أن يسافر إلى بيت المقدس وقد كان فارقها إلى مصر وهى آهلة عامرة، فلما طغى أهلها وبغوا وخالفوا كتاب الله وسنن أنبيائه سلط عليهم بختنصر فهدم بيت المقدس، وخرب المدينة وأسر ذراريهم، وسلب أموالهم حتى قيل أنه أخذ تسعين ألفا من أبنائهم، فلما أمر من الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس وجده

بحالة تحزن فأخذه العجب كل مأخذ وقال : ﴿أنى يحى هذه الله بعد موتها﴾ فألقى الله عليه النوم فنام وسلب منه الحس والحركة وحفظه وكان معه سلة من التين والعنب وقربة ماء على حماره فوضع السلة وربط الحمار وعلق القربة بشجرة هناك، فأماته الله مائة عام، وقدر أن يقوم ملك عظيم من ملوك فارس يقال له ((يوسك)) أرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيليا وأرضها حتى تعود أعمر مما كانت فقال الملك : أنظرنى ثلاثة أيام حتى أتأهب للعمل، وبعد ثلاثة أيام قام ذلك الملك بعمال وجنود فقدر الله عمارتها كما كانتت وأكمل، فلما مضى على أرميا عليه السلام سبعون سنة أحيا الله بصره، فرأى حالة البلد فعجب ،وبعد أن أتم الله مائة سنة عليه قام وهو عظام بالية مكسورة جلدا فأنبت الله عليها لحما ودما .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾

و القائل ﴿كم لبثت﴾ هو الله تعالى أوحى إليه مستفهما منه عن قدر المدة التى نامها . ولما كان أرميا أو عزير رأى بعينيه الماء الذى معه والتين والعنب على ما هى عليه، ورأى حماره مربوطا محله حكم بأن المدة لا تتجاوز اليوم أو بعض اليوم، فأخبر بما علم فقال : ﴿لبثت يوما أو بعض يوم﴾ قال : ﴿بل لبثت مائة عام﴾ . والعام مأخوذ من العوم، لأن الشمس تعوم فى كل بروجها من السنة وتسمى عاما، وقال له انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ،أى لم يتغير بمضى المائة عام فقامت الحجة على قدرة الله أن يحيى أهل تلك المدينة بعد موتهم كما أحياه بعد موته وانكشفت له الحقائق وأمره بأن ينظر إلى حماره الذى مضى عليه مائة عام وهو مربوط لا يأكل ولا يشرب، وحوله الوحوش الضارية فحفظه الله منها وأعاد عليه حياته الحيوانية كما أعاد لأرميا أو عزير حياته الإنسانية، بعقله وقواه كاملة .

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾

يعنى حجة قائمة على قدرة الله على إيجاد الحياة بعد الموت، وعلى نشر العالم بعد فنائه، وعلى إحياء الميت بعد مائة سنة، وحفظ الفاكهة من التين والعنب اللذين كانا معه . وفى هذه الآية حجة على أن قدرة الله صالحة لنشر العالم بعد فنائه، وإعادته بعد العدم .

﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أمره الله تعالى فى هذه الآية بالنظر أيضا إلى العظام النخرة كيف نشزها، أى أحياها وفى رواية (ننشرها) وهو من الطى والنشر، أى أوجدها حية بعد أن فقدت الحياة، وكساها سبحانه وتعالى لحما بعد أن كانت يابسة لا لحم عليها، فلما ظهرت له تلك الدلائل الجلية الواضحة اطمأن قلبه بالعلم اليقينى الذى لا يشوبه تردد، لأن العلم فوق العقيدة، فإن العقيدة المسلمة قد يشوبها الريب والشك، فإذا أيدها العلم اليقينى رخصت فى جانبها النفوس، والفلوس، والعروس، تعظيما للقدوس سبحانه، وكل عقيدة سلمت من غيرعلم يؤيدها ،ولكنها سلمت بأوهام وآمال وأطماع، فإنها لا تثبت إلا ريثما تتغير وتنقلب عداوة وإعراضا .

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

و فى رواية فلما بين بالبناء للمجهول . والمعنى فلما تبين له بالشهود البصرى المحسوس أن قدرة الله تعالى تحيى الموتى بعد مائة سنة كما أحيته، وأنها تحيى القرية وأهلها، قال بقلبه ولسانه أعلم العلم اليقينى الذى لا يشوبه شك ولا ريب، أن الله على كل شىء قدير، أى أن الله سبحانه وتعالى قادرعلى كل شىء من إحياء وإماتة، وإيجاد وإمداد، مما يراه العقل مستحيلا لقصوره . وفى هذه الآية رد على من يشبه الغائب بالمشهود، ويحكم على الله بما تنزه وتعالى عنه، بل الواجب علينا أن نعتقد أن الله وأسماءه و صفاته وأفعاله وكلامه ليس كمثله شىء فى كل شىء، كما سبق بيان ذلك، وأننا يجب أن نتلقى العلم بالحقائق الغائبة عنا من كلام الله، وكلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بدون أن نجعل لعقولنا دخلا فى هذا، فإنما العقول خلقت لتحكم على ما هو تحت حسنا . وقول عزير أو أرميا ﴿أنى يحى هذه الله بعد موتها﴾ إذا جعلنا ﴿أنى﴾ بمعنى متى ليس بتعجيز وإنكارعلى قدرة الله ولكن سؤال من يريد أن يطمئن قلبه كما قال زكريا عليه السلام : ﴿أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا

وقد بلغت من الكبر عتيا﴾ [1] وكان يسأل ليطمئن الله قلبه بإيجاد ولد له يكون مزيدا فى كمال إيمانه بقدرة الله . وإن فسترنا ﴿أنى﴾ بمعنى كيف كان الرد أقوى على المخالفين، لأن المراد يكون أن السائل يحب أن يشهد كيفية إحياء الموتى ليزداد إيمانا بطمأنينة قلبه .

و الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الناس أدبا مع الله، وأعلم الناس به سبحانه . فلابد لنا أن نزن كلامهم على قدرهم لا على قدرنا، وقد ورد أن الذى سأل هذا السؤال كافر، وإذا ثبت ذلك كان سؤاله ليخرج من الكفر إلى الإيمان، والذى عليه الإجماع أن تلك الآية كلها ثابتة لعزير أو أرميا، وقيل : أن أرميا هذا هو الخضر الذى أطال الله عمره .

ولما كان إيراد هذة الآية الشريفة لتقوية إيماننا وبيان آثار قدرة الله وعجائبها فى خلقه لتطمئن قلوبنا بسماع ذلك عن الله تعالى، ناسب أن نذكر ما حصل لأرميا بعد قيامه من رقدته .

قام أرميا فدخل المدينة ونادى قائلا أنا عزير فلم ير من يعرفه، وأنكره أهله ونفروا منه، وكان ملك الفرس الذى عمر المدينة أرجع معه بقيه بنى إسرائيل لتعميرها فبحث عزير فى بيته حتى استدل عليه فدخله ،وكان به جارية من جواريه هرمت وعميت، فقال لها : أنا عزير فبكت وقالت دعنى وعزيرا فإنه غاب عنا غيبة لم نعد نعلم بحاله، فبين لها نفسه وكانت بلغت من العمر مائة وعشرين عاما وقد فقدت عزيرا وهى فى العشرين من عمرها، وقالت له : إن كنت عزيرا فاسأل الله أن يرد على بصرى لأعرفك فسأل الله فأعاد لها بصرها وشبابها كما تركها، فخرجت مسرعة إلى أندية القوم ونادت أن عزيرا أرجعه الله إلينا، فأنكره القوم وكان فيهم ولد له وأولاد أولاد وكان ولده ابن مائة وثمانية عشر سنة فلما أقسمت أنه أسرعوا إليه وقال له ابنه إن أبى كان على ظهره شعر أسود فكشفوا ظهره فوجدوه، وكان بختنصر قد أحرق التوارة فقالوا إن عزيرا كان يحفظ التوارة وقد فقدناها فإن كنت هو فأملها علينا فأملاها، وذكر رجل منهم أن أباه لما رأى بختنصر يحرق التوارة أخذ نسخة ودفنها فى مكان كذا فتوجهوا إلى المكان وأخرجوها بعد أن أكلت الأرض بعضها، وراجعوا ما فيها على ما أملاه عزير فلم يجدوا به اختلافا ولا فى حرف، فصدقوه وأقام بينهم يدعو إلى الله تعالى، ولكن شياطينهم دعوه بأنه ابن الله تعالى كفرا وجحودا،

---

(١) سورة مريم آية ٨

وهذا كما بينت آنفا أن المعجزات المحسوسة تفسد عقائد البسطاء فتجعل من أجرى الله المعجزة على يديه إلها أو ابن الإله كما فعل اليهود والنصارى بعزير وعيسى، وإنا لنشكر الله على نعمته علينا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعجزته الكبرى التى هى القرآن المجيد ،لأن القرآن نزه الذات عن الشبيه والنظير والولد والوالد ،وأقام محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾عبدا لذاته بصريح الآيات ومحكمها . ونسأل الله أن لا يخلى الأرض من قائم له بحجة من الميراث العلى لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حفظا لآيات الله وبيناته .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠)

قبل أن نشرح هذة الآية الشريفة، نبين لإخوننا أيدنا الله وإياهم بروح منه معنى النبى والولى ،ليحفظنا الله سبحانه من سوء الأدب مع رسله عليهم السلام ، فيما ورد عنهم فى القرآن المجيد من مثل تلك الآيات التى نحن بصددها مثل قوله تعالى : ﴿إنى يحى هذه الله بعد موتها﴾ وقوله : ﴿رب أرنى كيف تحى الموتى﴾ وقوله : ﴿أنى يكون لى غلام﴾ حتى نسلم لرسل الله ما لم نعلمه . ونقول : الله أعلم ،ونفهم كلام رسل الله على مقاديرهم من غير أن نضع ميزانا، لأن كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام يوزن بميزان له كفة واحدة، إذ ليس هناك ما يوضع أمامه للتشبيه والتقدير إذ أنهم صفوة الله، وأقرب إلى الله، وأعلم بالله، وأكمل أدبا مع الله . فقول الخليل : ﴿رب أرنى كيف تحى الموتى﴾ لأنه رسول مكلف أن يدعو الخلق إلى الحق، ولابد فى سبيل تلك الدعوة من وجود معارض ومعاند ومكذب، ولابد أن يتحمل الرسل عليهم السلام من أممهم من فادح المجاهدة، والمحاربة والمعاندة مالا تطيقه الجبال .. قال تعالى : ﴿إنا سنلقىعليك قولا ثقيلا﴾ (١) يعنى ثقيلة الدعوة إليه، أما الأولياء فليسوا مكلفين بذلك، فما يلزم الرسل من البيان كل البيان بكشف الحقائق حتى تقوى قلوبهم على إقامة الحجة، بإقدام وشجاعة، لا يلزم الأولياء، لأن الأولياء يبينون ما خفى من الشرائع للمسلمين بها .. إذا تقرر ذلك ظهر لما معنى قول أمير المؤمنين على بن أبى

---

(١) سورة المزمل آية ٥

طالب : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . كأنه يقول يقينى كمل بما تلقيته عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبلغت من العلم مبلغا انكشفت لى به حقائق ما تلقيته،حتى أيقنت يقينا اطمأن به قلبى حتى لو كشف الحجاب لرأيت ما تصورته بعلمى هو الحقيقة بعينها، وذلك لأنه عليه السلام لم يكلف بأن يدعو الناس إلى شريعة جديدة فيحتاج إلى كشف الحقائق قبل دعوته مع يقينه بها، ليقيم الحجة بعزيمة كما يلزم الرسل عليهم الصلاة والسلام فى تقوية دعوهم بالحجج التى تنكشف لهم .

و كذلك ما يقوله الشاطحون الذين اختطفت عقولهم سواطع أنوار الجمال الذى ظهر لهم بعد المعرفة، وما نحا إلية الرافضة وبعض الشيعة، وبعض أصحاب من فنوا عن وجودهم الباطل بالوجود الحق مما قالوه، وهم فى حالة استغراق حيث لا يفهمون له معنى، فيفهمونه بقدرعقولهم فيكون ضلالا وخزيا وبهتانا، ودليل ذلك ما ورد عن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من قوله:((نحن أولى بالشك من إبراهيم))،فكأنه ينفى الشك عنه﴿ ﷺ وآله﴾ وذلك تواضع من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذ لا يتصور عقل مسلم أن الشك يحصل من أحد من الرسل وهنا أشرح لك شيئا من الحقيقة .. إن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام فقال له أنت خليلى، ومعلوم أن الخليل يطيع خليله ، فنظر إبراهيم عليه السلام فى نفسه وقال : كيف أكون خليل الله وهو العلى العظيم ؟ . وأحب أن يطمئن قلبه بأنه خليل الله وهو يعلم أن الخليل يطيع خليله فسأل الله أن يقيم الحجة على أنه خليله بقوله : ﴿رب أرنى كيف تحى الموتى﴾ فقال له : ﴿أو لم تؤمن﴾ أى أو لم تصدق أنك خليلى ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ أى أنا مصدق تصديقا حقا ولكن مقام الخلة يطمعنى فى أن يطمئن قلبى عليه فطمأن الله قلبه على الخلة، فقال سبحانه :

﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ أى ضمهن إليك، فأخذ من كل نوع طائرا وضمها إليه فقال له تعالى : ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾فقطعهن ورمى على كل جبل جزءا، قال سبحانه : ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيا﴾ فدعاهن فالتأمت أجزاء كل طائر حتى عاد كما كان، وطارت إليه جميعا ﴿و اعلم أن الله عزيز حكيم﴾ يعنى واعتقد أن الله ينفذ ما أراده يقهر وقوة، وتدبير وحكمة فهو العزيز الحكيم سبحانه فى إبراز ما أراده من جمال وجلال، وهداية وإضلال، وإعطاء ومنع .

فقوله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى﴾ الآية . يعنى اذكر يا محمد حين قال إبراهيم لربه : ﴿رب أرنى ﴾، وكلمة رب يفتتح بها الدعاء لسرعة الاستجابة، ولاستجداء عواطف الله وإحسانه ،﴿أرنى﴾ أى بعين بصرى ﴿كيف تحى الموتى﴾الجملة مفعول ثان . أى أرنى كيفية إحيائك الموتى، ﴿قال أو لم تؤمن﴾ استفهام من الله تعالى وهو أعلم بسره وجهره تنزلا منه سبحانه ليؤنس خليله ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ أى قال بلى أنا مؤمن مصدق، ولكنى أحب المزيد وهو طمأنينة القلب باليقين الحق الذى يكون عن رؤية البصر، فأمره الله بما سبق بيانه أن يعلم أن الله عزيز حكيم، وقد سبق فى الآية السابقة أن عزيرا قال : ﴿أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ وإن ورد فى رواية ﴿اعلم أن الله على كل شىء قدير﴾ بصيغة الأمر إلا أن العلم بالقدرة شىء، والعلم بأن الله عزيز حكيم شىء آخر، ولذلك فقد أمر الله خليله بأن يعلم أن الله عزيز حكيم . وقال عن عزير : ﴿أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾، فإن مقام عزير كان استفهاما عن إحياء الله تعالى أهل المدينة وعمارتها الأمر المتعلق بالقدرة الجائز وقوعه فى الحال ويوم القيامة . وأما استفهام الخليل عليه السلام فكان عن أمر وإن كان تعلقه بالقدرة أمس إلا أنه يقتضى أن يكون نيله من الله عن عزة وحكمة، ولذلك كان الأمر لإبراهيم عليه السلام بلفظ الأمر ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ .

و لما كان المقام لإظهار عجائب قدرة الله وغرائب حكمته سبحانه، اتصلت آية الخليل بآية عزير أو أرميا لأن الغرض منها تقوية الإيمان فى قلوبنا، وهذة الآيات الشريفة إخبار من الله تعالى نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وأمته ،تقوية لإيمانهم وإثباتا لنبوته﴿ ﷺ وآله﴾ وقصما لظهور اليهود،لأن تلك الآيات معجزة باهرة،ولأن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ كما سبق أن بينا نشأ بين جاهلية عمياء صماء لا تكتب ولا تقرأ، ولا علم لها بأخبار الأنبياء والملوك، فكان اليهود والنصارى أشد الناس عداوة له، وقد قامت الحجة على اليهود والنصارى، ولكن الله لم يشأ أن، يهديهم صراطه المستقيم وله فى ذلك حكمة لا يعلمها إلا الله، ومن يعلمهم بها من أولى العزم من الرسل، وقامت الحجة على منكرى العبث بما بينه الله تعالى فى قصة من خرجوا ألوفا حذر الموت ثم أحياهم الله، وبما حدثنا به عن عزير وإحيائه بعد موته مائة عام، وأقام الحجة للمؤمنين الذين يقاتلون فى سبيل الله بأن الله ينصر من ينصره، بدليل ما

أخبرنا به عن قصة طالوت وجالوت . فالآيات متسقات مرتبطات مبينات للحقائق التى بها كمال الإيمان، وصحة التوكل على الله والثقة بما عنده .

قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢٦١)

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾

هذه الآية الشريفة مرتبطة بقوله تعالى : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ (١) لأن الله تعالى يحثنا على النفقة فى الجهاد بالمال والنفس ،و ضرب لنا مثلا فى ذلك برجل غرس حبة بر أو شعير أو غير ذلك، ونسبة الإنبات إلى الحبة مجازا، والزارع والمنبت هو الله تعالى . أنبتت تلك الحبة سبع فروع فى كل فرع سنبلة، وفى كل سنبلة مائة حبة . وهذا المثل جائز أن يكون، فإن كثيرا من الأراضى الخصبة قد تنبت الحبة فتحمل سبع سنابل ،وقد يكون فى السنبلة مائة حبة، وهذا إحسان الله لمن يبذل ماله فى سبيله، وقد يتفضل بالمزيد إذا وافق ذلك البذل فرح القلب، وأنس النفس بما يحصل من الآلام فى سبيله، فيضاعف له أضعافا كثيرة ، لأن الذى يبذل المال والنفس وقلبه مطمئن بذكر الله ونفسه ساكنة إلى منفسها، وروحه آنسة بمشاهدة إقامة الله له ناصرا له سبحانه، ومجاهدا فى سبيله، وخياله يتمثل ما يناله من رضوان الله الأكبر، ذو همة يتصور ظهور معانى الصفات فى نفسه، قائما لله مسارعا إلى تنفيذ أمره وإعلاء كلمته، فيكون مجموع ذلك مما يضاعف الله عليه الأجر الجميل ،والخير الجزيل.

﴿وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾

أى يزيد العطايا زيادة لا يحصرها العقل الكامل (لمن يشاء) أن يمنحه ذلك الخير، والسبب هو ما أقام فيه قواه الإنسانية جهادا فى سبيل الله تعالى، وفى تلك الآية برهان قوى على كمال التوحيد . لأن الذى أقام العبد مجاهدا بماله ونفسه وعقله وقلبه وروحه هو الله تعالى،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٥

إذ ليس للعبد حول ولا قوة، وفضل الله عليه بتلك الإقامة وشهود تلك المعانى أحب إلى العبد المؤمن الكامل من أعلى رياض الفردوس الأعلى، لأن أنس الروح ومسرة العقل وطمأنينة القلب فوق كل لذة أخرى .

﴿وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

يزيد الله العبد إيمانا ومسارعة إليه سبحانه، وإقبالا على حضرته بما بينه من الوسعة التى تدل على أن الله يعطى المؤمن الكامل عطايا فوق آماله، وتمنياته، فإنه سبحانه إذا أعطى فإنه يعطى على قدره جل جلاله، والعبد إذا تمنى فإنما يتمنى على قدر نفسه، وشتان بين قدر العبد وقدر الرب، ومن تذوق تلك الإشارات فهم قوله تعالى : ﴿و الله يضٰعف لمن يشاء﴾ وقوله سبحانه ﴿والله واسع عليم﴾ يعنى يعلم تصريف النوايا فى القلوب، ويعلم أخفى من ذلك، ويعلم أعمال الجوارح فى الجهاد .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦٢)

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى..﴾

أراد الله سبحانه أن يجلى حقيقة ما عليه من مدحهم، وأثنى عليهم، ووعدهم بهذا الخير العظيم، فقال سبحانه : ﴿الذين ينفقون أموالهم﴾ أى يصرفونها ﴿فى سبيل الله﴾ أى الجهاد، ولإعلاء كلمة الله، ودفع الشر عن المسلمين فى دينهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأبدانهم ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى﴾ أى لا يصحبون نفقتهم التى ينفقونها فى سبيل الله ﴿منا﴾ يثبت ضعف أيمانهم . فإن المؤمن الكامل الذى بذل نفسه وماله فى سبيل الله كأنه وفى بالبيعة التى بايع الله عليها، فإذا ضعف إيمانه أو نسى إيمانه وظن أنه هو المالك لماله ونفسه من بما أنفق على من أخذه منه من أمير أو خليفة . جهلا منه أن الذى أخذ منه هو الله تعالى، معتقداً أن الذى أخذه أمير المؤمنين أو وليه فيمن عليه وفى منه هذا إحباط لعمله، وبرهان على شركه الخفى، وجهله بروح الإسلام . فإذا كان الذى يمن يحبط عمله . فكيف

بالذى يؤذى المسلمين لما أعطاه بأن يعين الأعداء، أو يسعى فى تفرقة الأمة، أو ينشر القبيح فى ولاة الأمور الذين أقامهم الله خلفاء لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قال الشاعر العربى :

سيان عندى من أسدى صنيعة .. ومن منع عنى نواله وضن

وقال آخر :

إن الذى أسدى صنيعه .. وذكرنيه إنه للئيم

و هذا فى معاملة الخلق للخلق، فكيف بمعاملة الحق، والله تعالى يقول : ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمن﴾ [1] ولايمن بما أعطاه فى سبيل الله إلا ضعيف الإيمان ،و لا يؤذى بما أعطاه إلا منافق يتوارى، وهذا كله إذا كان الجهاد فى سبيل الله حقا، وفى إعلاء كلمته صدقا . أما إذا كان الجهاد ما يعلمه أهل الجهالة بالدين طلبا للعلو فى الأرض بغير الحق، فيؤذى بعضهم بعضا،ويلعن بعضهم بعضا ليمكنوا أعداء الله من المسلمين بسبب إجحاف بعضهم بعضا، وبسبب تفرقتهم فليس هذا جهاد، وإنما هو حرب لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعلى المؤمن أن يعمل بما أمر الله فى قوله : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ (٣) فإذا كانت القوة بيد أهل الحق أعانوا من اهتدى على من لم يهتد، وقاتلوهم جميعا، وإن كانت القوة مع أهل الباطل، نصحوا ووعظوا وتبرأوا وهو أضعف الإيمان . قال عليه الصلاة والسلام ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)) ولم نعلم أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل من كافر أن يعينه على الجهاد . والواجب على المسلمين فى الجهاد المشروع ألا يجمعوا عليهم فى مشورقم وسياستهم من يكذب الله ورسوله .

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

بشرى من الله تعالى لمن جملهم الله بالصفات السابقة، وطهرهم من الرجس ومن الشك والريب، لأن الله جعل لهم فضلا منه حقا عليه يوفيه لهم يوم القيامة . فإن الأجر لا يقال إلا لمن كان له حق على من يعطيه الأجر . وما هو الحق الذى لنا ولم نكن شيئا ؟ فسبحان من

---

(١) سورة الحجرات آية ١٧

(٢)

يهدى، ويعين على طاعته، ويقيم فى محابه ومراضيه ،ثم ينسب ذلك فضلا منه إلى العبد، ثم يتفضل فيعطيه أجرا على نسبته إليه، ثم يتفضل فيجعل هذا الأجر غير ممنون عليه، ثم يتفضل فيتكلم مع العبد كلاما يشرح صدره ويطمئن قلبه ويؤنس روحه . اللهم إنا عجزنا أن نحصر نعماك فكيف نقوى على شكرك ؟ فتفضل بشكر نفسك عنا فأنت الشكور، ووفقنا لما تحبه منا مع الشكر على ما تفضلت به علينا .

﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

نفى الله عن أحبابه الخوف والحزن، وهنا أبين لك مواطن الخوف والحزن التى تعترى المؤمن الكامل : إن المؤمن عند موته يحصل له الحزن الأليم والخوف الشديد . أما الخوف فعلى أولاده وأهله الذين أقامه الله لهم حصنا وكفيلا . وأما حزنه فلما فرط فى جنب الله تعالى، فيأتيه ملك من الملائكة وهو فى النزع . فيقول : ما خوفك يا عبد الله ؟ فيقول : أخاف على أهلى وأولادى من بعدى، فيقول له : إنى أبشرك أن الله وليك ووكيلك عليهم من بعدك، فيذهب الخوف وتحصل البهجة والطمأنينة، ثم يقول له : ما أحزنك يا عبد الله ؟ فيقول : أحزن لتفريطى فى جنب الله، وأجهل العاقبة . فيقول له الملك : إن الله بدلك حسنات من عنده، وآمنك يوم القيامة، فيزول حزنه بفرح وبهجة . فهذا معنى قوله : ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وجائز أن تقول: (لا خوف عليهم) من الفتنة عند الموت، وفى القبر، وفى الحساب يوم القامة،(ولا هم يحزنون) برؤية الشر فيمن يحبونه بل يكرمهم الله بأن يشهدهم الخير فى أقاربهم وأهلهم وأحبابهم . قال الله تعالى : ﴿والذين ءامنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمن ألحقنا بهم ذريتهم﴾[(1)] الآية. وفى حديث الشفاعة الطويل بسند الإمام ابن مسعود البغوى فى كتاب : ((مصابيح السنة)) يأمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ العلماء والأتقياء أن يشفعوا عند الله تعالى لإخوانهم، فيدخلون على الله فيقولون : يا ربنا إخواننا !!، فيقول لهم سبحانه : إنهم لم يعلموا كعملكم، فيقولون : إنهم كانوا يعملون لنا ولهم ،وكنا نعمل لنا ولهم . ومعنى هذا أن أهل الدنيا كانوا مشغولين بعملهم فى الدنيا بعد المحافظة على الواجبات، وأن العلماء والأتقياء كانوا مشغولين بالفرض، وبنوافل البر، فكان

---

(١) سورة الطور آية ٢١

أهل الدنيا يشاركونهم فى أعمال البر التى وفقهم الله لها، وأهل التقوى يشاركونهم فى أموالهم التى يعملون فيها، فيأمر الله بإخراجهم من النار . وهذا من كمال عناية الله بأوليائه إدخالاً للسرور عليهم حتى لا يخافوا ولا يحزنوا، وتتحقق لهم البشرى التى وعدهم الله سبحانه بها فى قوله تعالى:﴿يوم لا يخزى الله النبى والذينءامنوا معه﴾ [1] .

قوله تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٢٦٣)

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾

هذة الآية درة شريفة فى عقد من النفائس، فهى مرتبطة بما قبلها تمام الارتباط من قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا﴾ الآية . وقوله : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ الآية . والمعنى رد جميل، وعفو عن المسىء، خير عند الله تعالى من صدقة يتبعها أذى، فالصدقة لا يأخذها الله بيده إلا إذا كانت خالصة لوجهه، مصحوبة ببشاشة وتفضل على الآخذ بالحال والقال، حتى يظن الآخذ أنه الذى أعطى، لأن الحقيقة أن الذى أعطى هو الذى أخذ والذى أخذ هو الذى أعطى وإليك البيان :

نعلم جميعا أن التاجر الكيس إذا ربح فى المائة دينار خمسة دنانير يسعده حظه ويفرح فرحا كبيرا، فكيف بمن يربح فى الدينار سبعمائة دينار وأكثر . هل يظن أنه أعطى ؟ أو يتحقق أنه أخذ وأخذ وأخذ !!!، وقليل ما هم . ولولا الفقير الذى يعطى هذا المال، ولولا الجهاد الذى يقتضى الإنفاق . لحرم المتصدق هذا الفضل العظيم ،فكأن الفقير والجهاد بهما نال المتصدق الفضل الأكبر . إذن من الذى أعطى ومن الذى أخذ ؟ والواجب على من أغناهم الله أن يكون فرحهم بالصدقة أكثر من فرحهم بالمال ووفرته، فإن المال إذا حفظه الرجل حتى يموت كان عذابا عليه يوم القيامة ولو كان من حلال، لأنه يسأل عنه يوم القيامة، مم كسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ ولم حبسه ؟ وقد يعذب به أبناءه من بعده حيث يحارب بعضهم بعضا عليه، أو ينفقونه فى معصية الله فيكون أعانهم على المعصية ،وخير الناس من جعل له ذخيرة عند الله يجدها فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) سورة التحريم آية ٨

﴿وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

يعنى تعالى ذكره أن الله غنى قادر أن يغنى الفقراء عن سؤال الأغنياء، ويحرم الأغنياء أجر ما يأخذه الفقراء، ويجعل ما لهم فى الدنيا عذابا عليهم يوم القيامة لبخلهم به عن أن ينفقوه فى سبيل الله تعالى، ﴿حليم﴾ سبحانه يحلم على الأغنياء الذين يحبسون أموالهم عن أن يتقربوا بها إلى الله فى سبيله، ولولا حلمه لخسف بهم الأرض، ولكنه حليم صبور، وهذان الاسمان بعد هذه الآية الشريفة بشرى للمؤمنين المنفقين، وللمؤمنين الفقراء، وإنذار من الله تعالى لمن أغناهم الله بالمال وبخلوا به، وقد كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا بايع الناس على الإسلام قال للمبايعين كلمة بصوت خافت : ((وعلى أن لا تسألوا الناس شيئا)) .. اللهم إلا إذا دعت الضرورة الفادحة .

قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦٤)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾

قبل أن نفسر هذة الآية نبين هذا الموضوع بيانا تطمئن به القلوب : كلنا نعلم أن أعمال القلوب هى التى يقبلها الله، وتقبل بها أعمال الجوارح قال ﴿ ﷺ وآله﴾ ((إنما الأعمال بالنيات)) الحديث المشهور . وفى رواية أبى حنيفة ((إنما العمل بالنية))، فكل عمل لا يصدر عن نية خالصة لله ولرسوله، ولابتغاء مرضاته سبحانه، بل شابته شائبة الرياء أو الحظ أو الطمع أو الشهوة أو الهوى هو عمل لغير الله تعالى، لا يقبله الله ولا يثبت عليه . ولما كان الخطاب للمؤمنين وكان المؤمن هو المصدق الذى لا تصدر أعماله إلا عن إخلاص لله تعالى ﴿ألا لله الذين الخالص﴾ [1] كان الحكم بعد هذا الخطاب يناسب مقامات المؤمنين . فقوله :﴿لا تبطلوا صدقاتكم﴾ التى فرضها الله عليكم ،ولا صدقاتكم التى هى من نوافل

(١) الزمر آية ٣

البر،أى لا تحرموا أجرها بسبب المن بها على أخذها سواء كان أميراً أو وأمورا أو كان فقيراً دعته الضرورة أن يسأل الناس ، بسبب نزوع نفوسكم إلى المن عليه بما أعطيتموه،أو بسبب أذيته بأن تسيئوا إليه كما يفعل أهل اليسار فيقولون للسائل : أنت قوى سوى، اشتغل، أو ما أشبه ذلك مما يؤذى السائل .

و المن ها هنا كما قدمت لك دليل على أن الغنى ظن هو الذى أغنى نفسه، وأن المال ماله . بحيلته وقوته ؟ . وفى الأذى بلاء آخر وهو الكبرياء والفخر على الفقراء مما يذل السائلين . وهذا المن والأذى يبطل الصدقات، فإذا قال قائل : إذا كان المتصدق تصدق فله أجر، فإذا من أو آذى فعليه وزر، فكيف يكون المن والأذى يبطل الصدقات ؟ نقول له : إنك ما فهمت كلام الله، لأنى قدمت لك أن الله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم . قد تقدم قول الله تعالى : ﴿ قول معروف ﴾ للسائل، ومغفرة لذنوبه التى تدعوه إليها الضرورة إلى أن يتكلم بها مع الغنى، لأن القول المعروف والمغفرة تجعل الفقير يطمئن قلبه، وينشرح صدره، أما المن والأذى فإنه فضلا عن أنه يدل على شائبة الشرك، فإنه يؤلم الفقير ويحزنه، ونحن عبيد مربربون، وعباد مقهورون، فما علينا إلا أن نسمع ونطيع ونسلم تسليما، وليس علينا أن نجعل العقل يبحث فى مثل تلك الآيات المحكمة . جعلها سبحانه صدقة وجعل المن والأذى يبطلها فأخبرنا سبحانه بذلك . فما هو العقل الذى يتردد فى كلام الله، ويتأول فيه تأويلا يخالف الأدب مع الله تعالى ؟ وفى قوله تعالى : ﴿يأيها الذين ءامنوا﴾ خطاب من الله تعالى تنزلا منه وعطفا على المؤمنين، وقوله تعالى : ﴿لاتبطلوا﴾ أى لا تضيعوا ثواب صدقاتكم، والمن والأذى تقدم الكلام عليهما.

﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾

مثل الله حال من يمن على الفقراء أو يؤذيهم بحال المنافقين الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، وتأويل هذة الآية : كعمل الذى ينفق ماله رئاء الناس على حذف مضاف . والرياء معلوم وهو العمل لأجل الناس لينال بذلك الشهرة والسمعة، وينال أغراضه الفانية من رياسة أو سؤدد أو زواج أو مال أو انتقام من عدو. ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أى لا يصدق بالله تصديقا يجعله يراقب عظمته فيخشاه سبحانه، ولا يصدق باليوم الآخر ،ولا بما اعده الله فيه من النعيم المقيم لأهل الإيمان به، ولابما أعده فيه لأهل الكفر به سبحانه، ولا

تجمع تلك الصفات إلا لأهل الكفر، لأن إنكار يوم القيامة كفر، ونسيانه كبيرة، فإن الذى يوقع المسلمين فى الكبائر والصغائر هو نسيان يوم القيامة . فإن المسلم إذا نسى يوم القيامة ارتكب أكبر الكبائر بعد الشرك : من القتل والزنا وشرب الخمور والفسق والخيانة والعقوق والقطيعة، غير مبال بشيء إلا إذا رد عنها قهرا بسوط السلطان . أو بأذية الناس له، ولكنه متى خلا بنفسه ارتكب أفظع الكبائر غير هياب من عذاب الله، وجل من لقائه . أعاذنا الله من إنكار يوم القيامة، ومن نسيانه، فإن الدنيا غرارة ضرارة مرارة .

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾

مثل الله تعالى حال المنافق والكافر بحجر، ومثل الأعمال الخيرية التى يعملها بتراب على وجه الحجر من رآه قال : هذا صالح للزراعة، فإذا أنزل عليه المطر انكشفت الحقائق، وأزال التراب من على وجهه، وتركه حجرا صلدا وكذلك المنافقون الذين يعملون بجوارحهم أمام المؤمنين . مثل عملهم من صلاة، وصيام، وحجج ،وصدقات . وقلوبهم قد عقدت على الكفر، نعوذ بالله تعالى . بتلك الصخرة، وجعل تلك الأعمال كما بينت لك وإن رآها المؤمنون ليس لها فى الحقيقة أثر ولا وجود، كالتراب على وجه الصخرة فإن المطر يزيله . نسأل الله الستار أن يستر علينا فى الدنيا والآخرة، وأن يطهر قلوبنا من سوء الظن، ومن نسيان يوم القيامة، والوابل هو المطر الغزير الذى لا يبقى على الحجر ترابا، والصلد هو الحجر الصلد الأملس الذى لا يلتصق به التراب .

﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

جعلهم الله كهذا الحجر الذى عند إنزال الوابل عليه أزال طبقة التراب عنه، فكذلك المنافق الذى ينفق ماله رئاء الناس، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، إذا انكشفت الحقائق يوم القيامة ظهر أن أعماله كانت لغير الله ،وزالت بكشف الحجاب، وعجز عن أن ينال ثوابها،لأن الله قدر عليه ذلك لصدور الأعمال منه مشوبة بالنفاق، والكفر، فكانت أعمالهم التى اكتسبوها بحسب نواياهم الخبيثة سببا فى خلودهم فى جهنم، فضلا عن حرمانهم من ثوابها ﴿ والله لا يهدى القوم الكفرين ﴾ أى لا يوفق للخير من سبق فى أزله سبحانه الحكم

عليهم بالكفر ،وفى هذه الآية مشهد من مشاهد التوحيد العالية يتذوقه أهل المعرفة بالله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢٦٥)

بعد أن أنذر الله تعالى عباده بكشف الحقائق عن عيون قلوبهم، بالبيان الصريح الذى بين فيه ما يناله المسارع إلى محاب الله ومراضيه، خصوصا فى الإنفاق على الفقراء من مال الله الذى فرضه على الأغنياء، وفى نفقة التطوع، وبين ما يناله المخالف الذى يمنع الزكاة المفروضة والصدقة المندوبة من العذاب الأليم، بين ذلك بالمثل الكاشفة للغيب الذى لا يراه الإنسان الآن، وسيكون محققا يوم القيامة، يبين سبحانه كعادته فى التخويف والتبشير فبشر أهل الإيمان به المسارعين إلى القيام بما أوجبه عليهم وما رغبهم فيه قال تعالى : ﴿و مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين﴾ الآية

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾

أى لابتغاء مرضاة الله، فيكون مبتغاه يبذل المال الذى هو كروحه رضوان الله تعالى .

والناس فى تصاريف نواياهم عند القيام بالقربات إلى الله تعالى على ثلاثة أنواع :

(١) نوع يتقرب إلى الله تعالى ليقوم بالواجب عليه ويفوز بما وعده الله من نعيم مقيم .

(٢) وقوم يتقربون إلى الله تعالى بمجاهدة نفوسهم ليقهروها على ترك جنة الدنيا من شهى الطعام، ووطىء الفراش، وبهى الثياب، يبتغون بذلك الفوز برضوانه الأكبر، لأنهم تركوا الجنة فى الدنيا أحوج ما يكونون إليها ،فكيف تشغلهم جنة الآخرة بعد أن شهدوا بعيون القلوب جمال الرضوان، وبهجة الأنس به ؟

(٣) ونوع عملوا بما علموا استجابة لله فعلمهم الله تعالى علم ما لم يكونوا يعلمون، قال تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[١] والعلم الذى يعلمه الله لأهل التقوى هو أن يعلمهم سبحانه غيبة المكنون، وسره المصون الذى لا يعلمه إلا هو سبحانه او من يعلمهم، قال الله تعالى : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احد إلا من ارتضى﴾[٢] وهم ضنائن الله فى خلقه أفناهم عنهم حتى جذبهم إليه، وتفضل عليهم برحمة من عنده، وبعلم من لدنه وهم الذين رضى الله عنهم فى الدنيا، ورضوا عنه، فليس لهم بغية سواه، ولا مقصد إلا إياه، وبدايتهم بيع النفس والمال لله، ونهايتهم الفرار بالكلية إلى الله قال تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[٣] فلما أن سلموا السلعة بإنفاق النفس والمال فى سبيل الله، قبل الله منهم وجعلهم عنده، وسقاهم من مشاهد التوحيد العلية شرابا طهورا .

﴿وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾

يعنى سبحانه أنهم بلغوا من مقامات التصديق واليقين والتمكين مقاما ثبتت فيه نفوسهم على بذل بعضها وهو المال، مبلغا به يبذلون النفس والمال لأن فى قوله :﴿من أنفسهم﴾جائز أن تكون ﴿من﴾ تبعيضية ويكون المعنى أنهم تثبتوا حتى بذلوا بعض النفس وهو المال . وجائز أن تكون لابتداء الغاية، والمعنى أن التثبيت من أنفسهم هنا ابتدأ يبذل بعض النفس وهو المال . لأن المال شقيق النفس، وله المحل الأعلى فى القربات، فبذله مع اليقين الحق بنيل ما وعدنا الله به فوق الصوم والصلاة، بل وفوق الحج، فإن الإنسان قد يحج بعافيته ماشيا وخادما، ويبخل أن يبذل ماله فإذا حصل له التثبيت ابتدأ يبذل المال ثم انتهى يبذل المال والنفس، وقد وردت الآيات بأن الله يعطى بدل النفقة فى سبيله سبعمائة مثلها ويزيد لمن يشاء . فإذا بذل المؤمن ماله ونفسه، هنا نمسك القلم عجزا منا عن أن نبين ما يتفضل الله

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

(٢) سورة الجن آية ٢٦

(٣) سورة التوبة آية ١١١

به على من أنفق نفسه وماله فى سبيل الله تعالى الذى وعد المنفق بقوله : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة﴾ (١)، وقوله تعالى فى هذه الآية :
﴿كمثل جنة بربوة﴾ .

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾

الجنة : هى البستان الملتف الأشجار الذى لا يرى الخارج عنه ما فيه لالتفاف أشجاره، والربوة : هى المرتفع من الأرض البعيد عن برد الهواء، وعن الرطوبة الكامنة بسبب احتجاب أشعة الشمس عن الأرض المنخفضة بما ارتفع عنها، فتكون الربوة ممتعة بالهواء الصافى النقى، وبأشعة الشمس المطهرة، ولها خصوصية أخرى وهى انها إذا نزل الوابل ابتدأ بالنزول عليها، فتهتز وتربو، وينمو شجرها، ويكثر ثمرها، وإذا لم ينزل الوابل نزل الطل وهو الماء الذى يتشبع به الهواء ليلا، ويمر عليها فيتساقط، وقل أن يصل إلى المنخفض من الأرض، وفى هذه الآية إشارة إلى أن ما يقدمه المؤمن من النفقة فى سبيل الله يقبله الله تعالى بحسب نية العامل، فإن بذل ماله فقط مبتغيا النعيم يوم القيامة تفضل الله عليه به، وإن بذله مبتغيا رضوان الله من الله به عليه، وهذا هو الطل والوابل، وكلاهما بتقدير الله وإحسانه، وإن فر إلى الله تعالى فانيا عن أن يلحظ إلا مشهد التوحيد العلى أحسن الله إليه بما لا نتصوره بعقولنا من خير الجزاء، قال الله تعالى : ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ (٣) قال بعض العارفين : يعلمكم الله الله لأن التقوى لا تكون إلا بعلم، والتقوى هى تحصيل العلم والعمل . فإذا حصل العلم الذى يمكن أن يحصله، وعمل به مبتغيا رضوان الله تعالى ببذل ماله ونفسه علمه الله تعالى مضنون غيبه، ومكنون علمه، وسر جماله، وجلاله، وبهائه، وضيائه، ونوره، وكماله .

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١

(٢) سورة التين آية ٦

(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢

(وابل) أى مطر غزير، وفيه الإشارة إلى إحسان الله على العبد الذى بذل نفسه وماله .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾

أى يصيبها طل، وهو إشارة إلى الماء المتخلل فى الهواء كالندى، وفيه إشارة إلى من بذل ماله فقط .

﴿وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

فى هذه الآية إنذار من الله تعالى، وبشرى منه سبحانه، فبشرى لأهل الإيمان به الذين يشهدون أن الله يرى أعمالهم، ونواياهم، وهممهم ولممهم، فيفرحون بفضل الله وبرحمته، وهى تخويف لأهل الكفر بالله والغافلين لأنهم إذا علموا أن أعمالهم ونواياهم يراها الله تعالى بعد أن توعد من وقع فى شيء منها بعذاب النار تقوم الحجة عليهم، فإن قدر الله لهم الهداية تابوا ورجعوا، وإن لم تسبق عاندوا وأنكروا .

قوله تعالى :﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦)

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾

هذة الآية مثل أزعج الله به قلوب أهل الإيمان . لأن الله كشف بها حقائق تراها محسوسة ملموسة بين ظهرانينا، وصدق الله العظيم، فإنا نرى الأغنياء وأصحاب الحرث والنسل والماشية والقصور العاليات إذا كبر الرجل منهم يزول ما بيده، ويقع فى آلام الكبر والضعف، ومضار الفقر والحاجة، وفساد الأولاد والأتباع، فإذا بحثنا عن سبب ذلك تقوم الحجة أن ذلك السبب هو البخل بمال الله على عياله قال الله تعالى فى حديثه القدسى :((الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى، فمن يبخل بمالى على عيالى أذقته نكالى ولا أبالى))، وكذلك ظلم العباد فى تحصيل عرض الدنيا وتنميته، وبذل ما أعطاه الله تعالى فى أن يملأ

المراحيض بما أكل، ويسرف فى لباسه وأثاثه ومسكنه، حتى إذا جاءه الموت خرج من الدنيا مثقلا بالديون لله بمعاصية سبحانه، وللخلق بظلمه إياهم، فيقف يتمنى أن تكون له حسنة عند الله أو عند خلقه، ويقف خصومه يطالبونه بحقوقهم فيرد الله عليه سيئاتهم حتى يكبل فى نار جهنم، حيث لا ينفعه مال ولا بنون، ولا ملك، ولاعزة، ولا شهرة، فيتمنى المنافق والكافر أن يكون ترابا لا يملك ترابا، ولات حين مندم .

كم رأينا من فقير فى شبابه لا يملك قوت يومه، وله أولاد أطفال يبكون من الجوع، ولما كبر سنه وضعفت قوته حيزت له الدنيا بحذافيرها فأعانه الله بها على نيل رضائه سبحانه، ولم ينس ما كان فيه فى شبابه . فإذا بحثنا عن ذلك يظهر لنا أن تقوى الله تعالى، ومجاهدة النفس فى الشباب تنيل المؤمن خيرا عند كبره، ويكون الخير أكمل وأتم وأجمل يوم القيامة، يقول الله تعالى فى سورة الضحى مخاطبا حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ (١)، أى واللحظة المتأخرة خير من المتقدمة، وهذه سنة الله فى خلقه فمن بخل بما أتاه الله ،واستعان بنعم على معاصية، وأحب نفسه وآثرها على من أوجب الله عليه برهم وصلتهم، ومن فرض الله عليه النفقة عليهم من المجاهدين، والغارمين، وابن السبيل، والجار ذى القربى، والجار الجنب، وبقية وجوه الصدقة سلب منه النعمة فى كبره وأذاقه مرارة الذل والجوع وآلام رؤية أولاده حوله فى فقر . ومن آثر الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ والدار الأخرة فرضى فى الدنيا بالقليل، وبذل منها الكثير ،و نظر إلى خلق الله بالعين التى ينظر بها إلى نفسه وزوجته وأولاده حتى كأنه كما قال الله تعالى : ﴿إنما الؤمنون إخوة﴾ (٢) وكما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ((أحب لأخيك ما تحب لنفسك)) تولاه الله بولايته الخاصة عند كبر سنه، وضعف قوته، وأغدق عليه نعماه، وتوالت عليه تلك النعمى عند حلول الموت به فتحفه ملائكة الرحمة، وترفع روحه إلى عليين، ويكرمه الله، ويحفظه من عذاب القبر الذى لا ينكره العقل، وإن أنكره من لا عقل له يعقل عن الله.

---

(١) سورة الضحى آية ٤

(٢) سورة الحجرات آية ١٠

﴿أيود أحدكم﴾

أى أيتمنى أحدكم أن يكون له بستان جمع الله فيه أنواع الفواكه والحبوب فى شبابه ،وهذا البستان ينمو وتكثر غلته، والإنسان قوى غنى لا يخاف الله تعالى ورسوله، ويبخل بحق الله تعالى فى بستانه ناسيا عقوبة الله فى الدنيا والآخرة، وبعد ذلك حل به الهم فأضعفه عن العمل، وحوله أولاد ضعفاء، وأصابه ما يصيب أهل المعاصى من سلب النعمة، أو فى هذا الوقت العصيب من حلول الهرم، وكثرة الأولاد، وشدة الضرورة إلى اللوازم، ويصيب جنته زوابع من الهواء المحموم فيحرقها فلا يبقى فيها نجم ولا شجر كما نرى بأعيننا من المصائب فى أهل المعاصى . يحصل هذا البلاء للعصاة لا فرق بين ملك وسوقة، ولا بين غنى وفقير، وكبير وصغير، وعظيم وحقير . أسأل الله تعالى أن يعيذنا بجماله من جلاله، وبرضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، إنه مجيب الدعاء ...

و من فقه هذه الآية ورآها واقعة بمن توعدهم الله تعالى، تضاءلت الدنيا فى عينه، ويسارع إلى القيام بأوامرالله تعالى . والنخيل والأعناب معلومة (تجرى من تحتها الأنهار) أى من تحت أشجارها، والإعصار هو الزوابع الشديدة التى تقتلع الأشجار والمنازل، وقد أنزلها الله على أعدائه الظالمين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين فى هذه الأيام انتقاما منهم على ظلمهم لعباده المسلمين .

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

يعنى أن الله سبحانه وتعالى بين لنا الآيات فيما سبق بيانا قبلته العقول التى تعقل عنه سبحانه، وبيانه الأول إحسان منه إلينا، ولا يزالون سبحانه يبين لنا كما بين . فقوله تعالى : ﴿كذلك يبين الله لكم الأيت﴾ ،أى كما بين لقوم يتفكرون من أهل النظر والبصيرة الذين يتفكرون فى أمور الدنيا والآخرة فيعملون فى الدنيا بما ينالون به الفوز بالجنة، أو نيل رضوان الله تعالى . و﴿لعل﴾ هنا بمعنى لام الحكمة لالام التعليل، أى لتفكروا فيما أبدعت فيكم ولكم مما ترونه حولكم . قال سبحانه : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموت وما فى الأرض﴾ (١) ....

(١) سورة لقمان آية ٢٠

قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٢٦٧)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾

يخاطب الله المؤمنين فى هذه الآيات فيناديهم نداء القريب، عطفا منه سبحانه ورحمة، وجذابا لقلوبهم ليسارعوا إلى تلبيته والاستجابة له سبحانه، وقلب مؤمن يسمع الله تعالى يناديه بيا أيها الذين آمنوا يسارع إلى تلبية الله تعالى صاغيا إلى ما يحكم به بعد النداء . فإذا سمع الله تعالى يقول : ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ وعلم أن ما اكتسبناه هو الحلا الذى لا تشوبه الشبه، ولا يمازجه المكروه فضلا عن الحرام . ومعلوم أن النفقة هى الصدقة للعبد سواء كانت النفقة فرضا أو نفلا، فإذا كان الله يأمرنا بأن نتصدق من طيبات ما كسبنا فكيف يكون الحال فيما تقوى به أبداننا من المطعم والمشرب ؟ وما نسترها به من اللباس، وما نقيها به من الأثاث والمسكن ؟ يجب أن يكون أطيب الطيبات، ولا يكون ذلك إلا بالورع الشديد الذى يتحرى فيه الإنسان أن يكون ما يتقوى به جسمه مما تطمئن به القلوب من الحلال الطيب .. إذا علمت ذلك فالطيبات التى تكسبها هى ما تملكه من حلال، وذلك الحلال هو الذى نكتسبه من تجارة أو زراعة أو صناعة أو حراثة مما يخرجه الله لنا فى الأرض . وإن فسرنا الآية بسبب نزولها فإن سبب نزولها : أن الأنصار كان يتصدق بعضهم بالحشف من التمر والرادىء منه ويجعلونه عند أهل الصفة، فلما رآه ﴿ ﷺ وآله﴾ كره ذلك فأنزل الله تعالى قوله : ﴿يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبت ما كسبتم﴾ أى قدموا إلى الفقراء أجود ما كسبتم وأجود ما أخرج الله لكم من الأرض . وهذا التفسير لا يمنع أيضا أن الطيب هو الحلال الذى لا يشوبه حرام والطيب أيضا هو الجيد من كل شيء.

﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾

و الخبيث هنا الردىء من كل شيء، أو هو الحرام من مغصوب، أو من ربا أو من مال يتيم، فإن أحكام القرآن لا تخصصها أسبابها ﴿و لا تيمموا﴾ أى لا تقصدوا .

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾

أى أنكم لا ترضون بأخذه فى البيع والشراء والهدية إلا إذا تساهلتم فنقص البائع ثمنه عن الجيد، وقبله المشترى لرخصه، والإغماض هو التساهل من الطرفين، أو من طرف واحد وقوله تعالى (فيه) أى فى أخذه واستلامه .

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

يكشف الحجاب عمن لهم بصائر ليحصل لهم اليقين والطمأنينة، لأنه غنى عن الخلق قادر أن يغنىالفقراء ويفقر الأغنياء . وإنما كلف ليفوز الفقراء بجمال صبرهم، ويفوز الأغنياء بجمال الرحمة والشكر ليجمعهم جميعا فى فردوسه الأعلى، ويرفع الفقراء يوم القيامة حتى تكون لهم الدولة فيشفعون فيمن شاءوا ممن شاركهم فيما أعطاه الله . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ ((أتخذوا عند الفقراء أيادى فإن لهم الدولة يوم القيامة)) . (غنى حميد) أى أنه سبحانه مختص بالأسماء المفيضة للنعم لتى يحمد عليها، ومن أنفق من طيبات ما رزقه الله جمله الله باسم من أسمائه وهو الحميد، أى أن الناس يحمدون من أنفق عليهم، وفى هذا الإسم إشارة إلى أنه لا يحمد إلا الله تعالى لأن الحمد هو الثناء الجميل على جميل اختيارا، ولا يكون إلا باللسان، ولايمنح الجميل اختياراً وفضلا إلا الله تعالى .

أما ما يمنحه الخلق من الجميل فلا يكون إلا لباعث أو غرض أو داع . فالحميد هو الله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وإنما ذكر هذا الإسم فى هذه الآية ليعلم الخلق أن الله ما أمرنا بالإنفاق من الطيبات إلا لأنه حميد يحب الخير، والإحسان لعباده، ويمنحهم من فضله، وهو الغنى عنهم الحميد سبحانه عز وجل .

قوله تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٦٨)

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾

الشيطان مأخوذ من شاط أو شطن، وهو الحقيقة التى خلقها الله من النار، وقدر أن تكون فتنة ابتلى بها الملائكة والإنسان، وقد حفظ الله من شره الملائكة، وسلطه على بنى الإنسان، ولكن لم يجعل له سلطانا على من اجتباهم واصطفاهم .

قال سبحانه : ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾ [١]و قال تعالى : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [٢] وقد أخبرنا الله تعالى عنه بقوله سبحانه : ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شكرين﴾ [٣] حكمة الله فى إيجاد الشيطان لا يعلمها الراسخون فى العلم، وقد بين الله تعالى لنا فى هذه الآية أنه عدو للإنسان من أول نشأته، والواجب علينا أن نتحفظ منه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ومنفذه الذى يدخل منه النفس الأمارة بالسوء التى هى من النار، وأبوابها التى تفتح له هى الطمع والحسد والحرص ،وهى أصول الكبائر فدخل على آدم عليه السلام من باب الطمع فى الخلود فى الجنة، ودخل على قابيل من باب الحرص، ودخل على علماء الدنيا وجهلة النساك من باب الحسد، أعاذنا الله من شره ومن شر أنفسنا الأمارة بالسوء .

﴿يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾خلق الله الإنسان من قوى متضادة قابلة للتزكية ،وللتردية، قال تعالى : ﴿و نفس وما سواها* فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكها * وقد خاب من دسها﴾ [٤] فهو مفطور على الشر حتى تتبين له الفضائل الإسلامية بالحجة التى يلين لها قلبه ويبش فيقبلها ،وفى هذه الآية كشف للحقائق، وبيان لما فطر الإنسان عليه، وتعليم للإنسان يهتدى به إلى صراط الله المستقيم فى أهم شئون حياته، وهو المال الذى هو بمترلة الروح عند الإنسان، ولذلك كان للإنسان بالمال منفذ ينفذ منه الشيطان إلى قلبه فيحفظ الله الإنسان من وسوسة الشيطان فى هذا الشأن لقوله تعالى : ﴿الشيطن يعدكم

(١) سورة الحجر آية ٤٢

(٢) سورة النحل آية ٩٩

(٣) سورة الأعراف آيتى ١٦ ،١٧

(٤) سورة الشمس الآيات : ٧ ،٨ ،٩ ،١٠

الفقر﴾ أى يعدكم على نفقتكم الفقر فيقول لكم : إن أنفقتم تلك النفقة نقص ما لكم فاحتجتم إلى الناس . وفى ذلك ما فيه من الشك ومن سوء الظن بالله ومن فقد التوكل على الله، وفيه دليل على ضعف الإيمان، فإن القلب الذى يتأثر بوسوسة الشيطان بعد خبر الله تعالى خلو من نور الإيمان ﴿و يأمركم بالفحشاء﴾ الفحشاء فى سياق هذه الآية هو الشح والبخل . والبخل هو أن ينفق الإنسان ماله على زوجته وأولاده ويبخل على غيرهم، والشح هو أن يحبس المال فلا ينفقه على نفسه ولا على أولاده، وإن كانت الفحشاء فى غير سياق هذه الآية معناها الزنا وفعل قوم لوط . وجائز أن تكون الفحشاء كل ما فحش عقلا وشرعا .

﴿وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾

أى والله يعدكم على النفقة فريضة كانت أو نافلة، مغفرة لذنوبكم ووسعتة لأرزاقكم من حيث لا تعلمون، لأن الفضل الذى يعدنا الله به يتفضل به علينا من غير أن يكون لنا عمل نستحقة به، فقد بارك فى تجارتنا وزراعتنا وصناعتنا وفى عافيتنا، وفى أولادنا من حيث لا نعلم ذلك . قال تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (١)

﴿وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

يعنى يتفضل على من يشاء ممن وفقهم للنفقة بواسع فضله، الذى لو شاء أن يعطى كل إنسان بمفرده قدر الأرض ملكا، وقدر أوراق الأشجار خيرا، ما نقص من خزائنه شيء، فإنه يعطى بقدر وسعته سبحانه لمن لا يستحق خردلة، فإنه جل جلاله منح الإنسان فى جسمه من الخيرات والنعم التى لا تحصى . انظر إلى الشرايين والعروق وإلى كثرتها، وإلى أنه سبحانه سكنها سليمة نافعة، ولو حرك شريانا صغيرا لآلم الجسم كله، بل وخلق له السموات والأرض وما فيها مسخرة له، فالإنسان ينسى هذا الفضل، ويغفل عن تلك النعم، ويتهاون فى شكر الله على نعمه ويبخل بنعمته على عباده، والله تعالى حليم صبورلا يعجل النقمة للعبد ﴿عليم﴾ أى يعلم أسرار القلوب وعلانية الشخص فلا يخفى عليه شيء

---

(١) سورة الطلاق آية ٢- ٣

فى السموات ولا فى الأرض، ولا فى الأجواء والأرجاء، فإذا وفق العبد للخير كان ذلك من فضله، ثم يتفضل بفضل على فضل فيجازيه بالخير وهو الموفق المعين . وإذا أضل الله العبد فجعل المال إلهه المعبود وسلب منه التوفيق والعناية فبخل به على مستحقيه، أو اغتصب حقوق غيره حلم عليه سبحانه وصبر، فإما أن يلهمه التوبة والرجوع إلى الله فيغفر له ويتفضل عليه سبحانه، وإما أن يستدرجه فتقوى محبته فى المال، وبذلك يبغض أن ينفقه لمن يستحقه، ولمن لا يستحقه، فتصيبه المصائب من حيث لا يعلم . أسأل الله أن يعيننا على ما يحبه بما أعطانا من النعم من مال وعافية وأولاد، وأن يحفظنا من أن نستعمل نعمه علينا فيما يكره .

قوله تعالى : ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩)

﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾

بينت لك فيما سبق أن الإيتاء إعطاء النعم للمعطى له لينتفع بها هو وغيره، بخلاف الإعطاء كما قال تعالى : ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ أى يهب الحكمة لمن يشاء لينتفع هو ومن يشاء الله أن يمنحهم الحكمة ،والحكمة هى استكمال النفس الإنسانية لتحصل ما عليه الوجود فى نفسه، وما عليه الموجد جل جلاله، حتى يكمل العبد بالحكمة فلا يعمل إلا ما ينبغى، ويترك مالا ينبغى لتصير كاملة مضاهية للعالم الروحانى، وتفوز بذلك بالسعادة القصوى الأخروية بحسب الطاقة البشرية، وهى تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين :

(١) لأنها إن تعلقت بالأمور التى نصدق بها ونسلم بها وليس لنا أن نعملها سميت حكمة نظرية، كالعلم بذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وبسر إيجاد الخلق وإمدادهم، وبسر القدر والنبوة والرسالة والولاية ،و بالمؤمن به من
المغيبات عنا وأخبار يوم القيامة .

(٢) وإن تعلقت بالأمور التى لنا أن نعلمها وأن نعملها سميت حكمة عملية .

و كل من الحكمتين منحصر فى أقسام ثلاثة :

أما النظرية فلأن مالا يتعلق بأعمالنا إما أن لا تكون مخالطة المادة شرطا لوجوده أو تكون، وحينئذ إما أن لا تكون تلك المخالطة شرطا لتعلقه او تكون فالأول : وهو ما لا تكون مخالطة المادة شرطا لوجود، هو العلم الإلهى وهو العلم الأعلى، والثانى : وهو أن تكون المخالطة شرطا لوجوده دون تعلقه وهو العلم الرياضى وهو العلم الأوسط . والثالث : وهو أن تكون المخالطة شرطا لوجوده وتعقله، وهو الطبيعى كعلم المعادن والنباتات والحيوانات والطب والفلك والصنائع وهو العلم الأسفل .

و أما العملية فلأن ما يتعلق بأعمالنا : (١) إن كان علما بالتدبير الذى يختص بالشخص الواحد فهو علم الأخلاق (٢) وإلا فهو علم تدبير المنزل إن كان علما بما لا يتم إلا بالاجتماع المنزلى (٣) وعلم السياسة إن كان علما بما لايتم إلا بالاجتماع المدنى . ومبادىء هذه الثلاثة من جهة الشريعة الإلهية .

و فائدة الحكمة الخلقية أن يعلم الفضائل، وكيفية اقتنائها، لتتزكى بها النفوس، وأن يعلم الرذائل وكيفية الوقاية منها لتطهر منها النفس، وفائدة المنزلية أن يعلم المشاركة التى ينبغى أن تكون بين أهل منزل واحد لتنتظم بها المصلحة المنزلية التى تتم بين زوج وزوجة، ووالد ومولود، ومالك ومملوك، وفائدة المدنية أن يعلم كيفية

المشاركة التى تقع بين أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان، ومصالح بقاء نوع الإنسان . والمدنية قد قسمت إلى قسمين:

(١) إلى ما يتعلق بالملك والسلطنة، ويسمى علم السياسة .

(٢) وإلى ما يتعلق بالنبوة والشريعة، ويسمى علم النواميس . لهذا جعل بعضهم أقسام الحكمة العملية أربعة وليس ذلك بمناقضة لمن جعلها ثلاثة لدخول قسمين منها تحت قسم واحد . ومنهم من جعل أقسام النظرية أربعة بحسب انقسام المعلومات .

فإن المعلوم إما أن يفتقر إلى مقارنة المادة الجسمية فى الوجود العينى أولا .

(١) والأول إن لم يتجرد عنها فى الذهن فهو الطبيعى

(٢) وإلا فهو الرياضى والثانى

(٣) إن لم يقارنها البتة كذات الحق سبحانه وأسمائه وصفاته سبحانه فهو الإلهى

(٤) وإلا فهو العلم الكلى .

والحكمة الأولى كالعلم بالوحدة، والكثرة، والسبب، والمسبب، وأمثالها مما يعرض للمجردات تارة ،وللأجسام أخرى، ولكن بالعرض بالذات، إذ لو افتقر بالذات إلى المادة الجسمية لما انفكت عنها، ولما وصفت المجردات بها . ولا منافاة بين التقسيمين كما عرفت فهذه جملة أقسام الحكمة . ومن استكمل نفسه بها فقد أوتى خيرا كثيرا .

و جائز أن تكون الحكمة ها هنا الإصابة فى الرأى أو النبوة أو القرآن أو السنة أو العلم، فإن لفظة الحكمة وردت فى آيات كثيرة فى القرآن بمعنى السنة، أو بمعنى العلم، أو بمعنى الإصابة فى الرأى، أو بمعنى وضع الشىء

فى موضعه . وجائز أن تكون الحكمة بكل تلك المعانى يمنحها الله لمن يشاء فيكون سيد العالمين، فإنها بكل تلك المعانى منحت لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد تفضل الله فمنح كل عبد أحبه قسطا منها، وقد يجمعها سبحانه لأهل الاصطفاء من خاصة خلقه، فتنطوى الرسالة والنبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه، ويحاسب يوم القيامة حساب الأنبياء .

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَد أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾

معلوم أن الله تعالى قال : ﴿قل متٰع الدنيا قليل﴾[1]، والمتاع ما يتمتع به الإنسان من ضرورى وكمالى، فإذا كان متاع الدنيا قليلا ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، فإذا نسبنا متاع الدنيا إلى الحكمة ظهر لنا ما للحكمة عند الله من المكانة العالية التى كانت الدنيا بحذافيرها قليلا فى جانبها، وإذا كانت الحكمة هى العلم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا والله يقول : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [2] فتكون الحكمة التى هى خير كثير فى جانب علم الله شيئا قليلا. فإذا نظر العقل الكامل سجد لله عجزا عن تصور علم الله تعالى، لأن ما أوتيه الإنسان والملائكة والإنس والجن من العلم قليل بالنسبة لعلم الله تعالى، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ،ولايبلغ الواصفون صفته، وهنا يجب أن نعلم أن خير ما آتاه الله تعالى فى تلك الدار الدنيا بعد الإيمان به وبنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ وبما أنزله سبحانه هو العلم، الذى بينه لنا بأنه الحكمة . ومتى منح الله العبد الحكمة جذبته بما كشفت له من الغيب المصون إلى العمل بمحاب الله ومراضيه، وليس للعقل وإن كمل أن يحصر ذلك الخير الكثير الذى أخبرنا الله عنه فى تلك الآية، ومن منحه الله الحكمة منا وأخبرنا الله أنه آتاه خيرا كثيرا، يجب أن نسارع فى أن ندخل قلبه بالوسائل التى تمكننا من ذلك، حتى نحصل من هذا الخير الكثير ما يجعلنا من أهل الخير .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

أى ولاتحصل تلك الذكرى التى تعيد لنا صورة البدء، وتكشف لنا الحقائق، ويحصل لنا الحضور، أو الاستحضار إلا لمن منحهم الله غامض علمه المكنون، وسر غيبه المصون، وهم أولوا الألباب الذين منحوا لب اللباب، ولايتفضل الله بهذا اللب إلا لمن جعل له نورا وهو القلب الرحمانى الذى هو عرش الرحمن، وليس هو تلك اللحمة الصنوبرية التى هى مستودع دورة الدم، فإن الحمار والقرد والخنزير له قلب حيوانى مثله، ولكن القلب الذى مدحه الله وأثنى عليه فى القرآن هو الحقيقة الإنسانية التى هى صورة الرحمن، وهى عرشه، ومحل

---

(١) سورة النساء آية ٧٧

(٢) سورة الإسراء آية ٥٨

تنزلاته، وخزانة تعظيمه وعلمه سبحانه، وأهل هذا المقام هم الذين تجذبهم الذكرى إلى استحضار بدئهم ونهايتهم، وما يجب عليهم القيام به لمن أبدعهم وأمدهم فيما بين البدء والنهاية حتى يحصلوا ما به يكونون فى جواره فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، أما من جهل نفسه وجهل إيجاد الله له وإمداده فأنساه الحظ والهوى بدءه ونهايته فهو أضل من البهيم السائم . وإن كانت صورته صورة الأناسى إلا أن حقيقته دون ذلك بمراحل . قال تعالى : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ (١) فيعمل فى الدنيا عمل البهائم ويحاسب فى الآخرة حساب الإنسان المكلف .

حفظنا الله من الحجاب فى تلك الدنيا، وجعلنا ممن آتاهم الحكمة التى هى الخير الكثير .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٢٧٠)

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ﴾

و معنى هذة الآية الشريفة أن الله يقول : ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ فى سبيل الله، أو فى سبيل الشيطان الذى يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، وما نذرتم من نذر فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان، فإن الله يعلمه مهما أخفى من عامل الله بالإخلاص أو أظهر، ومهما راءى متبع الشيطان الناس فى عمله، وأخفى عنهم ذلك مظهرا أنه يعمل لله فإنه لا يخفى على الله بل يعلمه جل جلاله، ويتفضل على المخلص بأضعاف أضعاف ما أنفق وما نذر، ويعاقب المخالف بعذاب جهنم أو يغفر له .

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

﴿ وما للظلمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله تعالى، والوقوع فى نواهيه، والعمل بوسوسة الشيطان وإغوائه، ﴿من أنصار﴾ يوم القيامة ينصرونهم بشفاعة، أو بإعانة لأن كل إنسان فى يوم القيامة يحصل له الفزع الأكبر عندما يتجلى الحق باسم الحكم العدل، ويدعو

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٤

الخلائق للحساب، فإن هذا الحال يجعل أولى العزم من الرسل يقول كل واحد منهم : نفسى نفسى كما قال تعالى

﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾(١)، ومن كان هذا حاله كيف يشتغل بغيره ؟!.

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١)

﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾

سبب نزول هذه الآية أن الصحابة سألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عندما أمرهم بقوله تعالى : ﴿يأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبت ما كسبتم﴾الآية، فقالوا : يا رسول الله هل نخرج الصدقة سرا أو علانية ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعناها أن الله تعالى بين لنا أننا إذا أبدينا الصدقة أى أظهرناها وأعطيناها لمستحقيها علنا أمام الناس يكون هذا العمل محمودا عند الله تعالى، وإن أخفيناها وأعطيناها الفقراء سرا فهو خير لنا، وقد فهم العلماء من هذة الآية أن صدقة الفريضة الأولى تعطى جهرا أمام الناس، لما روى فى ذلك من الأحاديث وفى قوله : ﴿وتؤتوها الفقراء ﴾حكمة لأن الذى يأخذ الصدقة هم الفقراء فما معنى ذكر الفقراء هنا . ذلك أن بعض المتصدقين يخرج الصدقة لمن لا يستحقها، فبين الله لنا أن الصدقة إنما تعطى للفقراء، ومتى أخفينا الصدقة المندوبة كانت خيرا للمتصدق عند الله تعالى، (و يكفر عنكم من سيأتكم) تكفير السيئات هو سترها حتى عن الملائكة الحفظة ،لأن السيئة لا تنمحى لإحاطة علم الله بها، ولكن الله تعالى يتفضل فيسترها كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ ((أنسى الله الحفظة ذنوبه وأنسى كذلك معالمه وجوارحه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب)) وقوله : ﴿من﴾ للتبعيض لأن الصدقات تكفر نوعا من المعاصى وإن فسر بعضهم ﴿من﴾ بأنها زائدة مراعيا فى ذلك أن الصدقات تكفر جميع الذنوب، ولكنى أكره القول

---

(١) سورة عبس آية ٣٤ – ٣٧

بزيادة حرف فى القرآن، لأن الذى يفهم أن الصدقات تكفر جميع الذنوب يجعل بقية القربات عاطلة، بل الواجب على أهل العلم التحقق بأن كل قربة فرضها الله تعالى أو ندب إليها تكفر نوعا من الذنوب، لأن البخل والمن والأذى واختيار الردىء من الصدقة مرض من أمراض النفوس ناتج عن ضعف الإيمان بالله تعالى .

﴿وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

يعنى جل جلاله أن الله عليم بما يعتور القلوب من الهمم واللمم التى تشوف النوايا بما يحجب الصدقات والقربات من أن تكون مقبولة عند الله تعالى، وفى هذه الآية تخويف لأهل النفوس اللقسة، وبشرى لمن صاغ الله نفوسهم من نور الجمال العلى .

قوله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٢)

معلوم أن الله تعالى جمل حبيبه ومصطفاه ﴿ ﷺ وآله﴾ من أسمائه العلية، ولهذين الاسمين وسعة لا تطيقها الأرواح ولا العقول . قال تعالى : ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [(١)] وتلك الرأفة والرحمة فى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ تكاد تذهب نفسه حسرات رأفة ورحمة بالناس، وكان يشتد حزنه حتى يكاد لا يتحمل ما يقوله أهله وبنوعمه من المشركين، حتى عتب الله عليه فى آيات كثيرة رحمة وعناية منه سبحانه وتعالى به : قال سبحانه وتعالى : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [(٢)]

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

و تأويل هذه الآية أن الله تعالى يثبت حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ويبين له أنه سبحانه أقامه لهداية البيان لا لهداية الإحسان، وجعله حجة لمن آمن به وعلى من كذبه، فإنه سبحانه يقول : ﴿ليس عليك هداهم﴾ وقال فى آية أخرى ﴿و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨

(٢) سورة القصص آية ٥٦

[1] والواجب علينا أن نجمع بين هاتين الآيتين فقوله تعالى : ﴿لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ أى تهدى هداية البيان وقوله تعالى : ﴿ليس عليك هداهم﴾ أى ليس عليك هداية الإحسان لأن هداية الإحسان عمل من أعمال الله تعالى بدليل قوله ﴿و لكن الله يهدى من يشاء﴾ أى يهدى من سبق فى علمه هدايته بسبب بيانك لهم حيث أكرمهم بالقابل وهو النور الذى يجعله الله فى القلوب . ومتى سبق فى العلم هداية قوم أقام فيهم مبينا لمحاب الله ومراضيه، فقبل من سبقت لهم الحسنى، وكذب من سبقت لهم السوءى ،وفى ذلك طمأنينة لقلب رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ لأن الرحمة التى منحها الله له﴿ ﷺ وآله﴾ جعلته يحب هداية العالم أجمع فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول فى نفسه إنى قصرت فى الدعوة، أو لم أدع القوم بما تميل إليه نفوسهم، حتى كان﴿ ﷺ وآله﴾ يتمنى أن الله تعالى يترل فى القرآن ما يتألف به قلوب المشركين قال تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ [2] وذلك طمأنينة لقلبه ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنس له عليه الصلاة والسلام ولو أننا نظرنا إلى ما عملته الرسل من قبله عليهم الصلاة والسلام لعلمنا رذاذا من هاطل الرحمة التى جمله الله تعالى بها، فإن نوحا أغرق قومه، وإبراهيم عليه السلام أهلك الله به نمروذ ووقومه،وموسى أغرق الله به فرعون وقومه،وعيسى فرق الله به بنى إسرائيل،وهذا الرءوف الرحيم﴿ ﷺ وآله﴾ كان إذا اشتد عليه البلاء من قومه قريش رفع أكفه إلى السماء وقال : ((رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون)) .

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾

قبل أن نكتب على هذه الآية نلمع إلى غيب مكنون، وهو أن الله تعالى قد يضع نفائس التوحيد فى وسط عقود آيات الأحكام ليفقه سر التوحيد المتعطشون إلى مشاهده العلية، وأسراره التى تلوح فى تلك الكلمات جلية وفى قوله : (ليس عليك هداهم) الآية بين آيات النفقة وما يترتب عليها جوهرة من جواهر التوحيد ﴿و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾، يعنى تترهت ذاته، أن الصدقة التى يتقرب بها المتصدق إلى الله تعالى بإعطائها للفقير لاتكون

(١) سورة الشورى آية ٥٢

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

خيرا إلا إذا صحت النية فى إخراجها، وكانت من أجود ما يعطى، وحفظ الله المتصدق من المن والأذى وبذلك تكون خيرا ويتحقق للمتصدق نيل الجزاء من الله مضاعفا أضعافا كثيرة . ويكون الذى قبل الصدقة هو الذى أعطى للمتصدق، وكيف لا ؟ المتصدق أعطى ديناراً للفقير والله تعالى أعطى للمتصدق سبعمائة دينار بسبب قبول الفقير صدقته، وعلى هذا فيكون الذى أخرج الصدقة من ماله الذى أخذها مضاعفة، ويكون الفقير هو الذى أعطى وتكون يده هى العليا بحسب الحقيقة ونفس الأمر .

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ﴾

و المعنى أن النفقة المقبولة عند الله هى النفقة التى يتقرب بها المتصدق ابتغاء وجه الله، لأن، هذا الاستثناء أظهر أن الذى ينفق ماله رياء أو منا به أن يؤذى الفقير لا يقبل الله منه الصدقة، وتكون حسرة عليه . وإن الله لا يقبل إلا صدقة حسنت فيها نية المتقرب بها أن تكون لوجه الله تعالى، أى أن لا يقصد بها شهرة ولا سمعة، ولا انتقاما من عدو، ولا الفوز بشهرة أو طمع أو رياسة، بل تنحصر نيته فى ابتغاء وجه الله تعالى .

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾

أى والنفقة التى تنفقونها ابتغاء وجه الله تعالى، وهى من خير ما ينفق مما قدمت لك، يجازيكم الله عليها بخير منها فى الدنيا برفعة الذكر، وبنسيئة العمر، ووسعة الرزق، وإلقاء المحبة على المتصدق من الله تعالى، وفى الآخرة بغفران الذنوب، وبالفوز برضوان الله الأكبر، بمعنى أنها ترد عليه وافية وفاء يليق بوسعة الواسع العليم ،وسبب نزول (ليس عليك هداهم) خاص لأن الصحابة رضى الله عنهم بلغ بهم الحب فى الله والبغض فى الله مبلغا جعلهم لا يتصدقون على أهل الضرورة من أقربائهم الكافرين غيرة منهم للدين، فأمرهم الله تعالى بالنفقة عليهم بقوله سبحانه : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ بمنع النفقة عليهم، وبين لهم الباعث على النفقة بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ ﴾ وإذا كان المنفق يبتغى وجه الله تعالى فنفقته للمؤمن والكافر سواء إذا صحت النية، وبذلك اتصلت الآية بما قبلها وما بعدها . وخصوص السبب لا يمنع أن يشهد أهل المعرفة فيها مشهدا من أعلى مشاهد التوحيد .

﴿وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾

المعنى أن الله تعالى أمرهم أن ينفقوا إلى أهل قرابتهم فى حالة احتياجهم، وأعلمهم أنهم لا يظلمون شيئا مما يتقربون به إلى الفقراء ابتغاء وجه الله تعالى . وهذه بشرى من الله سبحانه للمنفقين من خير ما لديهم، ما أوجبه الله عليهم، وما ندبهم الله إليه للمستحقين شرعا ولو مشركا .

قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣)

﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾

و الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله هم أهل الصفة الذين أحصرهم الجهاد، وطلب العلم من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن السعى فى تحصيل مالا بد لهم منه لمعاشهم ،و كانوا يبلغون تسعمائة صحابى من المهاجرين أو يقلون وهم الذين كان يبعثهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى سراياه، والذين جملهم الله تعالى بالصبر والرضا، وكان يبلغ بهم الجوع مبلغا، حتى يسقط بعضهم على الأرض وهو واقف فى الصلاة من الجوع، وكان يبلغ بهم العرى إلى أن يضع الرجل على قبله ودبره الخرق، حتى كان الواحد منهم يموت فيكفنونه بالأذخر وهو نبات يشبه (السعد) فى بلاد مصر يلف فيه الميت، أو يكون له الثوب الخلق تستر به عورتاه عند موته . فأوجب الله تعالى على أهل اليسار أن يخصوا نفقتهم بهؤلاء القوم، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله .

﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ﴾

أى سعيا لطلب المعاش لاشتغالهم بالجهاد وطلب العلم كما تقدم . ولأن جميع الناس كانوا كفارا أعداء المهاجرين، كانوا إذا لم يكونوا فى سرية لا يفارقون الصفة .

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾

أثنى الله على أهل الصفة بهذه الآية ثناء جعلهم يفوزون برضوان الله الأكبر، حتى كانوا مع فاقتهم وشدة ضرورتهم لفقدهم مالا بد لهم منه من الطعام والشراب واللباس والمأوى والفراش قد جملهم الله تعالى بالصبر ،والرضا، والأنس، جمالا جعل كل من رآهم يحسبهم أغنياء من التعفف عما فى أيدى الناس، وما جملهم الله تعالى به من الأنس، والبشاشة، وانشراح الصدر، حتى بلغ بهم التجمل والفرح بما أقامهم سبحانه فيه أنهم لم يسألوا الناس شيئا . بدليل قوله سبحانه : ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ لأن السائل لابد وأن يلحف فى سؤاله، وإلا لم يكن سائلا فنفى الله عنهم السؤال بنفى الإلحاف، فإن الإلحاف هو طلب الفضل من المال، يقال : ألحفنى فلان أى أعطانى من فضل ماله . وإن كان فى معنى الإلحاف فإن السائل لا يخلو من الإلحاح ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أى تعرفهم بما وسمهم الله به من جمال الخشوع، والتقوى، والزهد عما فى أيدى الناس، والورع .

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

يؤيد الله تعالى أهل الإيمان به الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله بقوله : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ من خير : أى من خيار أموالكم ومن طيب ما أنبت الله لكم من الأرض ومما ينفع الناس من العلم الذى علمكموه الله تعالى والأخلاق التى جملكم الله بها ﴿فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ الفاء هنا رابطة الشرط و﴿عَلِيمٌ﴾ أى محيط به علما لا يخفى عليه شيء منه، والله تعالى يعلم كل شيء من نفقة وغيرها، ولكن هنا يبين أنه يعلمها علما خصوصيا يقتضى إكرام المنفق فضلا من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

ثناء من الله تعالى، والثناء من الله هو الثناء حقا . يقول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾ وسبب نزول هذه الآية :

أبو بكر وعلى وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف فإن أبا بكر أنفق أربعين ألف دينارعشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية، وكان عند على أربعة دراهم فأنفق درهما بالليل ودرهما بالنهار ودرهما سرا ودرهما علانية، وكذا فعل عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف . وقد قدم الله الليل على النهار والسر على الجهر بيانا لفضل صدقة

الليل وصدقة السر، على صدقة النهار وصدقة الجهر، وفى ذلك يظهر أن تلك النفقة التى قدمها أثنى الله عليها وذكر أنها فى الليل والسر كانت من نوافل البر. هذه الآية ختام آيات النفقة لأن الله تعالى بين فيها ما يحبه من المنفقين : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الفاء هنا رابطة لجواب الشرط الذى أشار إليه قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ فإن الذين هنا فيها معنى الشرط لأن قوله تعالى:

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جزاء على ما وفقهم الله له من النفقة ليلا ونهارا وسرا وجهرا ... وفى قوله : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ دليل على ما فضلهم الله به من الخصوصية التى جعلتهم عند ربهم بخلاف مالو قال لهم سبحانه : (لهم أجرهم) فقد يفهم منها فى الجنة أو فى الفردوس، فلما قال سبحانه : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ علم أن لهم المقام الأعلى عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) وقال سبحانه ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ .

وقال تعالى (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار لا يسئمون) [(١)] ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تأويل هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥)

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾

يأكلون الربا أى يستعملون ما لهم فى الربا لينتج لهم ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . والربا مأخوذ من النمو وهو الزيادة وأربى فلان يربى أى زاد ومنه الربوة وهى الأرض المرتفعة عن مسطح ما حولها .

﴿لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

(١) سورة فصلت آية ٣٨

أى لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس، والتخبط هو الضرب على غير استواء والمتخبط هو الذى يضرب منه البدن والشيطان عرفناه فيما سبق، ومس الشيطان تسليطه على من أضلهم الله فحرمهم من القابل، فإن الإنسان الذى اختلفت عناصره المكون منها تراه يترعج لأقل حركة وصوت، فيترعج انزعاج من فوجىء بصدمة فادحة وكذلك يكون من مسه الشيطان، فإنا نرى من غلبت عليهم السوأى يتخبطون مما يمثله لهم الخيال فيقول : ادفعوا عن عدوى أو القوم هجموا على ليقتلونى، من غير أن يكون ثم شيء، ولما كان الشيطان جسما ناريا لا تقوى البشرية على ملاقاته كان مسه للإنسان موجبا للتخبط، وكذلك أكلة الربا إذا قاموا يوم القيامة وشهدوا ما أعد لهم من أليم العقاب وشديد العذاب تذهب أنفسهم شعاعا .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾

الإشارة إلى التخبط، وفى هذه الآية وعيد شديد على من يأخذون بالقياس بعد النص، فإن أول من أخذ بالقياس بعد النص الصريح إبليس . أمره الله تعالى بالسجود لآدم فامتنع محتجا بالقياس قال : ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (١) فكذلك أكلة الربا يحتجون بالقياس فيقولون : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وكان الأولى أن يقولوا إنما الربا مثل البيع، ولكنهم فى قولهم هذا بيان أنهم يرون الربا أحل من البيع يريدون أن يجعلوا الربا مشبها به، والبيع مشبه وفى ذلك دليل على خبث نفوسهم وعلى طيش عقولهم، والواجب على كل مسلم أن يلتزم الأدب عند النص الصريح، ولا يأخذ بالقياس إلا إذا لم يكن نص صريح بكتاب أو بسنة أو بإجماع، ومع ذلك فيجب عليه أن يأخذ بالنظائر والأشباه حتى تدعوه الضرورة إلى الأخذ بالقياس، ومن أخذ بالقياس وقع فى الهوى، والهوى أخو العمى وهو يسلب إيمانهم أو يكاد .

﴿وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢

هذه الآية محكمة أبطلت القياس فى كل حكم صريح وفى قوله : ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ عام على كل الربا نسيئة كان أو نقدا، وإن كان بعض العلماء أخذ بالقياس فى ربا النقد إن التاجر له أن يبيع السلعة التى اشتراها بخمسة دراهم بعشرة دراهم من غيرغضاضة فى نفس المشترى، فلذلك له أن يبيع دراهم النقد بضعفها لأنه بيع، وبذلك أفتى ابن عباس ثم رجع بعد ذلك عن حكمه، لأنه كان يفرق بين ربا النسيئة وربا النقد ،والربا هو بيع النوع بالنوع زيادة وقدرا، وذلك لأن المسلم يجب عليه أن يحسن إلى إخوته، ومن الإحسان أن لا يزيدعليهم زيادة معلومة حتى كأنه اغتصب ما لهم بدون عوض . أما البيع فإن التاجر إذا ضاعف الثمن على المشترى فقد يظن المشترى أن البائع أكرمه ورخص له الثمن، فلا يجد عليه فى نفسه غضاضة، هذه حكمة تظهر للعقول . وحكم تحريم الربا كثيرة لا يتذوق سرها إلا العارفون بالله تعالى من الراسخين فى العلم، فإنه سبحانه وتعالى أنزل أحكامه العلية ليتعبد بها خلقه، فمن عرف الله تعالى عظمه سبحانه فى أحكامه، فأسرع إليها ونفذها ،ومن جهل الله تعالى استهان بأحكامه فكان فى طى تلك الاستهانة بالله تعالى، والمستهين بربه كافر ،خصوصا إذا استهانة كانت نفسه خبيثة كنفوس من قالوا : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ولذلك يقول تعالى : ﴿فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

﴿فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾

يعنى أن المسلم الذى منحه الله النور والرشاد بموعظة الله تعالى التى بينت له الحلال والحرام، فسارع مطيعا وأقبل سمعيا، ونفذ أوامر الله تعالى على نفسه مجاهدا لها، مع حبها للمال وزيادة، منتيها عن طاعة نفسه الأمارة بالسوء، وعن نزوعه إلى خبث طبعه ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أى غفر الله ما اكتسبه من الربا فيما مضى من الزمان مما انتهت فيه المعاملة بينه وبين من عامله بالربا، لتعذر رد المظالم إلى أهلها من وجه، ولجهله بحكم الله وموعظته من وجه آخر .

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ﴾

يعنى أن ينال من الله تعالى الجزاء الحسن إذا هو قبل وأقبل، وهذا الجزاء يكون فى الدنيا بالبركة فى النفس والأولاد والمال، وبالرفعة بين الخلق وإقبالهم عليه . وفى الآخرة بمجاروة الأخيار من الأبرار والصديقين .

﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أى رجع لأكل الربا بعد الموعظة من الله تعالى ﴿فَأُوْلَئِكَ ﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط والإشارة هنا عائدة إلى من خالف أمر الله تعالى وأكل الربا ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ حكم على مستعمل الربا بالكفر لأن لفظة ﴿أَصْحَابُ﴾ تدل على دوام الإقامة فى جهنم، لأنهم يصاحبونها وتصاحبهم، وذلك كما تقدم فى قوله تعالى : (و من كفر) فى حكم الحج أى ومن لم يحج، وفى هذا الحكم تهديد ووعيد شديد، وذلك لأن من خالف الله وأطا ع شحه وهواه وحرصه على المال، فقد بخل على الله تعالى، وتكبر على أمره عز وجل ،و لأن البخل اختبار من الله لعباده ويكون فى المال لأنه شقيق الروح، وما جاد امرؤ بماله فى سبيل الله إلا عوض الله عنه بكل درهم سبعمائة درهم، وضاعف هذا المزيد من فضله لأن الله تعالى يعلم شح النفوس بالمال، ومن جاهد نفسه فى هذا السبيل فبذل ماله لوجه الله تعالى كتب عند الله تعالى من خيرة المجاهدين فى سبيله كما تقدم فى قوله تعالى :

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

هذه الآية الشريفة أذابت قلوب أهل الورع، حتى جعلتهم لا يتناولون طعاما ولا شرابا إلا بعد أن يحتاطوا لأنفسم من الوقوع فى هذا البلاء أعاذنا الله منه لأن الخلود فى النار لا يكون إلا لأهل الكفر بالله تعالى ،وهل بعد قوله تعالى : (أصحب النار) وتأكيد ذلك بقوله : (هم فيها خلدون) بالجملة الإسمية التى تفيد الاختصاص يشك عالم بأساليب اللغة العربية فى أن الله حكم عليه بالكفر حكما صريحا .

قوله تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦)

﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا﴾

هذه الآية كقوله تعالى : (لاتأكلوا الربوا) والربا لا يؤكل كما أن الربا هنا لا يمحق، والمعنى أن الله تعالى يسلب البركة والنمو والأجر والثواب، بل يسلب الإيمان، فكأن الربا ما حق محموق، وذلك لأن مراد المرابى الزيادة فيحرم الزيادة فى عافيته وأولاده، وفى ماله أيضا، وفى دينه، وكفى المرابى تعسة أن الله تعالى حكم عليه بما يحكم به على الكافرين . لأن الجحود بالله والاستهانة بأحكامه سواء عند الله سبحانه .

﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾

قدمت لك أن الربا هو النمو والزيادة، ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أى ينميها ويزيدها زياردة مضاعفة بمقدار لا تتصوره العقول فى الربح والبركة، لأن أكيس تاجر يربح عشرة فى المائة، ولكن الصدقة يربح فيها المتصدق سبعمائة ضعف ، وقد يضاعف أكثر من ذلك كما قال سنحنه: (والله يضاعف لمن يشاء) فأى إنسان يعقل عن الله تعالى يرى تجارة تعطيعه فى الدرهم آلافا ولا يسارع إليها ؟!! أكل الحكم فى هذه النظرية إليك ، ولكن المرابى لا يجعل الله له نوراً يتبين به حكمة أحكام الله ولا يصيرة يشهد بها ما أعده الله لأوليائه وأحبائه .

(والله لا يحب كل كفارٍ أثيم)

نفى الله محبه لكل كفار أثيم، وبهذه الآية يثبت عندنا أن الله يحب ولايحب ، وقد أنكر بعض من لا رسوخ لهم فى العلم محبة الله للعبد وتأولها بأنها إغداق النعم عليه التى تكون فى الآخرة، فإن إغداق نعم الدنيا يسمونها رحمة، وقد جرأهم على هذا تعريفهم المحبة أنها لا تكون إلابسبب قائم كالأبوة والبنوة والزوجية والمنفعة، وما أشبه ذلك ، وقال بعض من لهم علم :المحبة لا تكون إلا بمشاكلة، وليس بيننا وبين الله تعالى مشاكلة تتزه وتعالى ، فلا ينبغى أن تُؤَوَّلَ محبة الله تعالى بمحبينا، بل يجب أن نفهمها فيهاغير ذلك .وعندى أن المحبة جلت عن أن تعرف بحد أو رسم والمحبة هى الإرادة، فإذا تعلقت إرادة الله تعالى برحمة عبد وفقه لما ينال به السعادة فى الدنيا والآخرة، وإذا تعلقت إرادته بمحبة عبد أقامه سبحانه فى مقام العلم به ،ومشاهة أسرارة العلية من مشاهد التوحيد، ومن مقامات التتريه والتفريد، وهذه تسمى محبة، وكل الخالفين لنا يسلمون بها، فكان الأولى لهم أن يقولوا إن الله يحب

حقاً ومحبته إرادته، كما قالوا إن الله رحيم والرحمة عاطفة فى القلب تميل به الى نفع المرحوم ، فهل الله له قلب ؟ ولم يقل أحدهم أن الرحمة مؤولة بل سلموا هذا الاسم تسليماً، فمن يسلم باسم لله هو بالنسبة لنا رقة فى القلب تقتضى العطف على الآخر، ولم يعارض فى تسمية الله بهذا الاسم ، فليس له أن يعارض فى تسمية الله بأنه محب، وإنما خالفنا فى هذا الموضوع من حرم ذوق المحبة.

وإليك بيانا كنت أكره أن أسطره على الورق فسلمه إن شئت واقبله، أورده الى أهله. وذلك أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : ((تَخلَّقواْ بِأَخْلاَقِ اللهِ تَعَالَى)) وأخلاقه سبحانه هى صفاته العلية، وقد أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ بالتخلق بها، فالله عليم ونحن نتخلق بالعلم ، وهو صفته، والله كريم ورءوف وحليم وصبور الى آخر الأسماء . ومتى جمل الله العبد بخلق من أخلاقه أو أكثر أحب أجلاقه سبحانه فى العبد. والظرف تابع للمظروف وإنما أحب صفانه العليه العلية لا ستجلائها فى هكل الإنسان المحبوب، وعلى ذلك فلا اعتراض على من فهم لفظ المحبة بمعناها الحقيقى، وقد قدمت لك أن المحبة أجل من أن تعرف بحد او برسم لأنها سر بين الحبيب والمحبوب ، ولا يعلم سر الله الا الله، ومن وشديد نقمه بدليل قوله تعالى : (كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) فجعل آكل الربا أى مستحله عالماً به كافراً مبالغة بمعناها الحقيقى فى الكفر، وحظر على العقل أن تفهم أن مثل هؤلأء إذا ماتوا على مهم عليه يفوزون بمغفرة الله ، بدليل قوله تعالى:﴿إِنّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذِلكَ﴾ [1] من الكبائر الأخرى التى لم يهدد الله عليها بالخلود فى النار ، فالكفر وترك الحج مع الاستطاعة، وأكل الربا وقتل الؤمن الذى لا يستحق القتل ، هدد الله عليه بالخلود فى النار أعاذنا الله . ﴿أَثِيمٍ﴾ على وزن فعيل وقد تأتى من صيغ المبالغة، وفعيل بمعنى فاعل أو مفعول، فتكون بمعنى أثيم والآثم من تعدى حدود الله تعالى، وقد ورد أن لفظة أثام هو الدرك الأسفل من النار بدليل قوله تعالى : (يلق أثاما) [2] وأثام هذا محل الأثيم يلقى الرجل من فوق جهنم العلياء على رأسه، فيمكث سبعين سنة حتى يصل إلى أثام .

---

(١) سورةالنساء آية٨٤

(٢) سورة الفرقان آية ٦٨

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٧)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾

تأويل هذه الآية المفتتحة بحرف التوكيد أنها خبر من الله تعالى، جعل القلوب تتشوق إلى حكم فى تمام هذا الخبر . فهو سبحانه يقول إن الذين صدقونى فيما أنزلته على حبيبى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،و سارعوا فى تنفيذ ما أمرقم به بعمل الصالحات، و(الصالحت) كل عمل أو قول أو حال بالقلب أو بالجوارح، فرضه الله تعالى، وأرغب إليه، أو سنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله، أو بعمله، أو بحاله، أو بها جميعا .

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾

لم يرد فى القرآن الأمر بالصلاة أو الخبر عنها إلا وافتتحه الله بالإقامة، ولم تذكر الصلاة مجردة عن لفظ الإقامة إلا شنع الله وذم، قال تعالى : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاقم ساهون) [1]، وعلى ذلك تكون الصلاة فى الحقيقة هى الإقامة، ومن لم يقم الصلاة فهو ساه، والواجب أن نهتم كل الهمة فى تعليم إقامة الصلاة للمصلى صلاة يقبلها الله تعالى مجملة بإقامتها، فلفظة إقامة مأخوذة من أقام وقام بمعنى كمل وراج، يقال : السوق قائمة أى رائجة كثيرة البيع، وكذلك إقامة الصلاة وهى أن تصلى بكل قوة فيك، فعليك صلاة العقل وصلاة النفس، وصلاة الروح، وصلاة الحس والجسم، وذلك بأن كل قوة يجب عليها أن تشكر الله ،والصلاة شكر فإذا تحرك لسان العبد تحرك جسمه، ومن لم يصل بكل تلك القوى لم يقبل الله منه الصلاة . لأن القلب محل نظر الرب، فللقلب صلاة هى النية واستحضار عظمة الله وحقارة المصلى نفسه . وللروح صلاة وهى استحضار من المصلى ذلا ومسكنة، ومن المصلى له تعظيما وإجلالا، وبمن صلاته ؟ ومن الذى يصلى مطابقا لعمله ؟ وما هى الصلاة ؟ ومن لم يجمع تلك الحقائق عند صلاته فنسى الله الذى يصلى له، ونسى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى يصلى مثله وجهل نفسه فى الصلاة ومكانته فيها، وجهل

---

(١) سورة الماعون آية ٤ – ٥

مشهد التوحيد الذى يجعله يعتقد أن الفاعل المختار هو الله، فيشكره على أن وفقه وهداه وعلمه معتقدا أن كل ذلك من الله، ضرب الملك بصلاته عرض الحائط، وقد أعاد صلاة سنين طويلة بعض العلماء الذين كاشفهم الله تعالى بتلك الأسرار العلية، لاعتقاده أن صلاته التى مضت لم تكن كاملة كما يقبلها الله تعالى، ونحن تعلم أن الصانع إذا تهاون فى صنعته لم يقبلها المشترى، وكما أن الله تعالى خلق لنا الحقائق التى بها قوتنا ونفعنا جميلة صالحة للاستعمال، يجب علينا أن نقدم له ما يحبه منا كاملا جميلا صالحا للقبول، لأن الله لو خلق فى اللبن فرثا أو دما لعافه الشارب وهو عبد مقهور ومضطر واللبن خلقه الله من بين فرث ودم، وجعله خالصا سائغا للشاربين، فكيف نقدم لله عملا مشوبا بالشرك فى قلوبنا، وبالطمع والعلل فى نوايانا، وبالغفلة فى نفوسنا، والنجاسة فى أدبدننا، ويقبله الله وهو الغنى ؟ وذكر الصلاة بعد تقديم عمل الصالحات أى إقامتها من باب ذكر الخاص بعد العام لمزية فيه . وفى هذا إشارة إلى أن الصلاة خير ما يتقرب به إلى الله تعالى، لأن كل فرائض الدين غير الصلاة كالزكاة والحج والنفقة والجهاد والصيام قد يكون فيه شهوة خفية من حب العلو والشهرة، إلا الصلاة فإنها عبودية خالصة، فمن لم يشعر فى صلاته بذل العبودية، وخشوع التواضع، وتمييز الحضرتين بين عبد ورب، فما صلى ..

﴿وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ﴾

الزكاة لغة : هى الطهرة والنمو، وهى نوعان : زكاة النفس، وزكاة المال . فزكاة النفس : ذكرها الله تعالى كما ورد فى غير هذه الآية فى قوله تعالى : (و الذين هم للزكوة فاعلون) [1] فإن إيتاء الزكاة وفعلها مختلفان، ففعل الزكاة لا يكون إلا فى تزكية النفوس، وأما الإيتاء فلا يكون إلا فى زكاة المال ، وزكاة المال : تكون فى العين والحرث والماشية والركاز، وقد فصلت ذاك فى كتاب : (أصول الوصول) [2] فراجعه إن شئت ،ولما كان المقام متصلا بآيات النفقة أعاد الله البيان جذبا من جعل الله لهم نورا ليستبين لهم المنهج المستقيم ،وقد

(١) سورة المؤمنون آية ٤

(٢) يطلب كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وغيره من كتب الإمام أبى العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٠ شارع مجلس الشعب

قدمت لك أن الإيتاء والإعطاء وإن كان مدلولها واحد إلا أن الإعطاء يكون خاصا للمعطى له، والإيتاء يكون عاما كما قال تعالى : (و لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) [(١)] أى لك ولأمتك، وقال :(إنا أعطيناك الكوثر) [(٢)] أى خاصا لك تتفضل على من تشاء من أمتك بما فيه . وذكر إيتاء الزكاة هنا بعد إجمالها فى عمل الصالحات لمزية خاصة كما قال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) [(٣)].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف خبر مقدم، وأجرهم مبتدأ مؤخر، والجملة خبر إن، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾تقدم الكلام عليها أيضا .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨)

يقول الله تعالى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وخافوا وعيد الله الذى هدد به أكلة الربا ذروا : أى دعوا ما بقى من الربا الذى هو الزائد على رءوس أموالكم من الذين عليهم الدين إن كنتم صدقتم الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، وسلمتم لى تسليما . فلما نزلت الآية قال العباس بن عبد المطلب : تنازلت عن مالى من الربا إجابة لأمر الله تعالى، وترك كثير من الصحابة ما كان لهم من الربا .

قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩)

---

(١) سورة الحجر آية ٨٧

(٢) سورة الكوثر آية ١

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٨

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾

((فإن لم تفعلوا)) أى إن لم تتركوا ما بقى من الربا، أى أصررتم على أخذ الربا مخالفة لأمره سبحانه ،((فأذنوا)) أى أعلموا بحرب من الله تعالى ورسوله، وفى هذه الآية شديد التهديد وعظيم الوعيد، ولا تجد مؤمنا يسمع الله يقول : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) إلا ويسارع إلى الاستجابة لله، والفاء فى (فأذنوا) رابطة لجواب الشرط .

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ عن أكل الربا وتركتم ما على الناس من الربا وأخذتم رءوس أموالكم بدليل قوله : ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ﴾ أى فالحق الذى لكم أن تأخذوا رءوس أموالكم ﴿لاَ تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ مالا عوض فيه مما حرمه الله، ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ بأن يمتنع الناس عن إعطائكم مالكم، بل ولا تظلمون يوم القيامة لأن الله يغفر لمن تاب فضلا، ويعاقب من خالف أمره عدلا قال تعالى : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [(١)] وقد تقدم الكلام على التوبة فيما سبق و سبب نزول قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أن ناسا أسلموا ولهم ربا عند غيرهم، وكذلك كان للعباس بن عبد المطلب ولرجل من بنى المغيرة أموال كثيرة من الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : لما كان الفتح أقام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عتاب بن أسيد أميرا على مكة فجاءه قوم يسألونه فى أخذ مالهم من الربا عند غيرهم، فرفع الأمر إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأنزل الله هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى عتاب، وقال له إن لم يدعوا الربا فأذنهم بحرب من الله ورسوله .

قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠)

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾

بين الله تعالى لمن كانوا يأكلون الربا قبل الإسلام فى الآية المتقدمة ما يجب عليهم، وأباح أن يأخذوا رءوس أموالهم، ورحمة بالفقراء بين لأصحاب رءوس الأموال ما يحبه سبحانه بقوله : ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾، و(ذو) إسم كان على أنه مرفوع وتكون كان تامة بمعنى وجد، وخبرها محذوف وبتقدير الاسم على رواية نصب ذو، ولما كان سياق الكلام فى الربا وأكلته كان الحكم خاصا بأهل الربا، وعلى هذا التأويل يكون المرابى ليس له حق أن يقهر المدين، وليس للحاكم أن يعينه على قهره بل يجب على الحاكم أن يحكم بإرجاء دفع الدين حتى يتيسر، بخلاف ما إذا كان دينا على غير ربا، فإن الحاكم له أن يحبس المدين وأن يهدده ،وأن يرغمه على الدفع، وقال بعض العلماء سبب هذا الحكم خاص بالربا، وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم بل على صاحب الدين إن حصلت العسرة للمدين أن يرجئه إلى اليسار، وقد أخذ بها أهل العلم بحسب اجتهادهم .

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

أى وتصدقكم برءوس أموالك على المدينين خير لكم عند الله تعالى، فإن فى الصدقة عليهم نجاة لهم من الفاقة، وسرورا لقلوبهم، وتخلقا بأخلاق الله الرءوف الرحيم الكريم العفو سبحانه، وفى ذلك الفوز برضوان الله وغفران السيئات، والفرح بتبديل الله السيئات حسنات .

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أى تعلمون محاب الله ومراضبه، وحسابه يوم القيامة، وما يفوز به المتصدق برأس ماله على المدين من النعيم المقيم فى جوار من جملهم الله بأخلاقه العلية .

قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً﴾

هذه الآية الشريفة آخر آية نزلت على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ورفع بعدها إلى الرفيق الأعلى، على خلاف بين العلماء، قيل : بعد سبعة أيام، وقيل : بعد سبعين يوما، وهى خاتمة الدين . وهى الآية التى أجمل الله فيها كنز حقائق الإيمان، والمراقبة، والرغبة، والرهبة، وقد بينت لك فيما سبق أن التقوى أربعة أنواع : تقوى اليوم بدليل هذه الآية، وتقوى النار بدليل قول الله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١)و تقوى الرب، قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ (٢) وتقوى الله تعالى، قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ (٣) والتقوى مقام من مقامات كمال أهل الإحسان الذين قال فيهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما ورد فى البخارى عندما سأله جبريل قائلا له : ما الإحسان ؟ بعد سؤاله عن الإسلام والإيمان، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأهل مقام الإحسان أرقاهم من كان كأنه يرى الله تعالى ،وراقيهم من يكون على حق اليقين بأن الله يراه، فيتمثله فلا يغيب عنه ولا يحجب، وهذا هو مقام التقوى .

ولفظة ((تقوى)) مأخودة من وقى، وتصريفها معلوم فى متون اللغة، وهى الوقاية بحصون العلم الذى رسم على جوهر النفس، لأن العلم الحقيقى هو تصور النفس رسوم المعلوم، وأما العلم الذى يفهم بطول الممارسة والمذاكرة فإنه لا يرسم على جوهر النفس .

و لذلك فإنك ترى أكثر من حصل العلم بالمذاكرة والمدارسة لا يستحضر معانيه عند حضور سلطان الشهوات، أو صولة الغضب، أو باعثة الطمع، ولكن أهل التقوى، مهما قهرتهم البواعث لا يغيبون عما تتمثله جواهر نفوسهم من هيبة مذيبة للقلوب، وخشية جاذبة للأرواح إلى حضرة الفتاح، وتقوى يحصنهم الله بها من الوقوع فيما يغضبه جل جلاله، بل فيما يكرهه من التوسع فى المباحات، وهذا مقام الزهاد ... وقوله تعالى:((واتقوا يوما)) أى تصوروا ذلك اليوم وما يكون فيه مما بينه الله لكم فى آيات الوعيد، ومن نعيم مقيم يبتدىء بالجنة، وينتهى إلى الجلوس على منبر من نور قدام عرش الرحمن، والفوز بالرضوان الأكبر لأهل الذكر الأكبر . هذا ما وعد الله به أولياءه، ومن تمثل تلك المنازلات

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣١

(٢) سورة النساء آية ١

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٢

الرحمانية والعواطف الربانية اضمحلت فى عينه وقلبه الدنيا وما فيها، ولو حيزت إليه بحذافيرها، بل تضاءل هذا النعيم الموهوم، والحظ المزعوم . أما ما توعد الله به أعداءه وأهل الكفر به من آلام فى الدنيا أنتجتها المعاصى بسلب العافية فى إبانها، وسلب النعمة أعاذنا الله من ذلك وسلب الإيمان، والتوكل على الله، والثقة به، ومن عداوة أهل التقوى والعارفين بالله، ثم من تسليط الظلمة ثم من سوء الخاتمة عند الموت، ثم ما يناله الكافر والمنافق والمذنب من عذاب القبر مما يصدق به أهل الإيمان وينكره أهل الكفر بالله ثم ما بعد ذلك من بعث ونشر، ثم ما بعده من حشر وصراط وميزان، ثم الهوى فى الهاوية . حفظنا الله وإخواننا المسلمين من هذه الشرور . وهذا تفصيل ما أجمل فى لفظة تقوى اليوم . وبعيشك، هل لو تصور المسلم تلك الحقائق موقنا بحدوثها ووقوعها، هل ينسى تقوى اليوم فضلا عن تقوى النار، وتقوى الله تعالى ؟ !! اللهم زدنا علما .

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾

بينت لك التقوى، وبينت لك اليوم، وهذا الخطاب لأهل مقام الإسلام، وأما أهل مقام الإيمان فالتقوى عندهم من النار المحققة لديهم، وأهل مقام الإحسان تقواهم من ربنا سبحانه، وأهل مقام اليقين الحق يتقون الله تعالى، قال سبحانه : (و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) [١] فأهل مقام الإيقان لهم كمال شهود المغيبات عنا مما ورد به الشرع، والرجوع : الانتقال من مكان الى مكان أى تنتقلون من دار الدنيا إلى البرزخ، ومنه إلى الدار الآخرة حيث تحلون فى الأماكن التى ذكرناها، ثم يكون الرجوع إلى الله تعالى لأهل مقام الإيقان الكامل، لأن غيرهم لا يرجع إلى الله تعالى بل إلى النار أو إلى الجنة، قال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [٢] وجائز أن يكون معنى : ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾ بمشاهدة مقامات التوحيد العالية شهودا يجعل الإنسان فى فناء عن الوجود بواجب الوجود، ويكون فى مقام ربه عنده، أو أعلى من ذلك أن يكون مع الله، أو يكون الله تعالى معه قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٥

(٢) سورة المطففين آية ١٥

مُحْسِنُونَ﴾ [1] وكفى بمعية الله تعالى للعبد شرفا وتلك المعية فى الدنيا والآخرة، ومن حرمها فى الدنيا فقد حرمها فى الآخرة . قال سبحانه مخبرا عن حبيبه﴿ ﷺ وآله﴾:(إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) [2] حين حزن أبو بكر وهو مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الغار عندما رأى المشركين على شفير الغار وقال : يا رسول الله لو ألقى أحدهم بصره تحت قدمه لرآنا ،فقال : [يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا]، وخبر الصادق الأمين حقيقة ثابتة وما نقول فى اثنين الله ثالثهما، فإذا كان الله مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومع أبى بكر، فما جاز أن يكون لأبى بكر مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ جازأن يكون لأى مسلم جمله الله بما جمل به أبا بكر من يقين وعمل،و عزم وهمة فى إعلاء الكلمة وحفظ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولا حرج على فضل الله تعالى .

و إنى أعتقد أن الله تعالى يمنح معية الإحسان لأفراد من أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى يوم القيامة، وهذا يسمى رجوعا بالمعنى،و إذا فكثير من أفراد الوجود كورثة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وكأبدال الرسل والصديقين وكالعلماء العاملين هم مع الله والله معهم قال تعالى : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾ [3] إذا فالرجوع محقق، والارتحال من الدنيا حق يقين، وكيف لا ونحن نشيع فى كل يوم نظراءنا من الأناسى قهرا عنا ؟!! ولو أن الواحد منهم يفدى بالمال والأولاد لقدمت الأموال والأولاد فداء له، ولكن الله قاهر فوق عباده جعل الموت عبرة للمعتبر . وإنى لأرى الناس يبكون على الموتى حزنا وأسفا، وكان الأولى أن يبكوا على أنفسهم عند نزول هذه الصدمة القهرمانية، وقد يمشى الناس خلف الجنازة وهو يتحدثون فى الدنيا أو يطمعون فى مال الميت كأنهم لن يموتوا، وكفى بهذا نسيانا لهذا اليوم العظيم حفظنا الله تعالى .

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾

---

(١) سورة النحل آية ١٢٨

(٢) سورة التوبة آية ٤٠

(٣) سورة البقرة آية ١١٥

أتى سبحانه بثم هنا للدلالة على أن تلك التوفية لا تكون إلا فى يوم القيامة، والتوفية هى إعطاء الحقوق وافية غير منقوصة، وهذا متحقق بالمعاصى، فإن الله يجازى المسىء على قدر إساءته، ولكنها غير متحققة فى الطاعات فإن الله يعطى على الحسنة أضعاف أمثالها، ولك هنا أن تقول : هذه الآية خاصة بأهل المعاصى بدليل قوله تعالى : ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ فإن شهود العبد أن له كسبا دليل على أنه لم يبلغ مقام الإحسان . قال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (١) وجائز أن تكون عامة، ويكون جزاء المحسنين بقدر إحسانهم، وما زاد على ذلك يكون بفضل الله تعالى، ويكون الكسب هو العمل الذى عمله كل إنسان، وإذا كان كذلك فما ورد من الآيات التى تنسب للإنسان عملا كقوله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) وغير ذلك إحسان من الله تعالى على إحسان، وذلك بخلق الإعمال بقدرته أولا، ونسبتها إلى العبد ثانيا ،وبجعلها له ثالثا، ثم يتفضل رابعا بإعطائه أجرا عليها، وليس له فيها شىء فسبحان من بيده الفضل . ولأهل مشاهد التوحيد فى تلك المعانى مشاهد خاصة بهم، ومن حرمه الله من تلك المشاهد فأولى له أن يسلم بها لينال قسط المسلمين لله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وللعلماء الربانيين . أما من حرمه الله منها وأنكرها، فهذا سجل الله عليه الحرمان يوم القيامة .

﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾

نفى الله الظلم عن نفسه لمعنيين عظيمين، الأول : أنه هو الذى خلق الأجسام والأرواح والأعمال، فهو يملكها ملكا مطلقا، وله أن يتصرف فيما شاء بما شاء، ولذلك تكون أعماله مبرأة من الظلم، ويستحيل عليه سبحانه الظلم لكمال ذاته وأسمائه وصفاته ،. والمعنى الثانى الذى نجارى به العقول : أنه سبحانه حكم وعدل ،فيجازى على السيئة بسيئة مثلها فانتفى الظلم، ويجازى على الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة، فثبت الفضل ومعنى قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾، على التأويل الأول هؤلاء المخالفون لأحكام الله تعالى لا يظلمون أى

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٦

(٢) سورة التوبة آية ١٠٥

(٣) سورة يوسف آية ١٠٥

لا يعاقبون إلا عقوبة على قدر أعمالهم، وعلى التأويل الثانى فالعاملون من أهل الإيمان بالله أو الكفر بالله لا يظلمون، فالمحسن يرد إليه إحسانه مزيدا عليه بما يتفضل الله به، والمسىء ترد إساءته بقدرها، والله يغفر لمن يشاء . فثبت أن الله ذو الفضل العظيم، وأنه الحكم العدل، تتره وتعالى . ولايظلم ربك أحدا . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾

أى صدقوا الله ورسوله، يناديهم الله تعالى نداء القريب للقريب لتنجذب قلوبهم بنداء الله لهم، وما من مؤمن يسمع الله تعالى يناديه إلا سرى نور الشوق فى قلبه إلى الله سبحانه، وصغى إلى نداء الله بسمع قلبه تلبية لله تعالى .

﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾

بعد أن بين الله حكمه فى الربا أتى بحكم الدين حثا على إغاثة الملهوف، وقضاء حوائج السائلين حفظا لأموال الناس . أى إذا حصل منكم تداين، وتداين على وزن تفاعل، وهى تفيد التآخذ والتعامل والتعاطى ،فبين مراده سبحانه بهذه الآية، وقوله : ﴿بِدَيْنٍ﴾ بيان أو تأكيد، وحالة المجتمع الإسلامى لا تخلو من التداين لأن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشأ ويقدر، فأباح الله لنا الدين، وحثنا عليه، وبين لنا الحكم فيه لشدة الضرورة إليه ،وجعل من يغيث الملهوف فيفرج كربته له بكل حسنة سبعمائة حسنة، بخلاف الصدقة فإن الحسنة فيها بعشر ،وذلك لأن طالب الدين واقع فى ضرورة، وأما طالب الصدقة فقد يطلبها وهو غنى فكان أجر الدين أكثر من أجر الصدقة ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى إلى وقت معلوم، ومدة معروفة بينكم، وقد لا تكون هناك مدة مضروبة بين الطرفين، ويكون دفع الدين مرهونا بمشيئة الدائن، وذلك جائز حسب اتفاق الطرفين على ذلك، لأن العقد شريعة المتعاقدين .

قوله سبحانه : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أى قيدوه فى ورق مبينا بالكتابة قدره ووقته المحدود لوفائه، ليكون أضمن للوفاء وعدم الزيادة والنقص .

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾

لما كانت الكتابة برهانا على أن الإنسان قابل للتثقيف، وتزكية النفس، وكان السواد الأعظم من بنى الإنسان أكثره غير قابل لذلك، بين الله كل البيان لاحتياج المتداينين إلى من يكتب إذا جهلا الكتابة، وإلا لو كان كل الناس يكتبون لما بين ما يحتاج إليه الناس فى كثير من شئونهم حتى لا يجعل للمتداينين عذرا يمنعهم عن الكتابة فقال آمرا : ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾، أى أن الكتابة فريضة بحسب لفظ الأمر، وهو الذى عليه أكثر العلماء . وقد قال بعضهم : إنه مندوب بدليل قوله : (فإن أمن بعضكم بعضا) الآية، هذه الآية منسوخة بالأخرى على شرط طمأنينة قلب الدائن على نيل ماله . وقوله تعالى : ﴿بِالْعَدْلِ﴾ موعظة من الله للكاتب حتى لا يتعدى العدل فيزيد فى الكتابة للدائن، أو ينقص منها للمدين، وهذه الآية تدل على أن الكاتب عليه حقوق مقدسة هى مراعاة العدل فيما يؤمر به بين المتعاملين .

﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ﴾

أى لا يمتنع أى كاتب إذا طلبت منه الكتابة فى الدين أن يكتب، ولا يمتنع عن الكتابة، شكرا لله على ما علمه فإن نعم الله على العبد يجب أن يشكره عليها بأن يستعملها فى مراضيه، ومن أنعم الله عليه نعمة وأبى أن يشكره عليها بأن ينفع بها الناس كفر بنعمة الله فيسلبها الله منه . ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ أى فليسارع إلى طاعة الدائن والمدين، فيكتب لهما ما يأمره به من عليه الدين .

﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾

هذا أمر من الله تعالى فى الظاهر لمن عليه الدين ،و فى الحقيقة ونفس الأمر للدائن، يعنى على الدائن أن يترك من عليه الدين أن يملى على الكاتب، وهو يسمع منه ليكون ذلك أضبط للدين، وأروح للمدين، وأحسن للدائن لأنه ترك أخاه يملى ما عليه .

﴿وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ﴾

هنا اسمان من أسمائه العلية، الأول وهو الله، والثانى ربه، ليكون الخطاب لأهل المقامات كلهم فأهل مقام الإيقان يتقون الله، وأهل مقام الإحسان والإيمان يتقون ربهم، لتحصل المشاهد التى تفزع القلب فلا يأمر اللسان إلا بالحق والعدل، وقد قدمت لك معنى التقوى فراجعه إن شئت .

﴿وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾

نهى الله المدين الذى يملل على الكاتب أن لا يكتب إلا الحق كما هو، من غير أن ينقص منه شيئا، فيبين عدده إن كان نقدا، وقدره إن كان مكيلا أو موزونا، وقيمته إن كان مقوما . وقوله . ﴿يَبْخَسْ﴾ أى ينقص وبخسه أى نقصه قدره وكمه وكيفة للضرر به .

﴿فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾

السفاهه هى الجهل وقلة العقل، وما اجتمعت هاتان الخلصتان على رجل إلا وكان شرا على نفسه، وعلى من معه، لأنه لا يحسن المعاملة . والسفه لغة : الجهل وهو وضع الشيء فى غير محله ضد الحكمة والحلم، وكل متجاوز الوسط سفيه، والسفيه لا يحسن أن يمل، والضعف هنا يؤول بالسقم المانع أو بالعى والفهاهة، أو بالضعف عن الإملاء ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ﴾ لخرس أو لكن أو جهل ببيان العبارة . وجائز أن يكون السفيه هو الصغير الذى لم يبلغ سن الرشد والمعرفة، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ الولى هو الوالد، أو وصى الوالد أو من هو أولى به من غيره، كذى رحم ماسة يتبرع بالولاية مساعدة له، و﴿بِالْعَدْلِ﴾ تقدم الكلام عليها .

﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ﴾

الإشهاد هو رؤية الرجل الحادثة عند المبايعة أو التسليم، لأن الشهادة لا تكون إلا بالعيان، ولذلك فأخوة يوسف عليهم السلام قالوا : (ما شهدنا إلا بما علمنا) [1] لأنهم لو شهدوا الحادثة لقالوا شهدناها، والمسلم لا يقول أشهد إلا بما رآه .. قوله (شهيدين) أى رجلين من رجالكم، ليكونا أقوى للحجة وإثبات الدين عند الحاجة، لأن المسلمين لا يتواطآن على ضلال، وقد ينسى أحدهما فيذكره الآخر .

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾

أقام الله المرأتين مقام رجل، لأن النساء ناقصات عقلا ودينا، أما نقصان دينهن فترك الصلاة عند الحيض من غير أن يعدها، وأما نقصان عقلهن فلما ركبه الله فيهن من الشهوة التى تشغل بدواعيها،وهى الحمل والوضع والملامسة، فكان لابد العقل للمرأة من أخرى حتى تقوما مقام الرجل من حيث تذكير إحداهما الأخرى ولذلك وجب على الرجل أن يتسامح مع المرأة بقدر الاستطاعة فيما لا يضر بدين ولاعرض، لأن المرأة خلقت من ضلع أعوج لا تقومه إلا إذا كسرته، ولذلك لا تستقيم المرأة لك بحال من الأحوال حتى تطلق . ومعنى الآية أن رجلا وامرأتين يشهدان، وقوله : ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ مبتدأ معطوف عليه، ويشهدان خبر محذوف .

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾

الخطاب للحكام أو للأولياء أو لمن يقام هذا المقام، وترضون أى يرضيكم عدالتهم، وحفظهم ورعايتهم من الشهداء الذين تختارون منهم نصاب الشهادة .

﴿أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا﴾

يقال ضل يعنى ضاع، وفى هذه الآية أن تضيع إحداهما بنسيانها لضعفها عن حفظ الحوادث، ولم يعين الأولى أو الثانية للإطلاق .

---

(١) سورة يوسف آية ٨١

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾

أى تعرض عليها الحادثة فتتصورها .

قوله تعالى:

﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ﴾

أى لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتأدية الشهادة أو لحملها، والظاهر أن هذه الآية يراد بها تأدية الشهادة عند الخصومة، وإن قرر بعض العلماء أنها نزلت لتحمل الشهادة، فإن بعض من يحتاجون إلى الشهداء كان يدعو ليشهدوا له على حادثة ما فيأبى الناس تحمل الشهادة، فنهاهم الله عن الامتناع عن تحملها أو أدائها .

﴿وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ﴾

إن الله سبحانه وتعالى أنزل الشريعة لمصالح الأمة، ومن خير مصالحها حفظ القلوب من الضغائن والصدور من السخائم، وشر ما يدفع النفوس إلى الخروج عن الاعتدال الشرعى المعاملة بالمال، فإنه مفسدة للأخلاق لما أودعه الله فيه من النفع، فترى ضعاف الإيمان يحرصون على جمعه من حل أو حرام معتقدين أنه ينفعهم .

و لما كانت المعاملة هى ميزان الأخلاق بين الله فيها كل البيان، فإن الدائن قد يتساهل مع المدين فيعطيه الدين واثقا به أو محترما له، فيأخذه المدين وينكره فتحصل المفسدة بينهما، وقد تقع بسبب ذلك شرور تغضب الله تعالى وهو أعلم بنفوس خلقه، فنهاهم الله تعالى عن التساهل فى هذا الأمر لرؤيتهم صعوبتة فيسأمون العمل، ثم يحصل ما يحرج النفوس ويدفع الإنسان إلى الخصومة بعد الصفاء والوفاء، وذلك من عمل الشيطان ليفرق بين جماعة المسلمين . فنهاهم الله عن الوقوع فيما يوقع فى الهرج والمرج . وقد بينت لك أن الكتابة

واجبة وأن قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ لم تنسخ الكتابة لأن الدائن قد يعطى دينا لمن يأمنه ويأخذ عليه الكتابة ضمانا له ،وقد يأمنه ثقة بما عنده من وفاء الدين، ومن حيث الشهرة الطيبة فلا يكتب وهذه الكتابة أمر بها سواء كان الدين قليلا أو كثيرا .

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ﴾
الإشارة إلى ما أمر الله تعالى به من أحكام الربا والدين، والكاف والميم للمخاطبين . و(أقسط) أعدل عند الله، وفى قوله : (عند الله) إشارة إلى أن المخاطبين يريدون وجه الله تعالى بخلاف غيرهم ممن يريدون الجنة ونعيمها، وفيها بشرى لمن يتبع أوامر الله تعالى بأن يفوز برضوان الله الأكبر .

﴿وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ﴾
أى وأحفظ للشهادة حتى تكون قائمة مقبولة عند الله تعالى منتجة للمقصود منها، وهو رد الدين إلى الدائن .

﴿وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾
أى وأقرب ألا يحصل لكم الريب فى ضياع أموالكم . (إلا أن تكون تجراة حاضرة تديروها بينكم)، استثنى الله تعالى من هذا الحكم الشركاء الذين يتجرون فى سلعة يديرون العمل فيها بأنفسهم، فلا حرج على كل واحد منهم أن يتسلم أموالا لاستعمالها فى مصلحة الاتجار من غير أن تكتب عليه كتابة، أو يستلم سلعا من التجارة لنفسه أو بتصريفه ما دام يعلم بها شريكه أو يقيد بسجل الشركة .

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾
رفع الله الجناح أى الإثم عن الشركاء المديرين إذا استولى أحدهم على بعض المال ولم يكتب وثيقة به لأن ذلك مما يتعذر، ولكن الشريك إذا قصد الخيانة كان إثمه إثم السارق وزيادة لأنه اؤتمن فخان .

﴿وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾

يعنى يأمر الله سبحانه وتعالى أن نشهد حال البيع أن تلك السلعة خرجت من يد المالك لها إلى غيره ،وذلك بعد أن أباح الله لنا ترك الكتابة إذا كانت الشركة بين مديريها، ولكن هنا حظر الله تعالى علينا أن نبيع أو نشترى بدون إشهاد، وحكمة ذلك أن البائع ينكر أنه با ع للمشترى ويتهمه أنه سرق وليس له شهود فيقسم اليمين فيضيع حق المشترى، ويتهم بالسرقة فتقطع يده لإثبات السرقة عليه، أو أن يكون المشترى لم يدفع الثمن فيطالبه البائع فينكر عليه أنه اشترى منه فيحلف اليمين فيضيع مال البائع، وفى ذلك من التفرقة بين المسلمين والعداوة ما فيه . وقد جعل هارون عليه السلام الصبر على بنى إسرائيل وهم يعبدون العجل أقل من شر التفرقة بينهم حفظا لتوحيد الكلمة، بدليل قوله لموسى عليه السلام ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١) فحكم أن التفرقة شر من عبادة العجل، لأن الله تعالى يقول : ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٢)

﴿وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾

إن الله تعالى ما شدد إلا يسر . أوجب على الكاتب والشهيد أن يقوم كل واحد منهما بما عليه، ثم جعل لهما حيطة ليحفظها بها من المضارة التى تحصل من إنكار الخصمين أو من تعدى الحاكم، والمضارة مفاعلة تكون بين اثنين . ﴿كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ أى الذى كتب الوثيقة، والذى شهد عليها، وهذا كله بعد أن يظهر للحاكم عدم قصد السوء من واحد منهما .

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾

أى يحصل منكم المضارة للكاتب والشاهد، (فإنه) أى فهذا الفعل (فسوق)، أى خروج عن حدود الله تعالى وأحكامه .

---

(١) سورة طه آية ٩٤

(٢) سورة الأنفال آية ٤٦

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾

قدمت لك معنى التقوى، وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ هنا أى خافوا مخالفة أمره فى الدين والربا، فإنكم إذا راعيتم أحكام الله تعالى فى كل أمر رعاية من جمله الله سبحانه بالسمع والطاعة، يعلمكم الله تعالى ما لم تكونوا تعلمون، فإن التقوى لا تكون إلا بعلم الأحكام، وفوق علم الأحكام علم الحاكم الذى تتمثل النفس عظمته وكبرياءه سبحانه وتعالى، وجلاله وجماله، فتقهر النفس الجوارح على دوام المراقبة والمحاسبة، وعلى الجهاد الأكبر فى ذات الله بالمسارعة إلى القيام بمحابه ومراضيه سبحانه وتعالى .

و إذا كانت التقوى لاتكون إلا بالعلم، فما هذا العلم الذى يعلمه الله لأهل التقوى ؟ لا نشك أنه هو العلم بالله تعالى، وبأيام الله، وبأحكام الله، وبحكمة أحكام الله تعالى، ومن جهل الحاكم وأيامه وحكمة أحكامه وعلم أحكامه ولم يعمل بها يكون ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (1) وقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [طلب العلم فريضة على كل مسلم] ومعلوم أن الأحكام الشرعية ليست علما فقط بل هى علم وعمل، والعلم حقا هو ما تصورت النفس رسوم المعلوم فيه، فيرسم على جوهر النفس، وذلك هو العلم بالله تعالى ،وهو العلم النافع قال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (2) مع ما حصلوا من العلم الذى هو كأمثال الجبال، وإنا لا نرى الفتنة إلا ممن حصلوا علم الأحكام وتركوا على الحاكم، قال على كرم الله وجهه : ((إنما قصم ظهرى رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك)) . وذلك لأن العالم المتهتك يوقع العامة فى معصية الله تعالى، والجاهل المتنسك يضر العامة .

﴿وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أعقب تلك الآية بقوله تعالى : ﴿وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لتترعج قلوب أهل الغفلة عن الله، الناسين اليوم الآخر، وليقوى إيمان أهل الإيمان بالله، فإن الغافلين إذا علموا أن الله يعلم

(1) سورة الجاثية آية ٢٣

(2) سورة يوسف آية ١٠٦

سرهم ونجواهم وأخفى من ذلك وكانت فيهم بقية من الإيمان أقلعوا عما يخالف الله تعالى، وإذا تحقق أهل الإيمان أن الله تعالى يعلم ما يتقربون به إليه من الفرائض ونوافل البر فرحوا بذلك وأقبلوا .

قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣)

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾

معلوم أن الإنسان لا يكون على سفر ولكنه يكون فى سفر، فإتيانه تعالى بعلى هنا دليل على المتمكن فى السفر حتى كأنه علاه، أى وإن كنتم على سفر واقترض بعضكم من بعض، ولم تجدوا كاتبا للقيام بالواجب عليكم فرهان تعطى من المدين للدائن أمانة له على ماله .

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾

أى إن حصلت الثقة من الدائن للمدين وأقرضه ما يطلبه وجب على المدين أن يرد له ماله وافيا ليحسن إلى دائنه كما أحسن إليه، ولينال بذلك مغفرة الله تعالى ووسعة الرزق، وقد تقدم الكلام على هذه الآية (فليؤد الذى اؤتمن أمنته) أمر الله المدين أن يرجع المال الذى ائتمنه عليه الدائن إليه، فجعلها الله أمانة فى عنقه وهى قرض أو سلف حثا من الله تعالى للمدين أن يسارع إلى رد الدين لصاحبه، حفظا للقلوب من الشحناء ،وللمجتمع من التفرقة .

﴿وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ﴾

تقدم الكلام عليها ولكنى أزيدك علما بتفصيلها : بينت لك أنواع التقوى، فأهل مقامات الإيقان والإحسان يتقون الله تعالى، لأن أهل الإحسان يعبدون الله كأنهم يرونه، وأهل مقام

الإيقان كشف الله عنهم الحجاب حتى شهدوا عوالم الملكوت واللاهوت والجبروت، شهادة سكنت بها نفوسهم إلى منفسها واطمأنت بها قلوبهم إلى ذكر مقلبها فقوله : ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ﴾ خطاب لأهل هذين المقامين . وقوله تعالى : ﴿رَبَّهُ﴾ خطاب لأهل مقام الإيمان والإسلام الذين لم يقع بهم العلم على عين اليقين ممن أحبوا المنعم لنعماه، ورغبوا فيه لخيره وبره فى الدنيا والآخرة .

﴿وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾

ينهانا ربنا عن أن نكتم الشهادة التى شهدناها إذا طلبت منا، ويبين لنا أن كتمها دليل على أن القلوب آثمة، وهنا أشير إليك تعلم أن جواهر النفوس متفاوته فمنها نفوس صيغت من جمال الله : وهى نفوس الرسل الكرام، ومنها نفوس صيغت من بهاء الله : وهى نفوس عليين وأعلى عليين، ومنها نفوس صيغت من جلال الله : وهى نفوس حملة العرش، وعمار السموات، والموكلين بالأقدار و الأرزاق ،قال سبحانه : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١)، وأكمل النفوس نفس رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد صيغت من جمال الكمال الذاتى، ومن نورها المحمدى صيغت نفوس الرسل الكرام، فنفوس أبدال الرسل، فنفوس الورثة والصديقين .

أما نفوس الكون الأسفل فإن منها نفوس صيغت من السفل، ثم من سجين، ثم من طينة الخبال من نار جهنم، أما النفوس التى صيغت من السفل : فنفوس البهائم، أما التى صيغت من سجين : فنفوس الوحوش الكاسرة، ونفوس الأناسى الذين هم أضر من الوحوش الكاسرة وشر من الشياطين، أما النفوس التى صيغت من طينة الخبال : فنفس إبليس وجنوده، قال عز وجل : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٢) وكل نفس تؤدى مقتضى حقيقتها ولو شئت أن تغير الحقائق ما استطعت، وقد اختلف علماء الأخلاق فقال بعضهم : إن الأناسى صالحون أن يتثقفوا ويتهذبوا بالعلم، ولذلك بعث الله الرسل إلى أممهم ولم يرسلهم الله إلا وهو يعلم أن النفوس قابلة، لا عبثا. وقال بعضهم أن الله خلق النفوس

---

(١) سورة التحريم آية ٦

(٢) سورة الصافات آية ١٦٤

لتؤدى مقتضى حقائقها وإنما بعث الله الرسل والأنبياء ليكونوا حجة على من سجل الله عليهم الخلود فى جهنم أو التعذيب فيها، ولذلك فإنك ترى أهل النفوس الخبيثة تقوم عليهم الحجة حتى تتضح المحجة، وهم على ما هم عليه من الكفر بالله ومحاربة رسله، وترى أهل النفوس الطاهرة يعيشون فى وسط الجاهلية أو فى بيئة خبيثة أو بين أسرة شريرة فيظهرون كالنجم الزاهر، مقبلين على التقوى والصلاح، متخلقين بأجمل الأخلاق حتى لو ألقوا فى النار لكانت بردا وسلاما، والخلاف بين علماء الأخلاق لفظى .

﴿وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى خصص بمشيئتة ما شاء أن يخلقه من أرواح عاليات مجردات من المادة ولوازمها، ومن أجسام نورانية هم عمار سمواته، ومن أناسى خلقهم باليدين وجمع فيهم الروح والجسم، ومن حيوانات ونباتات وجمادات ومعادن، كل تلك الحقائق أنشأها وأبداعها البديع جل جلاله بتقدير ،ومشيئة، وحكمة، وقدر أعمارهم، وأنفاسها، وأعمالها، وتنقلاتها قبل إيجادها وإمدادها.

و من تعلقت قدرته العليه بما خصصته إرادته القدسية، وأبرز بتصاريف قدرته العجيبة وبتدبير حكمته الغريبة، لابد وأن يكون محيطا بتلك الحقائق فى أطوارها وأدوارها قبل إيجادها لقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١) وإن تأول البعض : ﴿مَا﴾ فى قوله : ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير مراد الله تعالى لينسب خلق الأعمال إلى العبد .

ولكن عيون الكشف مطلعة بأسرار القدر لأنه محظور على العقل أن يحيط بها فكيف يحيط بها الحس، فالله جل جلاله يخبرنا أنه عليم بكل شىء مما أحاط به العرش بل وبالعرش وبما فوق العرش، بل عليم بذاته تقدست وبأسمائه وصفاته تنزهت، فعلم الله يتعلق كشفا وحيطة بالواجب والجائز والمستحيل، وهذه الآية الشريفة جملت القلب بمزيد اليقين وكاشفت الأرواح بالغيب المصون .

---

(١)سورة الصافات آية ٩٦

قوله تعالى : ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

ملكا وإيجادا وإمدادا، لا فرق بين عالين وأعلى عليين وما دون ذلك إلى ذرات الجمادات وقطرات البحار وأجزاء الهواء، لأن ﴿ما﴾ هنا للعموم وفيها معنى التغليب فدلت على كل ما تقدم، والآية الشريفة مساقة هنا علة وبرهانا لما قبلها من الشهادة والدين والربا وإن كان الخبر فيها عاما . والمعنى أن الله تعالى يقول : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وحيث له ما فى السموات وما فى الأرض فتكون السموات له ملكا وإيجادا وإمداد ،وإذا تحقق الإنسان بذلك سارع إلى منع استعمال الربا، وإلى وفاء الدين وإلى تحمل الشهادة وتأديتها ابتغاء مرضاة الله تعالى .

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾

هذه الآية أذابت قلوب أهل المعرفة حتى أن الصحابة رضى الله عنهم لشدة وقعها عليهم جثوا أمام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقالوا : ((يا رسول الله إن كلفنا بما نطيق من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها)) فكيف نطيق أن الله يحاسبنا على ما نخفيه فى أنفسنا ؟ ومعلوم أن ما تخفيه النفوس لايحصى ولا يحصر، فقد يخفى الإنسان فى نفسه الميل إلى النساء، أو الرغبة إلى ما فى أيدى الناس، أو الرغبة فى عمل الفحشاء والمنكر أو القتل، أو يرد على النفس واردات إبليسية وخواطر شيطانية وهى تستتر فى هذه الواردات جميعها، فإذا كان الله يحاسبنا على كل همة ولمة وخاطر هلك الإنسان . وبعد أن سمع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كلام الصحابة الذى انتهى إلى قولهم : وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها قال ﴿ﷺ وآله﴾ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : (سمعنا وعصينا) [(١)] ؟ بل قولوا : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما قرأها القوم وتحركت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى فى إثرها : (آمن

---

(١) سورة البقرة آية ٩٣

الرسول بما أنزل إليه من ربه) إلخ الآية ،فلما فعلوا نسخها الله تعالى فأنزل الله سبحانه : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وقد ورد عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : [إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم] قال تعالى : (و إن تبدو ا) أى تظهروا بالقول أو العمل أو الحال (أو تخفوه) أى تبطنوه عن الناس، وتغيبوه بجعله لا يتجاوز قلوبكم . ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾ أى يأخذكم به إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وفى ذلك ما فيه مما أوقع العلماء فى الحيرة فمنهم من جوزتكليف الله الإنسان ما لا يطيق، ومنهم من منع ذلك، حتى قال بعض المفسرين ما فى أنفسكم أى ما فى فطركم وطباعكم مما تظهرونه علنا، أو تعلمونه خفية، وأراد بالنفس مطلق النفس وهى الهيكل الإنسانى بما حواه ليخرج من القول بتكليف مالا يطاق . والله تعالى له أن يكلفنا بما نطيق وما لا نطيق وبفضله يتفضل فيغفر، كما كلف الإنسان بالصلاة والصيام والزكاة والحج، وعفا عنه ذلك عند المرض والسفر وعند الفقر والضرورة .

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾

معلوم أن المغفرة هى الستر، فالله تعالى يستر عيوب الإنسان وذنوبه عن جوارحه المجترحة، وعن معالمة من الأرض، وعن الملائكة، وقد قيد بعضهم ذلك بالتوبة، وحضرة الإطلاق الإلهى لا تتقيد بتوبة ولا بغيرها فقد يغفر للتائب وغير التائب، وهذا ما يليق بكمال عطفه ورحمته ومغفرته، لأنا نرى التائب استحق المغفرة بتوبته والمقام مقام إظهار كمال التوحيد، لأنه يقول سبحانه : (لمن يشاء) فلا تقيد مشيئته، وإن كان جائز أن نفهم قوله : من يشاء . بتقدير التوبة قبل الموت لمن يشاء أن يغفر له، وعندى أن الطمع فى هذا الجانب من غير أدب مع الله تعالى ذنب آخر يضاف إلى المعصية . والواجب على أهل المعاصى الذين أطمع أن يغفر الله لى ولهم أن يديموا النظر إلى أنفسهم بمقتها، وبالغضب عليها، وباعتبارها مخطئة مسيئة، ويكون بعد ذلك الطمع، أما ما يقوله بعض أهل الغفلة إذا سمعوا موعظة أو ذكرا مثل : (إن الله غفور رحيم) أو : ((وقتها يحلها الله)) أو : ((حتى يريد الله)) أو: ((ربنا ما أراد)) هذة الألفاظ صادرة عن قلب غافل عن الله، والواجب أن يقول المذنب سمعنا وأطعنا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾

أى ويعذب الله من يشاء أن يعذبه بالذنوب التى غفرها لمن يشاء أن يغفر له، ولو تاب كما تاب فرعون عند نزول الخطر به، وشر العذاب حرمان النفس من بهجتها ولذتها يوم القيامة، وهذا العذاب أشد من عذاب الجسم فى نار جهنم .

﴿وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

بين الله تعالى لعباده عجائب قدرته عند إبراز ما يشاء إبرازه، من العجائب التى تعجز العقول عن تصورها فى الدنيا والآخرة، فهو سبحانه قدير أن يمنح الكافر كمال الإيمان، ومقام الصديقية، وحقيقة السمع والطاعة والتسليم كما منح أبا بكر الذى مضى فى الجاهلية أربعين سنة تقريبا، وعمر، وعثمان رضى الله عنهم . وقادر سبحانه أن يضل من يشاء ولو كان طاووس الملائكة، وخير أولياء وقته، كما أضل إبليس وبلعام بن باعوراء وبرصيصا الراهب . ولا يسأل عما يفعل : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (١) .

قوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥)

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن الله تعالى لما أنزل ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾ حصل للصحابة هلع من خوف تلك الآية، وأسرعوا إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما بينت لك، فلما أن أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالسمع والطاعة قالوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فبشرهم الله بتلك الآية بقوله :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ ..

---

(١) سورة يس آية ٨٢

و قبل أن أشرح لك هذه الآية أبين لك الإيمان،وشرائطه ونتائج الإيمان، والفرق بين الإيمان والعلم لتكون على بصيرة منه، لأنه قد التبس على كثير من أهل العلم حتى صار يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا بغير علم ولا بيان، وذلك أن كثيرا من المتكلمين يسمون الإيمان علما ويقولون : هو علم من طريق السمع ،وما يعلم بالقياس فهو علم من طريق العقل فأريد أن أبين حقيقة العلم ..

لما كان المعلوم لا يكون علما للنفس إلا إذا تصورت النفس رسوم هذا المعلوم فى ذاتها، .. فالعلم هو تصور النفس رسوم المعلوم فى ذاتها، ولما كانت أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى بما يجب على الناس أن يصدقوا به من معانى الكمالات الإلهية وتتريه ذاته العلية، وما وصف به نفسه سبحانه وتعالى لا يمكن للنفوس أن تتصور رسومه، وتتبين معانيه قبل الإقرار والتصديق، وتزكية النفس وتطهيرها من كثافة الجهل وظلمات العقائد الباطلة، والآراء الفاسدة، والآمال المبعدة والحظوظ والأهواء، لذلك كان الإيمان هو الإقرار والتصديق بدون تصور فى ذات النفس، وبذلك يظهر التفاوت بين العلم والإيمان، ومن أجل هذا دعت الأنبياء أممهم إلى الإقرار أولا، ثم طالبوهم بالتصديق بعد الإقرار، ثم حثوهم على طلب المعارف الحقيقية بدليل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (١) ولم يقل يؤمنون بالمشهود، ثم حثهم على طلب العلم بقوله تعالى :

(إنما يتذكر أولوا الألباب) (٢) ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٣) ثم مدح فقال :

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٥) فظهر مما تقدم أن العلم هو صورة المعلوم فى نفس العالم .

والإيمان هو التصديق لمن هو أعلم منك بما يخبرك به عما لا تعلم، وكفى بهذا فرقا بين العلم والإيمان .

(١) سورة البقرة آية ٣

(٢) سورة الزمر آية ٩

(٣) سورة الحشر آية ٢

(٤) سورة المجادلة آية ١١

(٥) سورة الروم آية ٥٦

و من نتائج الإيمان أنه يورث العلم لأنه متقدم الوجود على العلم، ومن أجل هذا دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم إلى الإقرار بما أخبرهم، والتصديق بما كان غائبا عنهم وعن إدراك حواسهم وتصور أوهامهم، فإذا أقروا بألسنتهم سموهم عند ذلك : (المؤمنين) ثم طالبوهم بتصديق القلب كما ذكر الله تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فإذا وقع التصديق بالقلب سموهم الصديقين كما ذكر الله تعالى ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [١] ومن أكمل شرائط الإيمان قوله تعالى : (و على الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) [٢] وقال لنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ (و توكل على الحى الذى لا يموت) [٣] وقد شرحت مقام التوكل فى كتابى : ((أصول الوصول)) و: ((معارج المقربين)) ومن شرائطه (الإخلاص) أيضا لأنه برهان على أن المؤمن كامل الإيمان ذائق حلاوته ،قال تعالى : (فادعوا الله مخلصين له الدين) [٤] وقال سبحانه : (و ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [٥] . وقد بينت هذا المقام فى : ((معارج المقربين)) وغيره من الكتب، ومن شرائطه شرائطه : ((الصبر)) وهو الصفة التى يتجمل بها من عرف الله، ويتحلى بها من يرجو ثوابه، وهى علامة اليقين وحصن المتقين، قال الله تعالى : (يأيها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا) [٦] الآية، وقال تعالى : (و اصبر وما صبرك إلا بالله) [٧] ومن شرائطه أيضا : ((((الرضا بالقضاء والقدر))، والرضا هو طمأنينة النفس بما يجرى على الإنسان من المقادير، وجريان المقادير بالقضاء هو علم الله السابق بما رتبته القدرة، وخصصته الإرادة فيما كان وما يكون ،وإبراز ذلك فى زمانه ومكانه، والرضا هو صفة الرسل وورثتهم من الصديقين والشهداء وقليل ما هم، أما شرط الإيمان الأساسى فالعمل بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ واتباع ما يأمر به صلوات الله عليه من الطاعات، والانتهاء عما نهى عنه من

---

(١) سورة الزمر آية ٣٣

(٢) سورة المائدة آية ٢٣

(٣) سورة الفرقان آية ٥٨

(٤) سورة غافر آية ١٤

(٥) سورة البينة آية ٥

(٦) سورة آل عمران آية ٢٠٠

(٧) سورة النحل آية ١٢٧

المعاصى، وهو السمع منه والطاعة له، وقد وفيت شرح هذه المقامات فى مواضعها من كتبى فراجعها إن أحببت المزيد..... (١)

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾

و معنى قوله تعالى (آمن الرسول) أى صدق الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ (بما أنزل إليه من ربه) وهو القرآن المجيد الذى بين العقيدة الحقة بالحجة البالغة والعبادة الخالصة مفصلة، والأخلاق الجميلة متممة، والمعاملة الحسنة ضامنة لصفاء المجتمع وسعادته، مع بيان ما حرمه الله تعالى علينا ونهانا عن الوقوع فيه وكره منا عمله . وقول الله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) لا يقتضى عدم إيمانه نزول الكتاب، ولكن يقتضى الإيمان بالأحكام الشرعية مما أمرنا به وما نهانا عنه ولم يكن معلوما لأحد ولا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأما الإيمان الذى هو عقد القلب على كمال تفريد الله بالألوهة، وعلى كمال توحيده الذاتى والأسمائى والصفاتى وعلى العجز عن إدراك حقيقته، وعلى الإيمان بقضائه وقدره فقد كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كامل الإيمان فيه من كان نورا وآدم بين الماء والطين، وكيف لا وعيسى بن مريم قال يوم ولد : (إنى عبد الله آتانى الكتب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلوة والزكوة ما دمت حيا) (٢) وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ [كنت نبيا وآدم بين الماء والطين] أى لا وجود له . قوله : (من ربه) لأن هذا الإيمان الذى أخبرنا الله به هو الإيمان بما أنزله الله تعالى من الأحكام الشرعية وهذا يقتضى أن يكون من ربنا سبحانه وتعالى، وأما ما يتعلق بذاته القدسية خاصا به سبحانه من غير أن يتجاوزه إلى غيره فهذا من الله تعالى وهو المسمى بالقرآن الدال على ذات الله وأسمائه وصفاته كمالا وجلالا وجمالا، وقد ورد عنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال : [إنى أوتيت القرآن وأكثر من القرآن]، ومعنى القرآن ما بينت لك، وأكثر منه الأحكام الشرعية التى نزل بها جبريل على قلبه ﴿ ﷺ وآله﴾ .

---

(١) تطلب جميع كتب الأمام أبى العزائم رضى الله عنه من مكتبة ((دار المدينة المنورة)) التابعة لمشيخة السادة العزمية ١١٠ ش مجلس الشعب – القاهرة

(٢) سورة مريم آية ٣٠- ٣١

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾

(والمؤمنون) يعنى والذين صدقوا الله ورسوله وما أنزله الله عليه (كل) أى كل واحد منهم على حذف المضاف المعوض عنه بالتنوين . (ءامن بالله) أى كل واحد منهم صدق بالله أى بتفريده بالألوهة وبالإيجاد والإمداد وخلق الأعمال . (وملائكته) الملائكة هم أجسام نورانية وهم أنواع منهم حملة العرش، ومنهم عمار السموات الذين (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [1] . ومنهم السفرة البررة، ومنهم أمناء الله على وحيه،و منهم الذين أقامهم الله لتصريف أقداره فى الإعطاء والمنع، ومنهم من أقامهم الله حفظة على بن آدم، ومنهم الذين يكتبون السيئات والحسنات، ومنهم الذين يحاسبون الموتى فى البرزخ، ومنهم ومنهم، وما يعلم جنود ربك إلا هو، أما ما فوق ذلك من عالين وعليين وأعلى عليين بل ومن الأعلين فأرواح، منها الهائمون الآلهون والكروبيون المحترقون من جلال الله تعالى، وما فوق ذلك من عالم اللاهوت والجبروت، وما فوقهم مما عجزت العقول عن معرفته بحد أو برسم فكيف تصل الأرواح الطاهرة إلى فناء عظمة القدس الأعلى ؟!! سبحانك ما عرفناك حق معرفتك قال تعالى : (و ما قدروا الله حق قدره) [2] والذى وجب علينا الإيمان به على قدر تسليمنا هم الملائكة فقط، فإذا منحنا الله التوفيق وساحت أرواحنا فى فضاء محيط العرش، ومنحنا الله العمل بالتقوى علمنا من آيات الله وأسراره ما لم نكن نعلم . أما من لم تسبح روحه فى هذا الفضاء الواسع، ولم تهاجر نفسه وعقله وحسه من كون الفساد إلى كون الحياة والبقاء، بهجر ما حرم الله تعالى فهو ممن أخلد إلى الأرض واتبع هواه . (و كتبه) وفى رواية ((وكتابه)) وقد وردت تلك الرواية عن ابن عباس رضى الله عنهما أى هذا القرآن الكريم، وأما الرواية الأولى وهى (و كتبه) فالمراد بها جميع ما أنزله الله على رسله السابقين، ولما كان القرآن المجيد مهيمنا على الكتب بل ناسخا لها أغنانا الله به عن ذكر سواه فلا حاجة بنا إلى ذكر تلك الكتب هنا، ومن قرأ القرآن فقد قرأ جميع كتب الله المنزلة وزاد عليها .

---

(١) سورة التحريم آية ٦

(٢) سورة الزمر آية ٦٧

قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [١] فالقرآن هو دين الله الكامل ونعمته التى أتمها بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ومن طلب البحر استقل السواقيا، وقد ورد أن عمر بن الخطاب كان متوجها إلى مزرعته فمر على رهط من أحبار اليهود فوجدهم يتدارسون فى ورق معهم، فسمع فيه كلاما يشبه كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى سمع نعت رسول الله فيه فطلب إليهم أن يعيروه له يوما،وأسرع به إلى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : يارسول الله إنى سمعت نعتك فى كتب اليهود، فقبض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على الورق بيده وقبض على عنق عمر بيده الثانية وجذبه وقال : [أى عمر لو أدركنى موسى وعيسى ما وسعهما إلا اتباعى] . وذلك دليل على أن المسلم قد أغناه الله بالقرآن، ودليل آخر هو أن الله أخبرنا أنهم غيروا فى التوراة وبدلوا فيها والواجب علينا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، وأن نهجر كتبهم والكلام معهم إلا إذا دعوناهم بأسلوب الحكيم إلى الدين، فإن قبلوا فبها ونعمت وإلا فالجزية، فإن امتنعوا فالسيف . أعاد الله لنا مجد سلفنا الصالح وأعز دينه وكتابه . (و رسله) جمع رسول .

والرسول هو الرجل البالغ العاقل الذى أوحى الله إليه بشرع يعمل به ويبلغه، والرسل معصومون من مخالفة الله عند التبليغ والعبادة لأنهم جائزعليهم الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مقاماتهم العلية ،والرسل يغضبون، ولكن لله، ويضحكون فى الله، ويرضون لله، وكل أعمالهم و أقوالهم وأحوالهم فى مختلف الشئون هى فى علم وهى مرضاة الله ومحابه، ومن تنزه عن عمل أو قول أو حال بلغه عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فهو جاهل بمقامات الرسالة، ومن ظن أنه يبلغ هذا المقام، أو يساوى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ولو أحاطه الله علما حتى بما لم يحط به الأنبياء من أسرار التصريف وغيوب الأقدار وخواص الجواهر الكونية ومعرفة الآثار والتمكين فى علم سيما الخلق، بل والبرعة فى الفراسة فقد جهل ما يجب عليه أن يعلمه، فإن الرسالة من الله تعالى أعلى مقامات العطايا الإلهية . فقد يعطى الله كل شىء للعبد ولا يعطيه الرسالة فلا يكون رسولا أبدا، وقد يظهر من كلام بعض الشاطحين التائهين فى بيداء الجهالة بمكانة أنفسهم وقدوها مما يشير إلى أنهم ساووا الرسل أو بلغوا مقاماتهم العلية، هذا مؤول إلى تأويلين : الأول أنه ضلال وكفر

---

(١) سورة المائدة آية ٣

والعياذ بالله لأنهم أساءوا الأدب مع الرسل وسوء الأدب مع الرسل سوء أدب مع الله الذى أرسلهم، وقليل من سوء الأدب مع الرسل كفر، لأن الأدب إعطاء المتأدب له حقه الذى يقوم بقدره . وأكمل الرسل عليهم الصلاة والسلام عجزوا عن أن يتأدبوا مع الله بهذا المعنى فكيف بغيرهم ؟ فإذا نحن عجزنا عن الأدب مع الله وتأدبنا له على قدرنا يكون ذلك كمال الأدب مع الله تعالى، قال تعالى : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) (١).

و لو طالبنا الله بالقيام لذاته العلية على قدره العلى لكانت النار أقل ما نستحقه فإن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بشر تجوز عليه الأعراض البشرية وقد أظهر الله لنا على يديه ما نطيقه، فأكل وشرب وتزوج النساء ونام وضحك ومازح وفعل كل ما نفعله لتكون تلك الحقائق ماثله أمام أعيننا فلا نتحرك ولا نسكن ولا نأكل ولا نشرب ولا ننام إلا كما فعل عليه الصلاة والسلام ومن جهل شيئا فليسأل من هو أعلم به منه ليكون صورة كاملة لرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ والتأويل الثانى هو الذى كنت لا أحب أن أبينه خوفا من أدعياء الطريق الذين يخفون فى أنفسهم مالا يبدون ولا يرعون حرمة لله ولا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ويتجملون كالقرد الذى يتشبه بالأناسى فى عمله، وكم من فتانين جالسوا العارفين بالله وسمعوا أقوالهم وشهدوا أحوالهم فادعوهم لأنفسهم وأضلوا بها أهل التسليم وإنى أنصح لمن جالس أهل المعرفة أو صحبهم ألا يقلدهم فى هذا الشأن فإن التقليد فيه كفر، وهذا التأويل الثانى : أن تشرق أنوار التجلى على روح السالك المخلص فيدك طور هيكله وتصعق نفسه وتبقى الروح الجوهرة الربانية اللطيفة النوارنية فتشهد الحق وهى حق ولديها يتجمل بجمال الله فيكون الله تعالى بصره الذى يبصر به وسمعه الذى يسمع به ولسانه الذى ينطق به كما ورد فى الحديث الصحيح بسند البخارى خبرا عن الله تعالى الذى منه [فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به] إلخ ... وبعيشك يا أخى رجل يتكلم بالله ويسمع ويبصر بالله ماذا يكون حاله إذا أخبر عن الله كما أخبر الله تعالى عنه وقد أخبر الله تعالى عن رسله بما قصه علينا فى القرآن فهل خبر الله عن رسله جعله عبدا ؟ تنزه وتعالى فكذلك خبر أهل هذا المقام عن الله لا يجعلهم ملائكة ولا أرواحا عالية : وأمثال هؤلاء يجب أن يتباعد عنهم أهل التسليم السالكون حتى يتذوقوا طعم التوحيد

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦

الكامل بعد تمييز الحضرتين ويكون نفس واحد مع الرجل منهم خيرا من عبادة سبعين سنة وفى الحديث الطويل قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [العلماء سرج الدنيا ومصابيح الآخرة] .

﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

بين الله فى هذة الآية أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما بعثهم الله بالهدى ودين الحق وأرسلهم قبل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فى كل زمان وفى كل مكان بحسب ما تقتضيه حالة المجتمعات ليعدوا العالم لبعثة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام وكلهم جاءوا أولا وبالذات لتقرير عقائد التوحيد وبيان التتريه والتفريد وثانيا وبالذات لتهذيب بنى الإنسان . جاء نوح لتقريرعقائد التوحيد وجاء الخليل ليقيم الحجة على أن الله ليس له شريك ولا نظير . وقام فى زمان لوط ليطهر قومه من قبيح الفحشاء وجاء صالح ليعلمهم المساواة وجاء موسى ليقيم الحجة على افتراء فرعون وليعلمهم العدل بين الرعية ويبطل السحرالذى فشا فى عصر الفراعنة فأفسد العقائد وجاء عيسى ليرجع يهود بنى إسرائيل إلى أصول التوراة وليعلم الأطباء أهم ما أوتوا من علم الطب إلا قليلا بما أقامه من المعجزات الخارقة فى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكل ذلك تكميل لدين الله الحق الذى خص به خاتم الأنبياء قال تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وقال سبحانه ﴿وخاتم النبيين﴾ (١) وحكمة بعثه الرسل أن يرفع الإنسان من أسفل سافلين الذى أهبط إليه ليعيده إلى عالين الذى أهط منه وهو الجنة التى كان فيها، فالرسل عليهم الصلاة والسلام خلفاء الله فى أرضه أرسلهم الله وعلى كل فرد منهم واجب لله يقوم به لعباد الله، وكلهم جاءوا بالحق للحق وقد جمع الله كتبهم وعلومهم وأسرارهم فى القرآن، ومن قرأ القرآن حفظ مقامات الرسل فلم يفرق بين أحد وليست عظمة الرسل المقتضية لتعظيمهم هى ذواهم أو أنساب أبائهم وإنما ذلك أن الله اصطفاهم لنفسه وائتمنهم على وحيه وأمرهم بتبليغ كتبه إلى عباده فقاموا بما أمر الله وكلهم وفوا بما عاهدوا الله عليه، وكم قتل منهم رسل فى أثناء دعوهم إلى الله تعالى . والواجب علينا أن نصدق أهم كلهم رسل الله وأن الله فضل من شاء على من شاء منهم فنؤمن بذلك ولا نفضل من أنفسنا بل يجب علينا الأدب

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠

لله ولرسوله ،فنسلم لله تعالى فى أحكامه ونسمع ونطيع لرسله . أما تفضيل بعضهم على بعض تفضيلا يخرجهم عن مقام العبودية فذلك مروق من الدين كمروق السهم من الرمية وذلك كما فرق النصارى بين رسل الله فجعلوا عيسى عليه السلام ابن الله، وكما فرق اليهود فجعلوا شمويل أو عزير ابن الله وما يحصل بين أهل الجهالة من النساك أو أهل الهوى المدعين العلم فى تفضيل بعض الرسل على بعض فهو ضلال . وقد دخل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ المسجد مرة فوجد أصحابه يتكلمون وهو يسمع فقال أحدهم : آدم نفخ الله فيه من روحه وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته . وقال آخر : نوح اصطفاه الله وأجرى له الفلك على الماء وأنجا به من اختارهم من خلقه وأهلك أعداءه بالغرق . وقال آخرون : إبراهيم أشهده الله ملكوته الأعلى وأقام به الحجة على عدو الله وجعل له النار بردا وسلاما وقال آخرون : موسى كلمه الله وأعطاه سره العلى فى العصا ففعل بها ما فعل وتجلى له تجليا شهوديا . وقال آخرون : بل عيسى روح الله وكلمته وأحيا به الميت وأبرأ الأكمه والأبرص وأخبر عن المغيبات وأنزل عليه الإنجيل . فخرج عليهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال : إنى (سمعت قولكم آدم خلقه الله بيديه ونعم ،ونوح أكرمه الله بالسفينة تجرى على الماء ونعم، وإبراهيم أحيا الله به الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ونعم ألا وإنى حبيب الله وأول شافع وأول مشفع وبيدى لواء الحمد يوم القيامة آدم ومن بعده تحت لوائى وأنا أول من يدق حلق الجنة فيفتح لى) .. وما ورد فى الكتاب والسنة من أنواع فضائله ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يحصى وقد بين القرآن تلك الفضائل مجملة ومفصلة فى آيات كثيرة نشرحها عند ذكرها إن شاء الله تعالى ورواية النون فى (نفرق) تدل على أن هنا محذوفا هو وقالوا وعلى رواية الياء فتكون ((يفرق)) ويكون المضمر كل واحد منا والذى عليه أكثر العلماء (نفرق) بالنون من هنا يظهر أن الذى جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مقصد واحد هو الدعوة إلى توحيد الله وإلى العمل بشرائعه التى بها مصالح العالم ومن تلك الناحية لا ينبغى أن نفرق بين أحد من رسله أما تفضيل بعضهم على بعض بما فضلهم الله به فذلك من ناحية خصوصياتهم العلية التى بها عمت رحمة الله ونعمته جميع العالم وقد أخبرنا الله أن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ أمد الله به الأنبياء والرسل وأقامهم رسلا بعد مواثقتهم الله تعالى أن

يكونوا تبعا له وأمة لحضرته قال تعالى : (و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءاتيتكم من كتب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) [(١)] الآية فإن قوله تعالى (ثم جاءكم) خطاب لجميع الرسل والذى جاءهم بعد تمام دورهم الكلية هو سيدنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل فثبت أن الرسول الذى واثق الله لأجله الرسل هو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فهو رسول الرسل ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : [العلماء ورثة الأنبياء] وقد أقام الله رجالا أمناء لحفظ شريعته بعد حبيبه هم أبدال الرسل الصديقين علماء الأمة وأفرادها كما قال على عليه السلام : اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة إما ظاهرا مشهورا أو باطنا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته .

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

الواو عطفت الجملة على الجملة التى قبلها وهى قالوا (لا نفرق) وقالوا أيضا (سمعنا) أى سماع قبول ما جاءنا منك يا ربنا تترهت على لسان حبيبك محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بما تحبه وترضاه أمرا وهيا . (وأطعنا) أمرك وهيك وبتوفقيك وعنايتك سارعنا إلى القيام بما أمرتنا معتقدين أنك لا تضرك معاصينا ولا تنفعك طاعتنا ومعتقدين تقصيرنا فى هذا الجانب.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

أى غفران هذه مفعول مطلق دل على فعل أمر ملحوظ أى اغفر لنا تقصيرنا فى مسارعتنا إلى القيام بأمرك وتباعدنا عن نهيك فإنا قد نسهوا فى عملنا فننسبه لنا وأنت الموفق المعين . فالمؤمنون رضى الله عنهم يستغفرون الله تعالى من فعل القربات خوفا من أن يشوبها شوب الغفلة أو النسيان ومن أن يمازحها رؤية النفس فى العمل أو شهود الطمع بسبب العمل أو الغرور به وهذه صفة المؤمنين الكاملين قال الله تعالى : (و ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم)[(٢)]، بعد أن أخبرهم

(١) سورة آل عمران أية ٨١ .

(٢) سورة المزمل آية ٢٠

بالبشرى عن نيل الخير بما يقدمونه أمرهم بالاستغفار لأن المقصد فوق العظمة ونيله لا ينال إلا لكمال الفناء فيه عما سواه ومن شهد أسرار ((لا حو ل ولا قوة إلا بالله)) .

كان له الأمن والهداية من الله تعالى ... (ربنا) أى نحن نعتقد أن قدرك فوق كل شىء، وما ينبغى لحضرتك منا فوق كل شىء، ومهما تقدمنا و تقربنا إلى حضرتك بمعونتك وتوفيقك، وشهود تلك القربات لنا شرك خفى فنرجو ونبغى الغفران بفضلك يا ربنا . (و إليك المصير) هذه الآية دلت على أن أهل الإيمان لهم حظوة فى تلك الدار الدنيا، يتترل لنا ربنا فيها تترلا تضمحل به الحقائق التى تحجبنا عن شهود جماله، حتى نكون كأننا معه سبحانه نواجهه فنخاطبه خطاب القريب للقريب، وهو مقام الأنس بالله، فقوله : (و إليك المصير) دليل على المقام الذى وصلوا إليه بعد السمع والطاعة، وفيها من البشائر الدالة على أن الله يتترل على من أقبل عليه فيقبل سبحانه عليه، ولمن تقرب إلية فيتقرب جل جلاله إليه . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى الصحيح :

قال الله تعالى : ((أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه، إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتانى سعيا أتيته هروله ..)) (و إليك المصير) يعنى أننا نعتقد كمال الاعتقاد أنك كما بدأتنا تعيدنا وبدأنا منك وعودتنا إليك، فإليك نرجع . والرجوع هنا نوعان : رجوع أهل مقام الإيقان فى الدنيا والآخرة، ورجوع أهل مقام الإسلام والإيمان فى الآخرة . أما رجوع أهل مقام الإيقان أن يوفقهم الله تعالى للإقبال عليه بعد العلم والإخلاص، فيقبلون عليه جل جلاله ويقبل عليهم سبحانه حتى يزول البين، من البين ،وينمحى الرين، فتقع العين على العين، فيفنيهم جل جلاله عن وجودهم الباطل، ويجملهم تترهت ذاته فيكونون حقا، والحق يشهد الحق، وهذا رجوع أهل محبة الله . أما رجوع أهل المقامات الأخرى فبالموتة العزرائيلية حيث تنكشف الحقائق والغيوب، فمنهم من يرجع إلى الحشر والنشر والحساب .. ومنهم من يرجع إلى الجنة بغير حساب .. ومنهم من يفر طائرا بأجنحة إلى العلى تعالى حيث مقعد صدق، أو الرضوان الأكبر أو مشاهدة الوجه العلى العظيم . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ [إن الله تعالى يخلق لطائفة من أمتى أجنحة يطيرون بها من قبورهم ، فتتلقاهم الملائكة فيسألونهم : هل وردتم النار ؟ فيقولون : ما رأينا نارا . فيقولون لهم : هل مررتم على الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطا . فيقولون : من أمة من أنتم ؟

فيقولون : من أمة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ فيقولون : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : ما كانت لنا أعمال . كنا إذا خلونا لا نعصى الله تعالى، وكنا نرضى من الله بالقليل، فتقول الملائكة : بخ بخ) قال تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة)[1] والمصير يعنى الإياب والرجوع والعودة .

قوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦)

﴿يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾

ورد أن جبريل قال لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ إن الله أعطاك هذا الخير الكثير فارعه . فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) جوابا لجبريل ... وقال عليه الصلاة والسلام سائلا الله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلخ السورة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يكشف عنا حجابا كنا فى غفلة عما وراءه، وهو أنه فتح لنا باب الدعاء منه، ليجملنا بكمال التبتل والتضرع والتملق لحضرته العلية، وهو العمل الذى ينبغى أن يكون العبد عليه أمام سيده ومولاه جل جلاله وهو مخ العبادة . (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) هذه الآية جاءت شفاء لما ألم بالقلوب من الفزع الذى ألم بها عند سماع قوله تعالى : (و إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)، وهذه الآية قد طمأنت القلب، فإن القلب كثير التقلب فيما يلائمه، كثير الحرص على نيل شهواته، حتى لا يكاد يفارقه هذا الشغل، فإذا كان الله يؤاخذنا على تلك الهمم واللمم والخواطر والواردات هلكنا ولامناص، حيث رفع الحرج ومنحنا الوسعة فى دينه فعفنا عنا فيما لا

---

(١)سورة الأنبياء الآيات ١٠١ – ١٠٣ .

طاقة لنا على الخلاص منه ،مما يلم بنفوسنا وجعل تكليفه الذى يكلفنا به على قدر ما نطيق من الأعمال والأقوال مما نقوى عليه، فذلك فضل من الله عظيم .

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾

لها ما عملت جوارحها من البر والتقوى والأعمال الصالحات .

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

أى عليها عمل جوارحها من السوء والفحشاء والمنكر، ولا يقع ذلك إلا باختبار . أما غير ذلك مما عفا الله عنه من واردت النفوس وخواطرها، ومما أكرهنا عليه، ومما يقع منا فى سهو ونسيان، كمن أكل فى نهار رمضان ناسيا أو ساهيا فإنه لا إثم عليه، ولذلك يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ . أى لا توقعنا فى المؤاخذة بأعمالنا التى نعملها نسيانا .

و النسيان نوعان : نسيان أهمال وتساهل وفقد مراقبة، وفيه شهوة داعية دافعة، وهذا نؤاخذ عليه ولا شك ،ونسيان عجز عن القيام بالعمل، أو نسيان للحكم مع تمكن العادة، أو اعتقاد بأن هذا العمل مباح أو مندوب أو حلال فعمله وظهر أنه غير ذلك أن يكون متساهلا ولا مدفوعا بعامل شهوة أو حظ أو هوى، فهذا مما لا يؤاخذ الله فيه لأن الله جعله عفوا .

و الخطأ نوعان : نوع خطأ مخالفة للصواب مع إهمال وتساهل وحرص على عمله وهذا نؤاخذ عليه ولا مناص، ونوع خطأ يحصل للإنسان مخطئا فى عمله غير قاصد الخطأ ولا متساهل ولا مهمل، وهذا لا يحتاج إلى مؤاخذة عليه أيضا .

و المعنى ربنا لا تؤاخذنا إن وقعنا فى المخالفة ناسين أو مخطئين، أما الوقوع فى المخالفة بنسيان حقيقى وخطأ حقيقى كما بينت لك فليس هذا بإثم وهو مما يعفى عنه .

﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾

هذة الآية دعاء لابتغاء دفع ما يكون عليهم بعد، كما أن الآية السابقة دعاء لمغفرة ما وقع . ومعناها أننا نسأل الله تعالى ألا يحملنا مالا نقوى على تحمله من العهود والأحكام، فإن إصرا بكسرالألف معناه لغة : الثقل والعبء والعهد والأحكام والمواثيق .

﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾

هم اليهود والنصارى، فإن الله حمل اليهود عبئا ثقيلا فكان الرجل إذا سرق سرقة كتب على بابه إن فلانا سرق وعليه أن تقطع يده، فلا يمحى حتى تقطع يده، وإذا تنجس ثوبه أو جسمه لا يطهر حتى يحرق المتنجس بالنارأو يقطعه ولو من جسمه، وحملهم أن لا يأكلوا الشحم ولا الحوايا ولا ما اتصل بعزم، وحملهم أن يصلوا إلا فى معابدهم، وألا يعملوا يوم السبت عملا، وحمل النصارى مثل ذلك، فحظر عليهم أمورا كثيرة وأمرهم بتكاليف شاقة تقربا إلى الله تعالى، ولكنهم أهلكهم الله تعالى جميعا لمخالفتهم، وقد أخبرنا الله تعالى عنهم بذلك ،فنحن نلجأ إلى الله تعالى فى أن يدفع عنا الحرج، وأن يمنحنا الوسعة فى ديننا، وأن يعيننا حتى نقوم له بما يحبه ويرضاه .

﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾

أى لا تكلفنا بعمل أو ترك لا تطيقه نفوسنا .

﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾

أى امنحنا العفو، وهو الفضل الذى تبدل به سيئات حسنات، (و اغفر لنا) أى استر ذنوبنا، وعيوبنا عن جوارحنا ومعالمنا من الأرض، وعن الملائكة حتى نلقاك يوم القيامة وليس علينا شاهد بذنب، ولا يعلم خطايانا وسيئاتنا إلا أنت، وأنت الغفور الرحيم الذى ستر علينا فى الدنيا وما سترها علينا فى الدنيا إلا ونحن على يقين أنك تغفرها يوم القيامة . (و ارحمنا) والرحمة اسم جامع لكل الخيرات، أى امنحنا التوفيق لطاعتك ،والمسارعة إلى الإقبال عليك، والوسعة فى أرزاقنا حتى تغنينا عن شرار خلقك، والصحة فى أبداننا حتى تسكن نفوسنا إليك، يا منفسها غير مشغولة بالآلآم، والأمن فى أوطاننا حتى لا يلفتنا عنك ظلم ظالم، ولا قهر قاهر ،ولا خوف معتد .

﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾

و المولى هو السيد الذى بيده ملكوت السموات والأرض، ملجأ الخلق، الغنى عن سواه، المفتقر إليه كل من عداه وهم يقولون أنت ولى أمورنا تتولانا بما شئت من فضل وجمال وإحسان، ونحن نسألك كل شىء حتى ملح قدورنا، وشسع نعالنا، كما نسألك رضوانك الأكبر .

﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

أى أظهرنا عليهم واقهرهم لنا، وتفضل علينا بأن يكون قهرهم بنا، وفى الآية إشارة بأن القوم الكافرين هم الطبع الخبيث والنفس الأمارة بالسوء والحظ والشهوة وهم أكفر الكافرين قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك]، وقال عليه الصلاة والسلام : [رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس] وقد ورد فى هذه الآية أحاديث كثيرة نورد بعضها هنا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إلخ الآية قال : قرأها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلما انتهى إلى قوله: (غفرانك إنك ربنا)، قال الله عز وجل : قد غفرت لكم فلما قرأ (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، قال الله عز وجل : لا أحملكم، فلما قرأ قوله : [واغفر لنا] قال الله تبارك وتعالى: قد غفرت لكم، فلما قرأ [وارحمنا] قال الله عز وجل : قد رحمتكم، فلما قرأ (فانصرنا على القوم الكفرين) قال تعالى : قد نصرتكم عليهم . وفى رواية أخرى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إلى قوله : (غفرانك) قال : قد غفرت لكم . (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى قوله : (لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، قال : لا أؤاخذكم (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال : لا أحمل عليكم إلى قوله : (و اعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا) إلخ السورة، قال : عفوت عنكم، وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين .

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿آلم (١) اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾

قوله تعالى (آلم)

تقدم الكلام عليها فى أول سورة البقرة ولكنا لا نخليها فى هذا الموضوع من فائدة . معلوم أن آيات القرآن فيها المحكم والمتشابه، وقد أخبرنا الله أن المتشابه لا يعلمه إلا الله على الوقف عند لفظ الجلالة والابتداء بقوله : (و الراسخون فى العلم)، فحظر الله على العلماء الراسخين أن يعلموا تأويل المتشابه من القرآن، وللعلماء الحق فى قولهم عند تفسير تلك الآيات المتشابهة ((الله أعلم))، ولكن الصحابة فتحوا لنا باب الفهم فى هذا المتشابه، فصح أن تسوح الروح فيما يمكن أن يعلمه الإنسان بإلهام الله فيها، وقد بينت لك أنها مقسم بها، وأن كل حرف منها دال على اسم من أسماء الله تعالى . فالألف دلت على (أنا)، واللام دلت على (الله)، والميم على (الملك) ،فكأن الله يقول أقسم بى أنا الله الملك ... والمقسم عليه (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) بدليل ما ورد عن على عليه السلام أنه كان يقول : ياكهيعص، ويا حمعسق . عند الدعاء . كما يقول : يا ألله يا رب . ولك أن تقول إن الله أراد أن يعجز العقول عن إدراك الآيات المتشابهات وهى ألفاظ عربية ليقف العقل خاسئا وحسيرا عن أن يبحث عن ذات الله، أو عن أسمائه وصفاته كنها وحقيقة، فإن العاجز عن أن يعلم كلاما غريبا لمتكلم . كيف يعلم حقيقته وكنهه، وعندى أنها رموز لكنوز الغيب المصون، وأن تعلم أن للألوهة سرا لو ظهر لا نمحق الكون، فكذلك للقرآن سر على قد يليح الله منه نورا يسطع على من اصطفاهم لحضرته العلية، فيشهدون ما يفرون به من أنفسهم ومن كونهم إلى الله تعالى كما قال سبحانه: (ففروا إلى الله) .

﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

سبب نزول هذه الآية أن وفدا من نصارى نجران وفدوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليناظروا فى الدين، فلما جلسوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذكروا المسيح وأقاموا حججهم الواهية على أن المسيح هو ابن الله تعالى، أو هو الله، أو هو أقنوم من الأقانيم

الثلاثة بأدلة أنه كان يحيى الموتى، ويبرىء الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ويخبر عن المغيبات من الأمور التى لا يفعلها إلا الله تعالى، فقال لهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أقام به الحجة عليهم وهو قوله عليه الصلاة والسلام : [ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلاوهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علمه الله ؟ قالوا : لا . قال : فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب، قالوا : بلى، قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، وغذى كما يغذى الصبى، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟ قالوا : بلى، قال : وكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا]، فأنزل الله تعالى إقامة للحجة عليهم من أول هذه السورة إلى بضع وثمانين آية كلها حجج قاطعة تقصم ظهور أهل النصرانية . (الله لا إله إلا هو)

تقدم الكلام على الاسم الأعظم . وقوله : (لا إله إلا هو) أفرد ذاته تنزه وتعالى بالألوهة دون غيره، وانفرد سبحانه وتعالى بالإيجاد والإمداد والخلق والرزق، وجعل من سواه وما سواه عبيدا مقهورين ،وعبادا مربوبين، أقام دلائل ألوهته واضحة جلية بما انفرد به من الغنى المطلق عما سواه، وعمن سواه، وبنزاهة ذاته العلية عن الشبيه والنظير والضد والند والولد والوالد، وقصم ظهور الخلق بما أقامه من الحجج عليهم أنهم يتغيرون، وتجرى عليهم المثنوية فى كل أنفاسهم وآناهم وأطوارهم، فترى الإنسان بين غنى وفقر، وشباب وشيب، وصحة ومرض، وحزن وفرح، وعسر ويسر، وحياة وموت، وقوة وضعف، فلا تفارقهم المثنوية نفسا ،وترى الواحد منا تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنة العرقة، ويرى أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، كل تلك الحجج القوية قهرته رغم أنفه أن يكون عبدا لرب البرية، فانفرد كل مخلوق بالعبودية والقهر، وانفرد سبحانه بالربوبية والنزاهة، قال سبحانه : (إن كل من فى السموات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبدا) [١] فثبت بالحجة البالغة فى قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو) لا أقول حجة يحتاج العقل إلى البحث عنها، بل حجة محسوسة ملموسة، توقع الإنسان فى الضرورة التى عند إحاطة الضرورة به يلجأ بقوة إلى الله، لاأقول الإنسان بل والحيوان . وأقام الحجة العقلية الصريحة

(١) سورة مريم آية ٩٣

الجلية بقوله سبحانه : (الحى القيوم) . والحى الذى يدوم بقاؤه فلا ينقطع، ويمنح الحياة لكل كائن بعد أن لم تكن له حياة، بل وبالحياة يجب الاعتراف باتصافه بما يترتب على الحياة من سمع وبصر، وكلام وعلم، وإعطاء ومنع . (القيوم) يعنى القائم بنفسه الغنى عن المكان والزمان، والوكيل والمعين القائم به كل شيء . من قام به الكون منتسقا منتظما من العرش إلى الفرش، وما حواه من الأنواع التى لا تحصى ولا تعد، بل لو أن العقل بذل نهاية جهده، وغاية مجاهدته، وأعظم رياضته لتنكشف له حقائق ذرة من الثرى كيف كونت، ومما كونت، وما فيها من الخواص لعجز . فكيف به إذا نظر إلى الأجواء والأرجاء وما فيها من الهواء البليل العليل، والحيوانات التى لا تحصى، بل وإلى الحيوانات الصغيرة التى تقل عن سن الإبرء، وقد جمع الله لها أعينا وفما وأنفا وآذانا وأرجلا وبطنا ومعدة، وجعل لها رزقا تتناوله وهى أصغر من سن الإبرة لا تكاد ترى إلا بالنظارة المعظمة، ويعجز الإنسان عن أن يدرك حكمة إيجاد تلك الحقائق، وكيف تولاها جل جلاله، وأقامها بقيوميته، فكيف إذا نظر العقل إلى ما فوق ذلك من أفلاك ثابتات، وأخرى جاريات، وأفلاك مكبرات مهللات، أو إلى ما فوق ذلك من أرواح آلهة هائمة فى جلال الله ،و إلى ما فوق ذلك من كرسى محيط بالعالم، وعرش الكرسى فيه كحلقة أو كحصاة صغيرة فى صحراء، ولو نظر إلى ما فوق العرش حيث لا خلاء ولا ملاء من عالم الصفا لارتد خاسئا وحسيرا، وهذا منتهى حدود الكون الذى خلقه الله . فكيف لو نظرنا إلى تجليات الأسماء، وإلى ظهور الصفات فى طى الآيات، فسبحان من لا إله إلا هو الحى القيوم . وفى ذلك قصم ظهر للنصارى الذين يقولون المسيح بن الله، تنزه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (٣

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

فقوله (نزل) دليل على أن القرآن نزل نجوما بحسب الأحداث التى تحدث، لأن (نزل) على وزن فعل مشدد العين يقتضى نزوله شيئا فشيئا، بخلاف قوله تعالى (و أنزل التوارة والإنجيل) فإن الإنزال يكون دفعة واحدة . . والكتاب هنا القرآن المجيد، و(بالحق) خبر من الله تعالى أنه نزل بالحق، فلم تشبه شائبة اختلاف فى عقيدته، ولا فيما ورد فيه من العبادة

والمعاملة والأخلاق والقصص والأخبار، والجليل على ذلك قوله تعالى : (مصدقا لما بين يديه) لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولد فى جاهلية عمياء صماء، لا علم لها بالكتب ولا بالدراسة، وكونه أتى بكتاب مصدق لما نزل من الكتب السابقة، وهو فى تلك الجاهلية العمياء الصماء التى لا عهد لها بدراسة علم، ولا بيان خبر من الكتب السماوية، دليل قاطع أنه من عند الله، لأنه لو لم يكن من عند الله كيف يأتى به رجل عاش بين الجاهلية، ولا عمل له إلا أنه كان يرعى غنما لبنى هاشم بملء بطنه خبزا، وما خرج من مكة إلا مع عمه أبى طالب فى تجارة له إلى الشام، فكان يخدم رواحلهم، ويعد أكلهم وشربهم، ثم خرج وكيلا لخديجة فى تجارة لها إلى الشام، وهو مشغول الجسم والقلب فى عمل التجارة، فرجل يمضى عمره بين راع للغنم ،ووكيل فى تجارة، وهو فى حاجة إلى القوت الضرورى، كيف يأتى بهذا الكتاب الذى كله غيب من غيب فى غيب، ويخبرنا بما كان من آدم إلى حينه ﴿ ﷺ وآله﴾ وما يأتى بعد إلى يوم القيامة، وكم فى القرآن من خبر عن المغيبات فى الحاضر والمستقبل، وفى قوله : (مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب الموجودة فى أيدى اليهودى والنصارى التى أنزلها الله على موسى وعيسى، وهى بأيدى معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾

أتى هنا بقوله : (أنزل) أى فيما سبق، لأن التوارة والإنجيل (نزلا) دفعة واحدة، قال تعالى : (و كتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة) (1) والتوارة بحسب لغة العبرانيين يعنى الضياء على لغة طيىء فإن التوارة ما يلمع من الزند إذا ضرب بالحجر، والإنجيل باللغة السريانية الأصل .

قوله تعالى : ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٥

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

(من قبل) أى من قبل إنزال الكتاب على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، جائز أن يكون هدى للناس خبرا عن التوارة والإنجيل، ويكون المراد تأليف نصارى نجران، لأنهم يعتقدون التوارة والإنجيل هدى، وهى الحكمة التى يجب أن يكون عليها الأنبياء وورثتهم، حتى لا ينفروا من يدعوهم إلى الله، وجائز أن يكون (هدى) خبرا عن التوارة والإنجيل والقرآن، ورعاية النظم أولى، فإن قوله (بالحق) كفاية أن يدل على أنه هدى وزيادة .

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

و الفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، ولك أن تقول التوارة والإنجيل والقرآن، ولك أن تقول الفرقان هو القرآن، وأعاد ذكره هنا ليبين لنصارى نجران أن الذى من عادته إنزال الكتب ليس مستحيلا عليه إنزال ما أنزل، فأنزل الفرقان هداية كما أنزل التوارة والإنجيل على موسى وعيسى، وهو الذى اصطفاهما، واصطفاهما لنفسه وهو القادر أن يصطفى محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ وينزل عليه كتابا مهيمنا على التوارة والإنجيل، ويخصه بما لم يخص به موسى وعيسى عليهما السلام ،وكل هذه الآيات حجج قاصمة لظهور نصارى نجران . وإن كانت تلك الآيات خاصة لنصارى نجران إلا أن أحكامها عامة لقصم ظهور اليهود والنصارى .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

افتتح الله عز وجل الآية بحرف التوكيد، تقوية للخبر، وجعل الجملة اسمية توكيدا بعد توكيد ،و(كفروا) أى ستروا عن قبول آيات الله التى كشفت الحجاب عن الحقائق، وأعجزت العقول عن ردها، أو دفعها بحجة أخرى، وكان الواجب عليهم بعد سماع تلك الآيات أن يؤمنوا برسله وبكتابه، ولكن الله تعالى سجل عليهم الخلود فى النار، فلم يقبلوا بعد قيام الحجة، ووضوح المحجة، ولذلك يخبرهم جل جلاله بقوله : (إن الذين كفروا) أى نصارى نجران ومن والاهم، ويهود خيبر وقريظة وقينقاع والنضير الذين عاصروا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فكفروا بالله ورسوله بعد بيان الآيات، وآيات الله هى الحجج القرآنية، وبيانات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لتلك الحجج التى يعلمها أكثرهم من الأحبار والرهبان،

ويمنعهم عن الإيمان بها حرصهم على الأعراض الفانية ،والسيادة الكاذبة . (لهم عذاب شديد) خبر إن وهو الحكم عليهم . وفى قوله (لهم) إشارة إلى الخلود، لأن العذاب صار كأنه ملازمهم ومصاحبهم لا يفارقهم، كما أن الإنسان لا يفارق ما له من جارحة ومال وعقار . (شديد) من الله تعالى كلمة تذيب الأحشاء، وتدك الجبال الراسية، لأن (شديد) من العبد القادر مؤلم جدا فكيف بها من الله ؟ لا تفى عبارتى ببيان هذا العذاب الشديد، ولكنى أقول : إن الأمر فوق أن يتصوره العقل ،ومؤمن يسمع الله يهدد من كفر بالله بهذا العذاب الشديد كيف يتذوق الطعام متلذذا ؟ أو النوم مستريحا ؟ اللهم إنا نعوذ بك من الوقوع فيما يوجب عذابك الشديد .

﴿وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

أى ذو قوة وبطش فى انتقامه، فالعزة هى تنفيذ الأقدار بجبروت وقهر وبطش وقوله : (ذو انتقام) أى ذو نقمة لأنه المنتقم . وفى هذه الآية أشد التهديد، والمراد بها نصارى نجران الذين أبوا قبول بيان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى المسيح ومكانته .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ (٥)

لما كان خبر الله تعالى عن الغيب المصون مما يتعسر على العقول قبوله، ناسب أن يفتتحه بالمؤكدات ليتشوف العقل إلى ما بعد التوكيد، فيستقبله مهما صعب عليه قبوله، فقال: (إن الله) وقد تقدم لك معنى الاسم الأعظم . وقوله (لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء)، الكون كله ألواح سطرت الحقائق فيها آيات مقتضى الأسماء والصفات، ولكل اسم من الأسماء الإلهية كمال ومقتضى، فكماله حقيقة لا يعلمها إلا الله ،ومقتضاه ظهوره فى المظاهر، فاسم الله (العليم) له الحيطة العلمية بالواجب والجائز والمستحيل كليا وجزئيا، وإن أنكر بعض من لم تنفق منهم عين البصيرة من العلماء فأنكروا أن الله لا يعلم الجزئيات إلا بعد إحداثها، وبذلك حكموا أن علم الله حادث وقديم، وكذبوا، فإن علم الله تعالى أحاط بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه ،وأحاط بالأكوان قبل إيجادها وإمدادها، حيطة انكشاف فى الأزل الأول على ما هى عليه فى الأبد الآن، حتى صرح بعض العارفين أن الأزل انطوى فى الأبد، فلا يراهما إلا واحدا، وعلى ذلك فصدق الله العظيم فى قوله : (لا

يخفى عليه شيء) دق أو جل، صغرا أو كبر فيما دون العرش من الكون العالى فالأعلى فالوسط فالسافل فالأسفل، فهو يعلم جل جلاله دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة السوداء، ويعلم ما أخفى من ذلك، بل يعلم ما توسوس به النفوس، ويعلم الحركات والسكنات والإرادت والهمات . ومن أنكر أو ارتاب فى شيء من ذلك ضعف إيمانه .

و قد بينت لك أن الكون مقتضى الأسماء والصفات، فما من مقدور كان أزلا أو حدث من ظاهر الأعيان إلا وهو معلوم لله قبل إبارزه على ما هو عليه، فهو يعلم سبحانه مجلسنا هذا الآن، كما يعلمه على ما هو عليه فى الأزل لم تتغير الحقائق . والوجود بأسره صورة الحقائق التى فى علمه تعالى، وجهل مراقبة العلم الإلهى حجاب كثيف يوقع السالكين فى مهاوى الهلكة . وقد بين الله ذلك بقوله : (ما يكون من نجوى ثلثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) [1]. ومن شم عبير شذا المعية يطمئن قلبه، وينشرح صدره، ويخنس منه الشيطان الرجيم، قال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) [2] . والمراد من الأرض العالم السفلى، لا فرق بين جماده ونباته وحيوانه، أو أناسيه وشياطينه، والمراد بالسماء العالم العلوى، لا فرق بين الكواكب وأنواعها، والأملاك بجموعها، وتبتلها، والأرواح العالية من الآلهين والكروبيين والحائرين فى جلال الله تعالى، وما فوق ذلك من عوالم الأرواح النورانية، والجواهر الربانية، وما فوق ذلك من سواطع أنوار الجمال والجلال، وقهرمان الجبروت واللاهوت، وأنوار مجلى كمال الذات، وإلى هنا وقفت عيون الكشف، وسبحان من لا يعلم قدره غيره، ويبلغ الواصفون صفته .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٦)

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

(١) سورة المجادلة آية ٧

(٢) سورة الحجر آية ٤٢

جملة منفصلة لفظا مرتبطة بها معنى، لأنها حجة قاصمة لظهور نصارى نجران، وقوله تعالى : (يصوركم) أى يجعلكم فى صورة بعد صورة، حتى تقوموا فى أحسن تصوير، صورة له سبحانه، فمن نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام، ثم كسا العظام لحما، بيانا لعجائب قيوميته التى قومت تلك الأطوار . وعيسى بن مريم كان كذلك ،ومن تصور تلك الصور فى رحم أمه كيف يكون إلها ؟ وإنما الإله الحق من صوره فى رحم أمه وقلبه تلك التقلبات :(فى الأرحام كيف يشاء)، الجار والمجرور متعلق ب (يصور) . والأرحام جمع رحم، والرحم معلوم، وهو مأخوذ من الرحمة، لأن به يحصل التعاطف والتراحم والتواد، (كيف) ظرف للتصوير، أو حال منه، أى أن تصوير العبد فى بطن أمه معمول للمشيئة، فقد يشاء أن يكون أبيض أو أسود أو أحمر أو حسنا أو قبيحا أو شقيا أو سعيدا أو غنيا أو فقيرا بحسب مشيئته، كما خصصته إرادته فى حضرة علمه .

و قد ورد أن الملك يقبض النطفة فى يده وينادى ربه فيقول مخلق او غير مخلق ، ما عمره ؟ وما رزقه ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله تعالى فيه بما يشاء . وفى تلك الآية إشارة إلى أن العبد يجب عليه أن يجاهد نفسه كمال المجاهدة، لينال رضا الله عنه برضاه عن الله، فإن أعظم مقام عند الله تعالى هو مقام الرضا عن الله . ومتى رضى العبد عن الله أعطاه أول عطية وهى كلمة (كن)، ثم أفرده سبحانه بالقرب دون غيره، ومتى قرب الله عبدا وخاطبه أعانه على ما يحبه الله منه، فكان فردا من أفراد الوجود، أو بدلا من أبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام أو صديقا .

و قد قصمت هذه الآية ظهور وفد نجران الذين كانوا يجادلون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن بين لهم تلك الحقائق ولم يرد الله تعالى أن يهديهم للإسلام : (من يهد الله فهو المهتد) [(١)] .

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

حجة تلو حجة، قاصمة لظهور من جحد بالله، أو جعل له شريكا أو ولدا، وهى وإن أتت فى سياق الحجة على وفد نجران لكن حكمها عام لا يخصص بسبب . (لا إله إلا هو) نفى

---

(١)سورة الكهف آية ١٧

الألوهة عن غيره سبحانه نفيا بصفة القصر الحقيقى، ليكمل إيمان أهل الإيمان أن الألوهة خاصة بالله تعالى لا تتعداه إلى غيره ... وقد بينت لك فى الآية السابقة معنى : (لاإله إلا هو) فثبت أن كل مخلوق فى العالم من العرش إلى الفرش أبدعه سبحانه من العدم ثم كثرة بالتوالد أو بالفقس أو بالفصل أو بما شاء، إلى أن تصل الحقائق إلى كلمة (كن) من قوله سبحانه : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [١]، وقوله تعالى (و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) [٢]، فإن قوله (لا إله إلا هو) من قصر الصفة على الموصوف . منحنا الله اليقين الحق . (العزيز الحكيم) أى القوى القهار فى تنفيذ مشيئته، فإن العزة هى القوة والقهر كما بينت لك، و(الحكيم) الذى يبدع الأشياء بحكمه قد يعلمها الخلق، وقد لا يعلمها، يعنى أن ألوهيته سبحانه التى هى خاصة به دون غيره لا ينازعه فيها سواه، لعزته تعالى وحكمته .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ (٧)

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾

جملة مستأنفة مفصولة، وهى فى نسق الاحتجاج على وفد نجران، وفى قوله : (أنزل) بيان للاحتجاج بأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ جاءه كتاب من عند الله، وفى الآية الأخرى التى قبلها قوله تعالى : (نزل) كما بينت لك يبين سبحانه أنه نزل الكتاب نجوما بحسب مقتضيات الأحداث ... (أنزل عليك الكتب) أى أنه سبحانه من عادته أن يترل الكتب فلا حرج عليه أن يترل على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ كتابا، وما هو العجب الذى يكون فى إنزاله الكتاب على حبيبه ومصطفاه ؟ ! ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد أنزل على موسى وعيسى التوارة والإنجيل .

---

(١) سورة يس آية ٨٢

(٢) سورة القمر آية ٥٠

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

(منه) جار ومجرور خبر مقدم و(ءايت) مبتدأ مؤخر، وفى الآية ما يلفت القوى المفكرة إلى البحث فى حكمتها ليصل بها إلى مقصد يناسب الآية بحسب مترلتها، و(محكمت) أى بينة الحكم لا تحتاج إلى تأويل، متى أنزلت وتليت على السامع وكان محيطا بعلوم تأويل اللغة ومتنها وأساليب فطاحلها، ظهر له جليا من غير تردد ولا شك (هن) هذا الضمير يعود إلى الآيات و(و أم) الشيء أصله . وفى قوله : (أم) خلاف بين العلماء فمنهم من قال حكمة تفريدها مع جمع الآيات أن الآيات جميعها، بل وكتب الله المترله كلها (أم) أى أصل لجميع العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، بل وأصل شامل لأخبار الأنبياء والملوك والأمم، ومبين للغيب المصون من يوم القيامة وما بعدها، ومفصل لمجمل المعاملات والأخلاق والأحكام الشرعية، وغير ذلك من الآداب الفاضلة، ولذلك أتى بلفظه (أم) أى أصل شامل لكل تلك الكتب، ولو كان المراد بيان كل كتاب وكل آية لقال : (هن) أى المحكمات من الآيات (أمهات)، فظهر أن المحكم إنما أنزله الله تعالى أصلا لما به صلاح العالم فى الدنيا والآخرة، وإن كانت الآيات المحكمات بعض كل كتاب ... (الكتب) اللام هنا جائز أن تكون للجنس فيكون الموصوف بها كل كتاب أنزله الله تعالى، أو تكون للعهد ويكون المعهود هو القرآن الكريم .

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

(وأخر) جمع أخرى للمؤنث التى مذكرها آخر، ولا يؤتى بهذا اللفظ إلا لما اتحد نوعا، فلا يقال جاء زيد وحمار آخر، ولكن يقال جاء ورجل آخر، وقوله : (أخر) يعنى وآيات أخر، (متشبهت) يعنى انهن متحدات فى اللفظ، مختلفات فى المعنى .

و المتشابه من الآيات هو المنسوخ، والمحكمات هى الناسخ . والمنسوخ قد ينسخ لفظا وحكماً، وقد ينسخ حكما، ويثبت لفظا فيتلى . وجائز أن يكون المتشابه ما كان معناه فوق مقدار العقول البشرية كأوائل السور وما أشبهها، مما يستحيل أن يكون معناها ما دلت

عليه ظاهرا، فإن ذلك لا يقبله العقل كما فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [١]، أو (يد الله فوق أيديهم) [٢]، أو معنى المعية أو سر العندية وما يتصل بذلك مما يتذوقه أهل مقام الإيقان ، شمياً مع كمال الأدب فى مقام العبودية أو العبادة أو العبودة فإن لكل مقام أدباً مخصوصاً من تجاوزه هلك، والمقام مقام نجاة وفوز برضوان الله الأكبر وهذا هو المتشابه على القول بالوقوف عند قوله تعالى : (و ما يعلم تأويله إلا الله)، وتكون جملة : (و الراسخون فى العلم) مستأنفة، ولك أن تقول : المتشابه ما خفى معناه عن مقدار العقول، فلا يلوح إلا لأعين الأرواح وآذانها ،ولا يكون ذلك إلا بعد التزكية، قال تعالى : (قد أفلح من تزكى) [٣]، وقال تعالى : (قد أفلح من زكاها) [٤]، وعلى ذلك تكون جملة : (الراسخون فى العلم) معطوفة على قوله : (و ما يعلم تأويله إلا الله)، ويكون الرسوخ فى العلم هو المسارعة إلى الجهاد الكبر فى ذات الله تعالى، حتى يزول البين من البين وينمحى من على جوهر النفس سحاب الرين، فتقع العين على العين . لأن الإنسان يكون بتطهيره من ثوب هذا الوجود كائنا حقا، والحق يشهد الحق، فإنه لا يشهد الحق سبحانه باطل كما لا يشهد الباطل حق . وإنك تعلم أن الله خلق الدنيا ولم ينظر إليها، كما أنه سبحانه لا يعلم أن عبدا ذليلا اسمه فرعون إله فى الأرض . ولكنه يعلم أن فرعون أضل من البهائم وأذل من التراب، وإن ادعى الربوبية فليس لدعوته حقيقة .

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

قوله تعالى : (فأما) تقتضى تفصيلا وحكما على أنواع، وهو كذلك، لأن الله بين أن الآيات قسمان : قسم محكم، وقسم متشابه، فبدأ بالمتشابه فقال : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) والزيغ هو الميل عن الحق ،والعدول عنه، والزوال عنه، وهم أهل النفاق، أو أهل الباطل ، وزاغ ومال وزال بمعنى واحد، ولكن امتازت زاغ بأنها إلى الباطل والميل عن الحق.

---

(١) سورة طه آية ٥

(٢) سورة الفتح آية ١٠

(٣) سورة الأعلى آية ١٤

(٤) سورة الشمس آية ٩

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾

و معنى يتبعون أى يلازمونه ويهتمون به دون غيره، والمتشابه منه كما قررت لك يستحيل أن يؤخذ بظاهره ،لأن ظاهره خلاف ما يريده الله تعالى، والآخذ به إنما يريد الفتنة، وأهم الفتن المال، فهو يستعمل علمه لنيل شهوة الدنيا وما لها ونيل الشهرة والسيادة . ورجل جاهل بآداب العلم والعلماء وهذا يتخبط خبط عشواء لم يقع به العلم على عين اليقين ولم تجذبه العناية فيلزم الأدب بعد شهود الحضرة ... وكلا الرجلين فى قلبه زيغ أى ميل عن الحق، والضمير فى (منه) راجع إلى الكتاب .

﴿ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ﴾

(ابتغاء الفتنة) أى يطلبون فتنة الناس فى أموالهم، فيبذلونها لهم بعد حسن الظن بهم، أو فيما لديهم من التأييد والنصرة . (و ابتغاء تأويله) أى مبتغين تأويله إلى ما يلائم هواهم وحظهم، غير مبالين بمراد الله الذى وعدهم الله فيه بنيل رضوانه الأكبر، والفوز بالفردوس الأعلى، (يوم لا ينفع مال ولا بنون) [1] والتأويل هو التفسير الحق . ولك أن تقول مأخوذ من الأول يعنى رجوعه إلى حقيقته .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾

جملة تفيد القصر وهو قصر الصفة على الموصوف فلا تتعداه إلى غيره، وإن تعداها الموصوف إلى غيرها فهو يعلم تأويل كتابه المتشابه، ويخلق ويرزق ويحيى ويميت ويهدى ويضل . ويجب الوقوف على قوله (إلا الله) .

إذا قررنا أن المتشابه آيات أنزلها الله ليقيم الحجة على العقول أنها عاجزة عن فهم كلمات ركبت من حروف عربية، فإذا عجزت العقول عن فهم كلمات ركبت من حروف عربية كيف تنفذ من أقطار السموات والأرض حتى تدرك رب البرية ؟

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٨

فما علينا إلا أن نقول سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، ونقول : (و ما يعلم تأويله إلا الله) والله تعالى يختبر عباده . فأما الراسخون فى العلم فيقولون آمنا به أى بالكتاب كله ناسخه ومنسوخه محكمه ومتشابهه، وأما أهل الزيغ الذين زاغت قلوبهم أى مالت إلى الباطل فإن أنفسهم الأمارة بالسوء وطباعهم الخبيثة تدعوهم إلى التروع إلى ما تشتهيه تلك النفوس اللقسة، وتميل إليه تلك الطباع الخبيثة، فيتأولون كلام الله بما لا يليق بمراد الله فيه ،كما قال تعالى : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (١) ، والراسخون فى العلم هم الذين صدقت ألسنتهم وعفت بطونهم وفروجهم، وهم أهل الوفاء بعهودهم .

والعلم هنا هو العلم الشرعى الذى يمكن فيه الرسوخ لأنه دليل على عناية الله بالعبد من حيث العقيدة الحقة والعبادة والمعاملة والخلاق الجميلة، وكل حقيقة من تلك الحقائق لا يستطيع المسلم أن يقوم بها إلا بعد تحصيل العلم، لأن العقول لا يمكنها أن تنفذ من أقطار السموات والأرض حتى تصل إلى حضرة العليم فتتعلم، حتى تتجرد من البشرية ومن مقتضايتها، وذلك لا يكون إلا بسابق العناية الإلهية التى لا يطيقها الإنسان ، ومعلوم أن النبوة لا يمكن أن تنال بجهاد ولا بعلم ولا بعمل، وإن ادعى ذلك من لاخلاق لهم من فلاسفة اليونان ومتفلسفى المسلمين .

قلت لك المراد بلعلم هو العلم الشرعى الذى يمكن الرسوخ فيه ليعمل به المسلم، وليفوز بعد العمل به بعلم ما لم يكن يعلم تلقينا لا رواية، قال : ﴿ ﷺ وآله﴾ [من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم]، وقال سبحانه : (و اتقوا الله ويعلمكم الله) (٢)، ولا تكون التقوى إلا بالعلم الشرعى الذى يحصله المسلم، أما ما يعلمه الله من بعد التقوى فذلك هو العلم الإلهى الذى يكون تلقينا أو بالتجلى أو بإشراق الأنوار الغيبية على جواهر النفوس بعد صقلها حتى يتمثل فيها العالم الأعلى، فتنكشف له غيوب عوالم الله الكبرى التى إذا وقعت العين فيها على العين اضمحلت فى عينه الدنيا، وتضاءلت الآخرة فراراً إلى الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٢

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٢

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾

الجملة مستأنفة عما قبلها، وهنا يجب الوقف على قوله : (إلا الله)، وإن جاز العطف، ويكون المعنى وما يعلم تأويله من جميع أنحائه إلا الله، والراسخون فى العلم يعلمون بعض تأويله ، تكون جملة (و الراسخون فى العلم) معطوفة على جملة (و ما يعلم تأويله) والذى أعلمه فى هذا الموضوع أن تأويله انكشاف حقائقه جلية لعيون الأرواح بعد تلقيه استظهارا من منزله الفتاح سبحانه . وهذا هو التأويل حقا، ولكن الذين يتلقون هكذا وقد منحهم الله حقيقة تأويله ضنائن الله فى خلقه لا يعلمهم إلا من جذبه الله إليه ليسعده بصحبتهم، وفى سبيل هؤلاء الرجال عقبات شديدة أهمها عقبة النفس الأمارة بالسوء، ثم الهوى ثم الحظ ثم الأمل . فإذا نجا السالك منها وقف له إبليس كما قال تعالى : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) [١] ،فالنجاة فى هذا السبيل حظرعلى من لم يتمكن فى مقام العبادة والعبودية، تمكنا يجعله فى حصن أمن الله بدليل قوله تعالى : (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [٢]، وقوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطن) [٣]، وهؤلاء العباد الذين لا سلطان له عليهم الذين اصطنعهم الله لنفسه، وزكى أنفسهم حتى تصورت جواهر نفوسهم جمال وجلال وبهاء العالم الأعلى، وأشرقت عليهم لوامع جبروت الله تعالى، فغيبتهم عن الوجود الباطل بالوجود الحق .

﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

أى صدقنا به تصديق من أيقنوا أن الكتاب الذى أنزله الله على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ متشابهه ومحمكه (كل من عند ربنا) لا فرق بين المتشابه والمحكم، أى وصدقتنا أن المحكم أنزله الله للعمل به، وأن المتشابه أنزله الله للإيمان به من غير عمل، فأثنى الله تعالى عليهم ومدحهم بأجل الثناء قائلا : (و ما يذكر إلا أولوا الألبٰب) .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦

(٢) سورة الأنعام آية ٨٢

(٣) سورة الحجر آية ٤٢

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

أى ولا تحصل تلك الذكرى التى تنتج استحضار عظمة الله تعالى، فيحصل التسليم بها تسليما يجعل النفس تتصور وتتمثل معانى كلام الله تعالى إلا لأولى الألباب، الذين لهم اللب وهم الراسخون فى العلم ،واللب هو خلاصة الشيء وروحه، وأولوا الألباب أصحابها ومالكوها . وجائز أن يكون قوله : (و ما يذكر إلا أولوا الألبب) من مقول الراسخين فى العلم . وقد بينت لك أن الرسوخ فى العلم جماع أربع صفات : هى بر القسم ،وصدق الحديث، وعفة البطن والفرج، والوفاء بالعهد، وهى خصال الراسخين فى العلم، لأن كل خصلة منها تدل على صفاء وجهة من وجه جوهر النفس، ولا تتم تزكية النفس إلا بتحصيل العلم النافع الذى تتمثل به النفس عظمة هذا الجناب المقدس، وما تقول فى من رسم على جوهر نفسه صورة المعلوم حتى كان معالم بين عينيه كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى الطويل : [حتى أكون معالم بين عينيه لا يغيب إذا غاب الناس ولا يحجب إذا غفل الغافلون ...]

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾

قبل أن نتكلم عن تأويل هذه الآية أشير لك إشارة . تعلم أنه ورد فى الحديث الشريف قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : [من عرف نفسه فقد عرف ربه]، وأهل هذه المقامات يتفاضلون، فأقل مقام من هذه المقامات أن يعلم أن نفسه مكونة من ضد أسماء وصفات الربوبية، فما من اسم من أسماء الله إلا وهو يسمى بضده، ولكن ذلك قد يكون علما وقد يكون شهوداً وقد يتجاوز الشهود حتى يكون وجودا وقد يكون حضورا ومثولا، ونحن الآن نتكلم عن العلم لأن الآية مفتتحة بالراسخين فى العلم، وهذا الدعاء دعاء أهل العلم، وإذا علمت نفسك بمقام العلم أنها مكونة من أضداد الأسماء والصفات، فالله القوى وأنا الضعيف، والغنى وأنا الفقير، والقادر وأنا العاجز إلى آخر الأسماء والصفات، وقد بلغت مقام اليقين فى العلم الذى عرفته قبلا وهو تصور النفس رسوم المعلوم، ولا يكون علما حقيقيا إلا إذا تصورت

النفس رسوم المعلوم، أما ما عدا ذلك من فهم أو حفظ أو حكم بالعقل فليس ذلك بعلم لأن الذى يدركه الحس من المادة مهما كانت المادة سافلة أو عالية يشترك فيه الكافر والمؤمن، فعلم الرياضة الذى يجب أن يكون له فى الذهن وإن لم يكن له مادة فى الخارج تقتضى تحصيله، وعلم النجوم الذى له مادة عالية عن المادة السافلة، وعلم ما فوق المادة مما عظمه أهل الجهالة ممن خرجوا عن الأدب مع الله ورسوله، وتلقوه عن فلاسفة الرومان واليونان والأشوريين والبابليين الذين يسمونه العلم الإلهى وليس بعلم إلهى . كل تلك العلوم لها مصائد هى الحواس الخمس، وكل إنسان ريض نفسه فى أى نوع من أنواع الرياضة يحصل تلك العلوم . أما العلم الذى أثنى الله على أهله فأخبر عنهم أنهم راسخون فى العلم فهو العلم الذى لا يشترك فيه معهم إلا أبدال الرسل ،وأبدال الصديقين، وكل ورثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهو العلم الذى أخبرنا الله أنه يتفضل به على من عمل بعلمه الذى تلقاه عن الرسل عليهم الصلاة والسلام .

إذا تقرر هذا فالراسخون فى العلم على يقين كامل أن الله فوق كلمته بل فوق وعده ووعيده، حتى لو قال للراسخ فى العلم : أنت حبيبى اجلس فوق عرشى منحتك كلمة (كن) تصرف فى ملكى وملكوتى ما ازداد إلا خشية من الله، لأن الله فوق كلمته لا شريك له فى ملكه . فقول الراسخين فى العلم : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) الآية برهان على قربهم من الله الذى دل عليه النداء، وفى قولهم : (لا تزغ) الزيغ كما بينت لك هو الميل والنزوع إلى الباطل، أى لا تزغ قلوبنا عن الحق، بمعنى احفظنا من أن تنزغ قلوبنا إلى الباطل عملا أو قولا أو حالا، وذلك يا ربنا بعد إذ هديتنا . وقد بينت لك أنواع الهداية فيما تقدم، وفى قولهم (بعد إذ هديتنا) دليل على انهم منحوا هداية الإحسان التى يتفضل الله بها على أهل محبته الذين اختصهم من بريته، وهو أكمل مقام يصل إليه السالك، وليس فوقه إلا الفناء عن المقامات، وهو رضوان الله الأكبر، ثم مقام الاتحاد بالأمر والمشيئة . ومن منح الاتحاد فى الأمر والمشيئة كان صديقا أكبر، وهو الذى شاء الله أن يكون هاديا مهديا راضيا مرضيا ،وأمره بذلك . فكانت إرادة الله وأمره متحدين فى ذات الرجل، كما تفضل الله على أبى بكر رضى الله عنه،

و نعوذ بالله من اختلاف الأمر والإرادة فى شخص، كما قدر الله ذلك على أبى جهل، وهناك مقام فى الاتحاد العلى وهو أن يجلى الله تعالى للعبد الراسخ فى العلم معانى صفاته

العلية، من جمال وجلال فى هيكله الإنسانى حتى يتجمل بكل معانى الصفات، فيكون سدرة منتهى علوم الخلائق، يغشى بظلال الأسماء، وهذا يكون الاتحاد الشهودى، وقد تغلب المشاهد على النفس المطمئنة فتصول عليها صولة تمحو من أمامها الكون عاليه وسافله حتى تشرق أنوار وجه الله حيث ولى الفرد وجهه . هذا العلم الذى رسمت صورته على جوهر النفس يجعل العالم به دائم الخشية، طويل الحزن، يراه الجاهل آنسا فرحا راضيا عن الله مستبشرا وعين روحه تشاهده عظمة وجلالا وكبرياء لأنه فصل القوة الروحانية عن الجسمانية وقامت كل قوة بواجبها، ويكون هذا الشأن أظهر وأجمل عند الملامتية، وهم كمثل مقام أهل الأحسان، وأول ملامتى هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهو إمامنا فى طريق الله تعالى ،وكيف لا وقد تحمل فى الملامة مالا يطيقه أولوا العزم من الرسل، وفى كل دور كان يقول : [رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون] بخلاف غيره ممن أهلك قومه أو خسف بهم الأرض أو مسخهم قردة وخنازير، وهنا تتجلى لك وسعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وصدق الله حيث سماه باسمين من أسمائه فقال (رؤوف رحيم) [١].

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾

أقاموا الحجة على كمال علمهم بالله فأثبتوا أن فضل الله موهبة منه لا لعلة ولا لغرض، وبينوا أن المعية والعندية واللدنية مقامات متفاوته ، فطلبوا رحمة اللدنية هى فوق المعية وفوق العندية، وهذا مقام فوق مقام خضر موسى لأن الله أخبر عنه بقوله : (ءاتينه رحمة من عندنا وعلمنه من لدنا علما) وهؤلاء رضى الله عنهم يطلبون الرحمة منه سبحانه، وإذا طلبوا الرحمة من لدنه فينبغى أن يكونوا بلغوا مبلغا من العلم فوق اللدنية ،والرحمة هى جماع الخيرات كلها التى تكون للنفس والعقل والجسم والحس، حاشا الروح فإن عطاياها تسمى محبة ،وكل عطايا تلك القوى تسمى رحمة، منها التوفيق لطاعة الله، ونيل الفضل منه سبحانه، والوسعة فى الأرزاق وكثرة الأولاد والبركة فيهم، والعافية فى البدن والأولاد والأموال ورفعة المقام فى الدنيا . والوفاة على الإسلام ،وكون البرزخ روضة من رياض

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨

الجنة وقيامه يوم القيامة مع السابقين، كل تلك الحقائق وما شاهها منضوفى الرحمة، أما مواجهتهم وجه الله الكريم والأنس بالله، والفناء عما سوى الله، وما شاهها فمحبته .

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

إقرار بيقين حق ثبت لديهم شهودا أووجودا، أى إنك انفردت بالألوهية وبالإعطاء والمنع والإيجاد ،وهذا هو العلم اللدنى الذى لا يعلمه إلا العلماء بالله قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله] فى تلك الآية الشريفة إشارة إلى أن الإنسان يجب عليه أن يتشبه بمن اقتطعهم الله لذاته، واصطفاهم لنفسه، واختطفهم إليه سبحانه، حتى جعلهم ضنائنه فى خلقه ،والعلماء الراسخون يعلمون الناس بأعمالهم أكثر مما يعلموهم بأقوالهم، ويعلموهم بأحوالهم أكثر مما يعلموهم بأقوالهم، فهم يقولون قليلا ويعملون كثيرا . وكذلك كان أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مجاهدين أنفسهم أن يتشبهوا به فى أعماله حتى بلغ هم الأمر أن يتساهلوا فى أقواله خشية أن يكون ﴿ ﷺ وآله﴾ رحمهم وتلطف هم، ولذلك كانوا يرسلون نساءهم إلى أمهات المؤمنين يسألنهن عن عمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليلا وهارا، وكم تركوا العمل بقوله حرصا على أن يعملوا بعمله، ومن ذلك أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ أمرهم فى غزوة الحديبية بحلق رءوسهم أمرا صريحا ودخل الحجرة وخرج فلم يجد أحدا نحر ولا حلق فدخل إلى أم سلمة رضى الله عنها يتململ، فقالت : مالك يا رسول الله، لا أراعك الله، فقال : [كيف لا وقد خالفنى أصحابى ؟]، فقالت : اخرج إليهم يا رسول الله فاحلق رأسك وانحر هديك وانظر .فخرج وفعل . فحلقوا كلهم ونحروا حتى سالت دماء الهدى فملأت الوادى، حتى كان القصاص يأخذ من المسلم ما يرضيه حرصا على أن يساوى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى زمان عمله ومكانه .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩)

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾

مقول الراسخين فى العلم الذين قالوا : (ربنا لا تزغ قلوبنا)، كما زاغت قلوب بنى إسرائيل وقلوب المنافقين ممن أسلموا بظاهرهم فى المدينة، وقلوب كفار قريش بتأويلهم ما تشابه من القرآن، فإن يهود بنى إسرائيل كحيى بن أخطب ومن معه لما سمعوا فاتحة سورة آل عمران قالوا : قد علمنا عمر محمد وعمر دينه ،فأولوها فى الجمل إلى عمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، فقالوا عمر دينه سبعون سنة، الألف بواحد، واللام بثلاثين، والميم بأربعين ثم جاءوا إلى رسول الله فقالوا : أو أنزلت عليك هذة الآية ؟ قال : نعم . فعجبوا وقالوا : قد علمنا عمر أمتك، أفأنزل عليك غيرها ؟ قال : نعم (ألمص). قالوا : هذه أكثر : أفأنزل عليك غيرها ؟ قال : نعم (الم) . قالوا : هذه أكثر أفغيرها ؟ قال : (الر) . فاختلفوا ونشروا رأيهم هذا فزاغت قلوبهم لأنهم تأولوا ما تشابه من القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾ . وقد تأوله نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكانوا سبعين رجلا منهم عبد المسيح رئيسهم الروحانى، وفى هذه الآية قول الراسخين : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ تهديد شديد يزعج قلوب من لم يؤمنوا بما أنزل الله من الكتب، وجامع الناس على تقدير جامع كل الناس، أو جامع الناس كلهم، واللام هنا بمعنى فى وجائز أن تكون بمعنى اللام أى لأجل يوم . وتمام الكلام إذا قدرنا المحذوف الملحوظ يكون التقدير ليوم القيامة ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ جملة توكيدية ليوم أو تكون حالا من يوم، أى لا شك فيه بحسب الحقائق المقتضية خلق جميع الخلق مسخرا للإنسان ليبتليه الله فى عهد يوم ﴿أَلَسْتُ ﴾ هل يتذكر أم ينسى، لأنه سبحانه كشف الحجاب عن بديع جماله، وخاطبهم مستفهما استفهاما تقريريا بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فسمعوا كلام ربهم وشهدوا جماله فلبوا مذعنين بقولهم : (بلى) تقريرا للاستفهام المفتتح بالنفى، أى أنت ربنا، فأبقى رفع الحجاب حتى عاهدهم بالحجة القائمة والمحجة الواضحة، فإنهم بعد أن شهدوا على ما شهدوه حقا ويقينا لأنهم كانوا أرواحا مجردة من عناصر المادة ودواعى الحيوانية ولوازم البشرية . قال سبحانه لهم بتقدير المحذوف احذروا بعد أن أظهركم فى الهياكل البشرية : (أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك ءاباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) [(١)] . فقولهم : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٧٢، ١٧٣

رَيْبَ فِيهِ﴾ بيان من أنفسهم أنهم على كمال اليقين بيوم القيامة . ومن كمل علمه بيوم القيامة نظر إلىالدنيا نظرة استهانه، فتقلل منها كما تقلل المسيح عليه السلام والأنبياء من قبله، وكان سيد الورعين سيد الزهاد سيد الرسل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يبلغ به الجهد أنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وهو يملك خزائن الأرض ، والاعتراف بيوم القيامة علما تتمثل حقيقته على جوهر النفس بالمراقبة كمن رآه بعينى رأسه .

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

أتى بحرف التوكيد تقريرا للحقيقة فى نفس السامع، وأتى بالاسم الأعظم بيانا لأهل القلوب الواعية ،فإن اسم (الله) له الهيمنة الكبرى على جميع الأسماء، والميعاد على وزن مفعال من الوعد لا يدل على مكان ولازمان . وقد أخذ الوعديون بهذه الآية بأن الله يجب عليه أن لا يخلف وعده، وهذا سوء أدب منهم لأن الميعاد هنا بمعنى الوعد، وقد يكون من مقول الراسخين فى العلم فلا يكون دليلا لهم على دعواهم . وعندى أنهم لو ألهمهم الله فقه القرآن المجيد لعلموا الحقيقة الصريحة، وهى أن الأسماء لها مقتضيات، فمن وفقه الله لما يحب بسابقة الحسنى من الأسماء الحسنى وفى له فضلا منه وكرما، فأحله دار الكرامة فى الآخرة، كما أقامه فى محابة ومراضيه فى الدنيا . ومن سبقت لهم السوءى بمقتضى أسماء جلاله فسلب منهم سبحانه هداية الإحسان بعد إقامة الحجة بهداية البيان ألقى بهم فى الهاوية حيث نار جهنم، وهو سبحانه قد يخلف وعيده ولا يخلف وعده، لأن خلف الوعيد فضيلة فى بنى الإنسان وهى من أخلاق الرحمن، فقد يقع العبد فى المعاصى كبيرها وصغيرها فتسبق له عناية الحسنى من الله فيوفقه للتوبه قبل موته أو يموت على الإسلام وهو مرتكب كل ما عدا الشرك فيعفو عنه الله، ويغفر له ويكرمه، ولا يسأل عما يفعل، أما من حارب الله ورسوله، وعبد هواه وحظه، فهو ممن خلق الله نفوسهم من أردأ الجواهر من سجين، وهؤلاء إخوان الشياطين، وهم شياطين الإنس الذين تسلط عليهم إبليس وجنوده، فقبلوا منه وأقبلوا عليه . وهؤلاء هم الذين سبق فى قدر الله لهم الخلود فى نار جهنم، ولا توبة ولا إنابة إلا فى تلك الدار الدنيا . أما يوم القيامة فلا توبة هناك ولا عمل، يقول الله مخبرا عن

إبراهيم فى الدنيا : ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1] ويقول مخبرا عن عيسى عليه السلام : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2] وبين الكلمتين ما بينهما من الفرق الظاهر لأهل الذوق بعلم القرآن . فقول إبراهيم كان فى الدنيا حيث الطمع فى الفضل والمغفرة، وقول عيسى كان فى الآخرة حيث لا عمل ولامغفرة بحيث لو قال إنك غفور رحيم لنظر إلى ربه بعين الصغار وهو من أولى العزم فتأدب مع الله وقال : ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ القهار، شديد النقمة، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى تضع الشيء فى موضعه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (١٠)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً﴾

هذه الآية من أول (إن الله لا يخلف الميعاد) سياق للغيبة بعد الخطاب لحكمة علية . وإن كان السياق بحسب ما تقدم يقتضى ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، فأتى بالاسم الأعظم مكان ضميرا لخطاب العائد على قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ إظهارا لكمال الدب مع الله وإعظاما وإجلالا وإكبارا لحضرته العلية أن يدانى أو يجانس، واسم الجلالة أكمل الأدب فإنه فى قولهم : (ربنا) وصل ومداناة ومؤانسة فلما جاء اختصاص الله بصفة لازمة لا تفارقه انتقلوا من سياق الخطاب إلى سياق الغيبة لبعد ما بين الحضرتين . وقوله :(إن الذين كفروا
(
مسافة هذا السياق، والمعنى إن الذين كفروا من يهود بنى إسرائيل معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن منافقى ومشركى العرب، ومن نصارى نجران الذين منعهم عن الإيمان حرصهم على أموالهم وأولادهم ووظائفهم ومقاماتهم بين أهل قبائلهم حسدا من أنفسهم أن

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦

(٢) سورة المائدة آية ١١٨

يكونوا أتباعا بعد أن كانوا متبعين . والكلام وإن كان خاصا بأكابر مجرميهم إلا إن الحكم فيه عام ولهم ولمن اتبعهم إلى يوم القيامة . (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولدهم) نفى مؤبد، أى لن تنفعهم يوم القيامة أموالهم التى يفارقونها بمفارقتهم لكون الفساد، ولا أولادهم الذين هم فتنه لهم فى الدنيا وعذاب لهم يوم القيامة (من الله شيئا) لأن الله غنى عن العالم أجمع، والعالم من العرش إلى الفرش مضطر إلى إحسانه وفضله، مفتقر بالذات إليه جل جلاله .
ولو تصور أهل العقل معنى الآية لفهموا أن الله على عظيم عن أن يتأثر بملك فى الأرض، أو بجاه أو بأولاد، حيث لو تجلى بجلاله لأصعق آدم ومن بعده من الأنبياء والمرسلين إلى عيسى و محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ . وإن أكمل نبى مرسل إذا جاء يوم القيامة كاد أن يذوب خوفا من جلال الله وعظمته، حتى يقول عيسى عليه السلام : ((اللهم إنى لا أسألك أمتى ولكنى أسألك نفسى)) . وكذلك يقول موسى وإبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام ،ولكن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ منفردا يقول : [يا رب أمتى أمتى] لما له عند الله من على
المكانة، لأن الله سماه باسمين من أسمائه العظمى كما بينت لك فقال : (بالمؤمنين رءوف رحيم) وتلك الرأفة والرحمة تتجليان بمعناهما الكمالى يوم القيامة . ومعنى قوله : (كفروا) لغة ستروا عن الحقائق الحقة . وفى الاصطلاح : جحدوا ربهم واتخذوا له أندادا وانظراء وأشباها وأولادا، وتنزه وتعالى أن يكون له أنداد ونظراء وأشباه وأولاد وما هى الأشباه والأولاد وقد كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويتغوطون ويبولون وينامون ويضربون ؟ ! . ومن كانت تجرى عليه تلك الأحداث والتغيرات فهو مخلوق مقهور لا رب معبود، ولكن التعصب وتقليد الآباء أعمى البصائر عن البحث عن الحق .

(وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)

معنى هذه الآية أن النار موجودة متقدة مستعرة، ولكن الله تعالى يصليهم تلك النار فيكونوا وقودا لها لا لتزيد وإنما ليذوقوا العذاب، والمعنى أولئك هم حطب النار . وهذا دليل على أن النار تمحق ما فيهم من الحقائق التى أغضبت الله، حتى لا تبقى إلا الحقيقة الإنسانية التى يجعل الله لها واديا أقل من لهيب النار، يكون غذاؤهم فيها الجرجير، كما ورد : ((إن الجبار ليضع قدمه فى النار فينبت فيها الجرجير)) . فالنار مطهرة لا تفقد الحقائق، فإن الحقائق الدائمة أبدية . وقد سألنى رجل من كبار علماء النصارى أمريكى الأصل وأنا بالخرطوم

فقال : إنكم تتهمون ربنا بالظلم فى العقاب يوم القيامة، يعيش الرجل منكم سبعين سنة فيعصى الله ويتوب فيدخله الجنة أبديا ،وكان العدل أن يدخله الجنة سبعين سنة، ويعيش الرجل النصرانى أو اليهودى أو المجوسى سبعين سنة فيدخله النار أبديا . كان العدل أن يقيم فى النار سبعين سنة مدة كفره بالله ومعصيته ، وكنت فى مجمتع من أهل السودان والهند واليمن فخشيت أن تقوى هذه الشبهة فى نفوسهم فقلت يا أخى : إن الخلاق العظيم خلق الأناسى من جواهر معلومة لديه، فمنها جواهر ونورانية وجواهر بين نوارنية وظلمانية ثم جواهر ظلمانية من أسفل سافلين، ولو أنه ترك من نفوسهم من النور مخلدين فى الدنيا لداموا على عبادته وطاعته أبدا .

ولو ترك النفوس المخلوقة من سجين لداموا على كفره وعصيانه أبدا، فهو ينظر إلى ما قدره على تلك النفوس أزلا، ويعاملهم بما يعلم فيهم . فكبر القوم وسلم هذا السائل . وقد سألنى سؤالا آخر فقال : إن القسس والرهبان والأحبار يمضون عشرات السنين فى عبادة وتسبيح وترتيل، وأنتم تقولون إنهم يخلدون فى جهنم، وأنتم المسلمون أكثركم عصاة تخالفون الله وتعصون أحكامه وتدخلون الجنة، فأجبته على الفور بعد أن ظهر لى أنه مبشر يريد إحداث الفتنة فى الدين : إنا كما تقول جوارحنا تعصى الله فإذا تكاثفت الظلمات عليها نور توحيد الله وتفريده بالألوهية الذى انعقدت عليه قلوبنا فطهر تلك الجوارح . وأنتم تعبدون الله ليلا ونهارا فإذا أنزلت أنوار الرحمة عليكم من السماء ظهرت ظلمات الشرك واعتقاد أن لله ولد، فمحت تلك الأنوار، فكبر المسلمون . وما كنت مستعدا أن أجيبه على هذه الأسئلة . والضمير الذى هو (هم) جائز أن يكون ضمير فصل وجائز أن يكون مبتدأ ثانيا و(وقود) خبره .

قوله تعالى : (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (١١)

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)

الدأب هو العادة والسنة وبذل الجهد فى نيل المقصد، وهنا إن كان (وقود) مصدرا لأن الرواية فيها بضم الواو وفتحها فالجار والمجرور متعلق على سبيل النصب، وإن كان اسما

يكون الجار والمجرور متعلقا ب (تغنى) . وآل فرعون هم أنصاره، ومن كانوا على ما كان عليه من الضلال والكفر، ولايقال إلا لمن يقتدى بهم ويعتنى . وفرعون علم على كل ملك للأقباط فى القرون القديمة قبل أن يتغلب الرومان على بلاد مصر، كما يسمى قيصر بملك الروم لملوك أوربا . وكسرى لملوك العجم . وآل فرعون كانوا على كفر بالله وجحد به سبحانه وتكذيب لأنبيائه عليهم السلام . (و الذين من قبلهم) كملوك العجم والعرب ممن ذكرهم التاريخ كالآشوريين والبابليين والكلدانيين والكنفانيين وغيرهم .

(كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا)

أى جحدوا وأنكروا دلائل التوحيد وعلامات النبوة . والآيات جمع آية، وتلك الآيات أنواع مختلفة منها ما أنزل الله من الكتب، ومنها ما أجره الله على أيدى الرسول من المعجزات الباهرات، ومنها ما أظهره فى الكائنات من أسرار الحكمة فى الإيجاد والإمداد، وهى الآيات التى لا يشم عبيرها إلا أهل النفوس الطاهرة فإن العربى قال : البعرة تدل على البعير . وإذا كانت البعرة بلغت أن تعتبر أثرا يدل على أن بعيرا مر مكانها، فكيف إذا نظر أهل الفهم عن الله فى تلك الأجرام الهائلة المتسقة المنتظمة المرتبطة ببعضها . وانظروا إلى ما فيها من الخصوصيات المتفاوتة، والمميزات الظاهرة، واستنبطوا منها آثار عجائب القدرة، وغرائب الحكمة، لما وسعهم إلا أن يسجدوا لله مؤمنين بجميع أسمائه، وصفاته، متحققين كأنهم يرونه، بل موقنين إيقان من بلغ به اليقين إلى ما فوق الرؤية . وقد قال على عليه السلام لسائل سأله : أو ترى ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أو أعبد من لم أر ؟ وقال الإمام عبد الله بن عمر : كنا نتراءى ربنا ليلة عرفة ... قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين] .

وشتان بين خزائن العلوم وخزائن الفهوم . وقد زار سيدنا أنس بن مالك البصرة ولم يكن ثم من الصحابة سواه ،لأنهم استشهدوا فى الجهاد جميعا، فلم تسعه الدور ولا المساجد حتى كان يخرج فى الصحراء وحوله عشرات الألوف من طلبة العلم يقولون أسمعنا كلام رسول الله يا خادم رسول الله . وكان الحسن البصرى مرشدا لجماعة من كبار أهل العلم وهو تابعى فقالوا له : أنا نحب أن نزور خادم رسول الله لنسمع كلام رسول الله منه، فقال : حبا و كرامة، وتوجهوا إليه فى وقت صفاء من وجود الناس، وأستأذنوا فأذن لهم، فجلسوا بين

يديه وهو على وسادة . وكان على فراش الشيخوخة، وقالوا : يا خادم رسول الله أسمعنا كلام رسول الله، فقال : لكم ذلك . وجلتس فحدثهم ثلاثة عشر حديثا . فقال له الحسن البصرى : يا خادم رسول الله فهمنا كلام رسول الله، فقال يا بنى : إنما أنا خزانة علم . فقال : تسمح لى أن أشرح لك كلام رسول الله . فقال : اشرح يا بنى . ثم نزل أنس بن مالك فجلس عى الأرض، وأمر الحسن البصرى أن يجلس على الوسادة، وكان غلاما مولى بالنسبة لأنس، فلما تكلم الحسن التفت أنس إلى أهل البصرة وقال : يا أهل البصرة بين ظهرانيكم هذا البحر وتردون على، فدل ذلك على أن الله يهب أفرادا من أمة محمد علما لو أدركه بعض الصحابة لسمعوه منهم حفظا للرسالة فى الأمة .

قال على عليه السلام : اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة إما ظاهرا مشهورا أو باطنا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته . وتلك الآيات لا يتعقلها إلا من وهب الله لهم القابل، وأسعدهم بوجود الفيض، من عارف ربانى عالم روحانى، يجدد به الله ما اندرس من معالم الدين، ومن آثار السنن، وإن وجد القابل ولم يوجد الفيض ،أو وجد الفيض ولم يوجد القابل دل على أن القدر لم تسبق فيه سعادة لأهل ذلك الزمان .

(فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ)

هذه الآية وأمثالها حجبت أهل الظاهر عن أن يكاشفوا بغيب سر القدر، ليعلموا وحدة الأفعال، ويتذوقوا مضمون حلاوة التوحيد فى مشهد من مشاهده، لأنهم يفهمون من ظاهر الآية أن الله إنما عذبهم لأنهم كذبوا فى هذا الكون بآياته وكفروا بها .

والحقيقة التى يجب أن يسلم بها أهل العقل الذين يعقلون عن الله أن الفاعل المختار هو الله، وأنه سجل فى سجل قدره أعمال كل فئة قلبا وقالبا، وإنى أقول كما قال أهل المعرفة : ((أنا لا أعبد ربا تغضبه المعاصى وترضيه الطاعات)) وإنا نرى كثير مضوا أعمارهم فى كفر بالله ومحاربة لرسل الله ثم آل أمرهم إلى أن كانوا فى مقامات الفاروقية والصديقية، ونرى كثيرا من الناس مضوا أعمارهم فى طاعة الله وعبادته حتى كان يتبرك بهم اهل زمانهم، وسبق عليهم القدر بالسوء، والحقيقة أن الله أحب قوما فى أزل فأقامهم فى الكون مقام المحبوبين لحضرته، فلم تضرهم معاصيهم وإن جلت، وسبقت عنايته بهم فختم أعمارهم بجهاد فادح وإقبال صادق وعزم أكيد، وقدر على قوم بغضه وكراهته لهم، وإقامتهم فى

الكون مقام أعدائه ولو أقبلوا عليه بكليتهم، فإنه سبحانه يختم أعمارهم بما يكره من نية وعمل وقول فيكونون حيث قدر لهم أزلا، ولذلك فلا أمان لمكر الله، ولا قنوط من رحمة الله (فأخذهم الله بذنوبهم) يعنى عاملهم بما قدره عليهم وأقامهم فيه، فإن أهل محبته السابقة يقول سبحانه فيهم : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيائتهم فى أصحاب الجنة) [(١)] فقوله نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وهو أن يعملوا ويشهدوا مشهد التوحيد العلى، فيكون العامل فى الحقيقة هو الله، وذلك أحسن ما عملوا، فإذا جاء يوم القيامة أنزل نفسه سبحانه منزلة العامل وقدر لنفسه جل جلاله جزاء على عمله، ومنحه أحبابه، فيكون جزاؤهم يناسب العامل سبحانه بقدره، وقد تبلغ العطية مبلغها الأكمل فيعطيهم فيتنعمون بشهود جماله على منابر من نور، قدام عرش الرحمن، والأخذ بمعنى المؤاخذة . والباء فى قوله سبحانه : (بذنوبهم) سببية .

(وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)
يعنى أنه سبحانه إذا ظهر بجلاله استحال على أى كائن من كان أن يتقرب منه بشفاعة أو وسيلة، وأبرز قدره يقهر وشدة متنا هيتين، ومن يقوى على جلال الله تعالى والعالم كله مقهور بقهره ؟ !، قال سبحانه : (و هو القاهر فوق عباده) [(٢)] وأتت الجملة إسمية لتوكيدها فى معناها وأتت بصيغة فعيل لأن شديد بمعنى فعيل تأتى مشربة معنى المبالغة.

قوله تعالى : (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (١٢)

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)
سبب نزول هذه الآية، أن الله تعالى لما نصر نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة بدر وكان المسلمون ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وقريش ألف فارس مدججون بالسلاح، وبعد هزيمة قريش وقفول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة خرج إلى يهود قريظة وقينقاع والنضير، فى أرض واسعة

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٦

(٢) سورة الأنعام آية ٦١

لبنى قينقاع، وقال لهم : [أسلموا فإنكم رأيتم ما فعل الله بأعدائه من قريش]، فقالوا : يا محمد غرك أن قتلت شيوخا صلعا من قريش، وإنا قوم أقوياء كثيرعددنا وعددنا، وأبوا أن يسلموا وكان كعب بن الأشرف داهيتهم، ولكنهم لما رجعوا تذاكروا فى هذا فقال بعضهم : والله إنه النبى الأمى الذى بشر به موسى وأخبرنا الله به فى توراته، وأن الواجب علينا أن نسلم، فقال كعب ومن معه : انتظروا حتى يغزو غزوة ثانية فإن كان هذا هو النبى لا تنكسر له راية، وإن لم يكن فلا حاجة بنا إلى الإسلام، فلما حدثت واقعة أحد وحصل للمسلمين الهزيمة ووقف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ راكبا على بغلته ينادى بأعلى صوته : ((أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب)) وأنزل الله الملائكة فهزمت قريشا فى أحد قال اليهود ليس هو النبى الأمى، وركب كعب بن الأشرف مع ستين راكبا منهم إلى قريش بمكة، وتعاهدوا أن يكونوا جميعا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأنزل الله تلك الآية على محمد ﴿ﷺ وآله﴾ يقول له : (قل للذين كفروا) من يهود بنى إسرائيل وخيبر وقينقاع والنضير وقريظة (ستغلبون) أى تقهرون بعجائب قدرة الله التى قهرت وهزمت ألف فارس من قريش أمام ثلثمائة رجل من فقراء المسلمين، فقد كان جيش بدر به سبعون مهاجرا ومئتان وثلاثة وأربعون أنصاريا، وكان جيش قريش ألف فارس فهزمهم الله تعالى وحشرهم إلى جهنم، فكذلك أنتم أيها الكفار الجاحدون بالله المكذبون لآياته ستغلبون كما غلبوا (و تحشرون) يوم القيامة (إلى جهنم)، أى تساقون إليها بمقامع من حديد فيسوقكم ملائكة العذاب . (و بئس المهاد) أى وبئس الفراش والغطاء، فإن المهاد هو الفراش وزنا ومعنى فجعله مهادا لأنهم يخلدون فيها، فهى فراشهم وغطاؤهم كالأرض لعمارها المقيمين عليها لا يفارقونها، وكالسماء لمن تظلمهم .

قوله تعالى : (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)(١٣)

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا)

أنزل الله تلك الآية بياناً لمعاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من يهود بنى إسرائيل، وحجة على تأييد الله له ،(كان) هنا ناقصة و(آية) اسمها و(فى فئتين) خبرها، والآية هنا هى العلامة والدليل والحجة والأثر الظاهر للحس الذى لا يحتاج إلى تأويل، ولا إلى تصوير كما ترى الشمس فى رابعة النهار، و(فى فئتين) رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والصحابة معه يوم بدر، وأبو جهل وأبو سفيان وكفار قريش معهما، و(التقتا) نعت للفئتين أى تقابلا فى ميدان الحرب .

(فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

(فئة) هم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والصحابة معه، (تقتل فى سبيل الله) أى تبذل نفسها ونفيسها نصرة لله ورسوله، وقهرا لأعدائه بإعلاء كلمته، والسبيل الطريق الموصل إلى الغاية، لأن لفظة سبيل وطريق ومنهج ومنهاج وشارع ومشرعة وشرعة ألفاظ مترادفة، تدل على الطريق الموصل إلى الغاية فقد يكون طريقا حسيا كما تعلم من حيث طرق الأرض وفجاجها ومسالكها، ومعنويا من حيث ما يوصل إلى الجنة أو إلى مقعد صدق أو إلى رضوان الله الأكبر أو إلى مواجهة وجه الله العلى العظيم، وكلها طرق موصلة للغاية المقصودة بحسب همم آل العزائم فى ذلك، وقد أفرد الله السبيل وجمعة فقال سبحانه : (ادع إلى سبيل ربك) [1]، وقال سبحانه : (و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [2]، وقال جل جلاله : (اهدنا الصراط المستقيم) .و فى كل كلمة من كلامه سبحانه معان ليس هنا محل تفصيلها، وفى قوله : (سبيل الله) بالاسم الأعظم دليل كاف على أن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تجاوزوا المقامات العليا فأفردوا الله بالعبادة والقصد فلم يكونوا يقاتلون لنيل غنيمة أو جنة أو وقاية من نار أو حظ من حظوظ الأرواح الطاهرة . لا . ولكن كانوا يقاتلون فى سبيل الله أى مقصودهم الذات المقدسة، وهذا المقصد فوق كل مقام . وكيف لا ! والقوم تركوا نعيم الجنة فى الدنيا، بل بذلوا أرواحهم الطاهرة شوقا إلى الفوز بحظوة القدس الأعلى، فهل يكون هذا مقامهم فى الدنيا ومحبوبهم فى غيب غيبه العلى سبحانه، وفى الآخرة يظهر لهم جليا ويلتفتون عن وجهه إلى الجنة ؟ هذا مالا يتعلقه عاقل يعقل عن الله

---

(١) سورة النحل آية ١٢٥

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩

تعالى، فقد يقول بعضهم وهو يجر بالسلاسل إلى الجنة إنى تركت الجنة وانا أحوج ما أكون إليها فكيف وأنا أمام حبيبى ألتفت عنه .

﴿وأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾

أى وفئة أخرى، ولك أن تنصبها . (فئة تقتل) وفئة أخرى، الأولى على المدح، والثانية على الذم (و أخرى كافرة) لم يقل : لا تقاتل، لا نحطاط قدرهم عن أن يعتبروا مقاتلين وكفاهم تعسة قول الله عنهم : (كافرة) أى جاحدة بالله محجوبة عن شهود جمال آياته المترلة، وآياته المتجلية فى الآفاق وفى أنفسهم .

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾

أى يرى المسلمون الكافرين قدرهم مرتين . الأمر الذى يفزع القلوب لتتبين عزيمة أصحاب رسول الله على الإقدام مع العلم بأن أعداءهم أكثر منهم عددا وعددا شوقاً للقاء الله ومحبة للاستشهاد فى سبيله، (رأى العين) يعنى حسا ملموسا .

﴿وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾

معنى هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا أن الصحابة وإن كانوا رأوا أعداءهم أضعافهم إلا أن الله تعالى وضع فى قلوبهم نورا استبانت به لهم الحقائق التى أعدهم لها يوم القيامة، فعظم شوقهم إلى الفوز بتلك الخيرات التى ليس لها شبيه فى الدنيا، فصغر فى أعينهم عدد الأعداء وعددهم، وأقدموا إقدام من رأى حببه أمامه ففر إليه ،وهذا هو التأييد الذى أيدهم الله به . ونوع آخرهو أن الله سلب السكينة من قلوب أعدائهم حتى حصل لهم الفزع والهلع، ودليل ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم لم يستشهد منهم إلا ثمانية رجال، وقتل الله صناديد قريش مثل أبى جهل رأس المشركين، وأمية بن خلف الذى كان يعذب بلالاً فى الجاهلية، فإن بلالاً مر فوجد أمية بن خلف ومعه ابنه فنادى : يا أنصار الله هذا عدو الله وعدو رسول الله . فتبادر إليه الأنصار وكان صديقا لسعد رضى الله عنه ففر إليه وقال أقلنى يا سعد فمنعه من القوم فأخذ بلال حربة وقال : من لم يقتل هذا عذبه الله ،فتنحى سعد عنه وعن ابنه، فصار بلالاً يطعنه فى خاصرته والصحابة يطعنونه لا يخافون سعدا حتى

مزقوا جلده وجلد ابنه، ورجع بلال يهلل ويكبر فرحا بهذا الانتصار، وجائز أن الذين رأوا أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مثليهم هم المشركون نصرة من الله تعالى، وتأييدا لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾

يخبرنا الله تعالى أن هذا الحادث الذى أظهره الله بنصره محمد ﴿ﷺ وآله﴾ هو وأصحابه من الأحداث العظيمة التى تكون داعية لانزعاج قلوب يهود بنى إسرائيل معاصرى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وقلوب نصارى نجران، وبقية العرب من غير أهل مكة فتحصل لهم العبرة ويسارعون إلى الإسلام وهم وإن كانوا من أهل البصر النافذ والعقل الصحيح ولكنهم بعد أن أخبرنا الله عنهم بقوله : ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولدهم من الله شيئا﴾ . تحققنا أنه من المستحيل عليهم بعد هذا الخبر أن يسلموا ويقبلوا على عبادة الله وطاعته. وهذا الخبر من الله تعالى خاص بمن قدرعليهم سوء الخاتمة، ولم يكن هذا الخبر موجها لمن سبقت لهم الحسنى من الله، وإن حكم بعض العلماء باستحالة إيمانهم وبأنهم لو آمنوا لكان إيمانهم مخالفا لهذا الخبر، والحقيقة أن الله تعالى يخاطب أعيانا مخصوصين، علم ما قدره عليهم، وليس الخطاب موجها إلى جميع اليهود والمشركين والنصارى، لأن الله تعالى هدى منهم خلقا كثيرين، وعلى هذا التقدير نفهم إطلاق قدرة الله تعالى لأنه لا يتقيد بما تدل عليه الآيات ظاهرا فى خبر، ولا فى إنشاء، فهو يخاطب من شاء، بما شاء وليس لنا أن نحكم على الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾(١٤)

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

قبل أن نتكلم على هذه الآية الشريفة أكشف لك سرا يستبين لك به أن الخلاف بين العلماء لفظى فى مثل هذة الآيات الشريفة . يقول الله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوت ﴾،

ومعنى هذا التزيين أن الله خلق الإنسان مكونا من حقائق مختلفة تدعو إلى ضروريات وكماليات، وخلق أنواعا كثيرة لا غنى لتلك الحقائق عنها، فالإنسان مضطر إليها اضطرارا طبيعيا، وهذا عندى هو التزيين، والذى زين هذا هو الله تعالى، وقد أباح لنا ما نضطر إليه ولو كان لحم الميتة، وأباح للضيف إذا نزل محلة قوم ومنعوا القرى عنه حتى دعته الضرورة فأخذ متاعا من أمتعتهم ليقتات به لا يكون عليه حرج فى ذلك . لأن الضرورة قضت عليه، قال تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) [1] وذلك لأن الله تعالى زين تلك الأنواع التى خلقها للإنسان لتنكشف أسرار الآيات لمن يستعملها، فإن الإنسان إذا تناول ما خلقه الله وكان له نظر ثاقب، شهد من آيات البديع وأسرار القادر وحكمة الحكيم ما يجعل قلبة يطمئن بذكر الله، ويندفع بعامل نيل شهواته المباحة إلى شكر الله، وذلك هو المقصود من إيجاد الخلق، قال تعالى : (و ما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون) [2]

إذا فالله هو الذى زين حب الشهوات للناس، ولكنه سبحانه حظر عليهم استعمال ما حرمه مما يضرالأجسام ويفسد العقول، كالمسكرات والمخدرات ،وما يفسد الأخلاق ويوقع فى الشحناء كالربا، ومالا ضرورة إليه كالمغصوب والمسروق، وأباح لنا ما عدا ذلك مما تدعو إليه الضرورة من طعام وشراب وملبس يقى الحر والبرد، ومأوى يحفظ الإنسان من ضرر اللصوص والوحوش وسلطان البرد والحر، وعلى ذلك فالذى زين للناس حب الشهوات المباحة وجعل الإنسان يصرف أنفس أوقاته فى طلبها هو الله تعالى لحكمة عالية اقتضتها صحته الروحانية وصحته الجسمانية، فإذا تعدى الإنسان إلى حب الشهوات التى حظرها الله عليه، وأمره أن لا يقع فيها كان ذلك سببه الشيطان الذى وسوس إليه فزينها له، وإن كان ذلك كله بإرادة الله تعالى وتقديره.

(زين للناس حب الشهوات) أى حب النساء وما بعدها ، ولكنه ذكر الشهوات بمعنى المشتهيات لأن الشهوة بمعنى المشتهاة والحب قد يكون للشهوة ولكن العبد يكره أن يقع فيها ،فلا يدعوه ذلك الحب إلى الوقوع فى الشهوة، وقد يحب الوقوع، والنوع الأول هم عامة المسلمين الذين يحبون الشهوات مطلقا، ولكن تمسكا بالدين يكرهون الوقوع فيها،

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٩

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦

وأما الذين يحبون الشهوات والوقوع فيها فهم المنافقون والمشركون بالله تعالى . وأما أهل الإيمان الكامل فإنهم لا يحبون الشهوات ولكن يحبون المنعم بالنعمة، فإذا استعملوا الشهوات فيما أباحه الله لهم شهدوا مشهدين : شهدوا المنعم جل جلاله، وشهدوا الأمر باستعمالها ليذكروه ويشكروه، فكان محبوبهم المنعم جل جلاله ومن أمر ونهى سبحانه لا الشهوات من حيث هى مشتهيات، لأن الحكمة فى تزيين الله الشهوات بينتها لك . والقوم أقرب مشهد لهم شهود الحكمة فيما يرون أنفسهم فى حاجة إليه .

(مِنَ النِّسَاء)

(من) هنا للبيان، و(النساء) تفصيل لمجمل الشهوات أو بدل، وإنما بدأ فى الشهوات بذكر النساء لما لهن فى القلوب من المكانة التى تجعل الإنسان قد يشتغل عن واجب الدين بهن، وبما لهن من التأثير القوى على قلوب الرجال فكان لهن حق الابتداء، وقد يملك الرجل الأرض ومن عليها ويعجز عن أن يملك المرأة، ولا يكون الإنسان رجلا عند الحكماء إلا من ملك المرأة . ومن قال إننى رجل وتملكه زوجته فليس برجل . وكان بعض الصالحين إذا دعى إلى الزواج قال : إنى لا أملك نفسى فكيف أقويها بنفس أخرى، دعونى أجاهد نفسى حتى تكون طوعى ثم أتزوج . والباعث الذى جعل المرأة أول المشتهيات معلوم لكل إنسان .

(وَالْبَنِينَ)

معطوف على النساء، وهم الأولاد، ولهم أعظم قسط من شغل القلب، وللشيطان نفثات من ناحية الأولاد يكاد يجعل الرجل يقتل أباه وأمه أو يفارقهما طوعا لداعى شهوته قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [الولد مجبنة مبخلة مفسدة]، وفى آية أخرى يقول الله تعالى : (إن من أزواجكم وأولدكم عدوا
لكم فاحذروهم) [1]و يقول سبحانه : (إنما أموالكم وأولدكم فتنة) [2]

---

(١) سورة التغابن آية ١٤

(٢) سورة التغابن آية ١٥

﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾

القناطير جمع قنطار، والقنطار هو نهاية القدر الذى يوزن من الشىء، وهو عند قوم من القدماء ملء جلد عجل من الذهب والفضة . وعند آخرين مائة رطل . وعند بعضهم ألف دينار.و المقنطرة الكثيرة ،فالقناطير ثلاثة، والمقنطرة ثلاثة فى ثلاثة (من الذهب والفضة) الذهب والفضة أنفس ذخائر الإنسان، لأن من يملكها ملك كل شىء يشتهيه من مشتهيات الدنيا . والذهب معدن نفيس من المعادن التى لا تتركب، وكم أفسد الناس فيه أعمارهم وأموالهم ليركبوه من حقائقه التى يظنون أنه منها، فلم ينالوا سوى الخيبة، وهم الذين يصنعون الكيميا .

والفضة معدن أقل من معدن الذهب جوده ونفاسة، ولكل منهما خصوصيات طبية زيادة عن خصوصياتهما فى المعاملات، وقد نجح قوم فى إنجاح مقصدهم فى هذين المعدنين، وهم من منحهم الله الروح العلية التى يقوى الرجل بها على تنويع الحقائق ولا حرج، فإن الله منح موسى عصا تنقلب إلى ثعبان فتعمل أعمالا تعجز البشر ،ومنح عيسى كلمة يحدث الله بها ما شاء من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ومن خلق الطير من الطين، وكما منح الله رسله الكرام كلمته فى عصا أو بغير عصا، فإنه تنزه وتعالى يعطى تلك الآيات لمن أحبهم من خيرة خلقه لا فرق بين الرسول والنبى والولى .

لأن المحظور عن أن ينال هو الرسالة، أما ما زاد عن الرسالة من المعجزات الباهرات فإن الله قد يظهرها على أيدى أوليائه بصفتها كرامات منه لهم، ولكنها لا تظهر إلا على أيدى الأتقياء من أمة سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، فإذا ظهرت على أيدى المنافقين أو الكافرين كانت استدراجا من الله تعالى، وقد ظهرت على أيدى سحرة فرعون لتقوم الحجة عليهم بعصا موسى، وإنى أبين لك شيئا فى الكرامة . من أظهرها ليظهر بين الناس، أو لينال بها خيرا وقع فى النفاق من حيث لا يشعر، فإن الله أمرالأنبياء بإظهار المعجزة دعوة للخلق إلى الحق، وأخذ العهد على الأولياء أن يخفوا الكرامة حتى يظهرها سبحانه تأييدا لمن يحبهم، ومن راض نفسه لتظهر له كرامة فقد عبد غير الله .

(وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ)

الخيل جمع لا واحد له من لفظه، والمسومة المعلمة بالغرة فى وجوهها والتحجيل فى أطرافها، أو الخيل البلق أو التى فى جسمها ألوان . ومسومة من السيما وهى العلامة كما قال تعالى : (سيماهم فى وجوههم) [1] و هى جياد الخيل . وللخيل فى القلوب شهوة عند رجال تبلغ عندهم مبلغا حتى يكون الجواد أغلى على الواحد منهم من والده، وهى شهوة مخصوصين من الخلق، لذلك أخرها الله عن الحقائق التى هى مشتهيات الخلق جميعا كالنساء والبنين والذهب والفضة .

(وَالأَنْعَامِ)

كلمة خاصة بالإبل إذا أطلقت، وإذا لم تطلق كما فى هذا الموضع كانت للإبل والبقر والغنم، لأن الله تعالى لما ذكر الخيل أجمل فيها البغال والحمير وذكر أكملها لمناسبة الشهوة .

(وَالْحَرْثِ)

هو الزراعة لأن الإنسان إنما يحرث الأرض لزرعها . وقد أصبح الحرث خيرا من الذهب والفضة والأنعام بعد أن سكن الإنسان المدن واستراح . أما فى العصور القديمة فكان الحرث لا قيمة له، لأن العالم كان يرحل من مكان إلى مكان لرعى ما يملكه من الحيوانات فقط، وكان طعامهم إذ ذاك الألبان واللحوم، ولباسهم وبيوتهم من الجلود . ولا يزال منهم بقية فى السودان الجنوبى، وفى المغارات والجبال فى بلاد أمريكا . وللحرث شهوة فى القلوب تجعل الإنسان حريصا عليه يقتل أباه وأمه وولده وجاره فى سبيل سقياه أو حفظه من الأيدى الأثيمة .

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

---

(١)سورة الفتح آية ٢٩

دليل على المزين أنه هو الله تعالى لأنه خلق تلك الأشياء، وجعلها متعة فى الحياة يتمتع بها الناس لداعى الضرورة التى خلقها الله فيهم من احتياج إلى الغذاء واللباس والمأوى والدواء . إذ بغيرها يفقد بنو الإنسان الحياة . ومعنى (متع الحيوة الدنيا) أى تتمتع به الناس ثم لا يبقى . فقد يكون التمتع به سببا فى فقده كالذى يتغذى به الإنسان فإنه يفقد فورا، وقد يفقد بعد حين كاللباس والفراش والمسكن .

إذاً فكل متعة تفنى، وكما أنها تفنى باستعمالها فهى قليلة جدا حقيرة لا يجعلها الأعظم إلا الجاهل، والإنسان مع غفلته أقل من الحيوانات التى خلقت لتتمتع ثم تموت فتكون ترابا، فإن الحيوان إذا ملأ بطنه استراح من عناء طلب قوت غده ،ولكن هذا الإنسان ما أكفره ! يكون فى بيته ما يكفيه اليوم والشهر والسنة ولا يستريح ليلة من هم المعاش، والنملة خير منه فى هذا، فإنها تمكث شهورا طويلة ساكنة فى بيتها مطمئنة لا تشتغل بطلب رزق، فهى خير من الملوك . وإنسان أقل من النملة راحة ولذة أولى له أن يتمنى أن يكون ترابا .و بعيشك أخبرنى : متى استراح الإنسان وهو مطلوب للآخرة، عالم بأنه سيقف بين يدى الله يحاسب على الصغيرة والكبيرة، ويعتقد أنه إما إلى جنة وإما إلى نار! ومع ذلك ينسى كل ذلك ويقبل على مشتهياته فيضيع أنفاسه الغالية فى غفلة وجهالة ومنازعة ومعارضة وعناد وعدواة فى طلب مالا يبقى، فإذا جاءه رسول ربه أى الموت ندم ولات حين مندم، وقال : (رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا) [1] ومن أين له الرجعة والمسكين قد كان فى بحبوحة الوسعة وجاءه النذير .

(وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

المآب هو المرجع، مأخوذ من آب يؤوب، أى رجع يرجع، و(حُسْنُ الْمَآبِ) يعنى خيره، وهو يوم القيامة الذى تكون فيه مشتهيات الأرواح العالية من شهود جمال الله العلى، وسماع كلامه المقدس، والأنس بحضرته جل جلاله، ولذات العقول من شهود أنوار القدرة والحكمة فى حظائر الملكوت الأعلى، ولذات الجسم من مأكل شهى ومشرب لذيذ وملبس بهى، وملاذ الحس من منظر الجنة التى تعجز العبارة عن بيانها، فإن الإنسان الأول كان فى

---

(١) سورة المؤمنون آية ٩٩- ١٠٠

الجنة فكان يغذى حسه بمناظر الجنة من أزهار وأنهار وجمالات تسكر الأرواح، ويغذى جسمه بأنواع الملاذ من مأكل ومشرب من ثمار الجنة وطيرها ومائها وفاكهتها، وكان يغذى عقله بالنظر إلى بدائع إبداع البديع جل جلاله، وكان غذاء نفسه الطيب الحب والأنس بالله تعالى، فلما أهبط إلى الأرض غذى حسه بالنظر إلى أهوال ما يراه من المناظر البشعة، وغذى جسمه بقديد الثمار وغيرها وبعد الجهد الجهيد والعناء الفادح، وغذى غفله بالبحث عما يدفع به عن نفسه شر العاديات من وحوش البر وعناء البحر وخوف حيوانات الأرض، وفقد غذاء الروح الطاهرة، وأشهد الله الإنسان الأول نعيم الجنة وأشهده عناء الأرض ليخبر أولاده فيشتاقون إلى الجنة ويعملون لها، وأخرجه من الجنة بذنب واحد ليذكر أبناءه أن الساكن فى الجنة أخرج منها بذنب فيحذرهم من عمل الذنوب، وهنا أشير إليك إشارة تعلم أن أهل محبة الله فى الدنيا هم عند ربهم، وهم فوق التراب وتحت السماء، لأن محل نظر الله تعالى هو القلب، فإذا تعلقت همم العبد وعزائمه بربه، واستحضر حكمة إيجاده وسر إمداده تمثل هذا الجناب العلى بما يقدرعليه من التمثيل بحسب ما وهب الله له من القوة المتصورة فإذا كمل يقينه فى هذا المشهد كان وهو يمشى على الأرض عند ربه سبحانه من حيث عناية الله به وإقباله عليه بعواطفه وعوارفه .

ومن كان عند ربه فى الدنيا رفعه الله فى الآخرة فجعله عنده فى مقام الأنس به على بساط منادمته . ولما لم يكن هناك ألفاظ خاصة تدل على الله بلفظها ومعناها خاطبنا بما نعلم من الألفاظ بحسب مقدارنا العقلى ومنحنا سبحانه نورا نستبين به روح تلك الألفاظ فنسلمها لله تسليما . فنقول العندية معلومة والكيف مجهول .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥)

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾

يأمر الله تعالى حبيبه محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله (قل) للناس عامة بدليل قوله سبحانه (زين للناس) (أؤنبئكم) والاستفهام لتقرير وتثبيت الحقائق فى قلوب السامعين، و(أؤنبئكم) أخبركم خبرا جديدا فى قوة البشرى (بخير) أفعل تفضيل يعنى بأجمل وأفضل وأكمل مما

نزعت إلية نفوسكم ومالت إلية طباعكم المفطورة على حب المشتهيات من حب النساء والبنين إلى آخره، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله واسم الإشارة عائد إلى أنواع طيبات الحياة الدنيا المذكورة قبل .

(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)

الجار والمجرور متعلق بخير هى اسم التفضيل .

(عِندَ رَبِّهِمْ)

أى من الخير لهم أو معه لهم يوم القيامة . وفى هذه الآية إشارة إلى أن الذين اتقوا قدر الله لهم التقوى والنعيم المقيم من الأزل حتى لو انهم عاشوا فى المعاصى ـ وقد سبق لهم هذا الخير العظيم لنالوه فلا تأثير للأسباب وإنما جعلت الأسباب ابتلاء من الله تعالى لحكمة علية لا يعملها إلا الراسخون فى العلم لتظهر معانى الصفات جلية، وأن الله قد يؤاخذ العبد على طاعته فيدخله النار إذا عاملة بالعدل . وقد يقدر أرقى مقام لأهل الكفر به الذين عاشوا فى الكفر عشرات السنين، فيهديهم ويوفقهم قبل موقم، ليظهر جل جلاله قهارا منتقما غفورا رحيما .

(جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(جَنَّاتٌ) بدل من خير، ولك أن تقول جنات على النصب ويكون للمدح ،وعلى الرفع فيكون للاختصاص أى هى جنات، وكأن سائلا سأل ما هو الخير الذى أعده الله للذين اتقوا ؟ فقال : هو جنات، فظن أهل الدنيا أن الجنة فيها عناء السقيا والتعب فى تحصيل الماء فيطمئن الله قلوبهم بقوله (تجرى من تحتها الأنهر) فلما أخبرنا الله تعالى بالجنة وبالماء الذى يجرى تحت أشجارها تذكرنا الموت وانزعاج القلوب من وقوعة أو تذكره فقال سبحانه :

(خَالِدِينَ فِيهَا)

أى مقيمين فيها لا يخافون موتا ولا فوتا فحصلت البهجة للنفس ولكنا تذكرنا الوحشة فيها حيث لا أنيس

يؤنسنا لأن الإنسان شديد الطمع حريص على حسن مستقبله فقال تعالى ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ فحصل الأنس والسكون إلى الله تعالى، ولكنهم على يقين من إطلاق حضرة الربوبية فيخشون منه سبحانه أن يلتفت بوجهه الجميل عنهم فتكون وحشة الروح وألمها، فآنس الروح بقوله ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ﴾ الذى هو طلبة الأرواح بدليل قوله تعالى ﴿و رضوان من الله أكبر﴾ يعنى أكبر من الجنة وما فيها، لأن بهجة الأرواح فوق أشهى ملاذ الأشباح . وكم من مبتهج بروحه جائع عار متألم من الأستقام، وهو بهجة وأنس بالله تعالى لا يتأثر بشيء من ذلك . وكم من متمتع بكلمة (كن) وقلبه يذوب خوفا من حرمان الرضوان، فأنس الأرواح خير وأبقى من جنة الأشباح .

﴿وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾
أى محيط علمه بما هم عليه قلبا وقالبا، فيهب لمن أقبل عليه محقرا الدنيا ومستصغرا الآخرة فى جانب رضوانه الأكبر بمجاهدة نفسه، حتى يتجمل بالذكرالأكبرمما لا عين رأت فى جنة الرضوان على بساط الأنس وموائد الكرامة من الله التى تتغذى بها الأرواح غذاءها الخالص، وهى جنة من أحبهم الله واصطنعهم لنفسه ،ويعلم أيضا إنكار وجحود أهل النفاق والكفر بالله، فيحشرهم إلى دار العذاب الجسمانى والألم الروحانى فى نار مؤصدة على الأجسام، وتطلع على الأفئدة بعذاب الأرواح والضمائر .

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦)

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾
﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بدل من الذين الأولى، ويقولون وما يتعلق بها صلة . ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ ينادون ربهم القريب منهم بقدرته وحكمته وإحسانه وفضله نداء من يرونه بعيون بصائرهم ويشهدونه سميعا بصيرا مجيبا ﴿إِنَّنَا آمَنَّا﴾ خبر منهم والإيمان عقد القلب على ما جاء به رسول الله ﷺ وآله من عند الله تعالى . والمعنى أننا صدقنا محمدا ﷺ وآله فيما جاءنا به من عندك سبحانك تصديقا جعلنا نعلم رتبتنا من الوجود، وعجزنا عن القيام بشكرك على نعمتى الإيجاد والإمداد، وتقصيرنا عن المسارعة إلى القيام بما أمرتنا به ونهيتنا عنه، وذلك لما نعلمه

من فطر أنفسنا المهلمة ومن جواذب طبعنا الخبيث، وميلنا إلى الحظ والهوى، المقتضية التماس العفو والمغفرة منك سبحانك .

(فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

أى استر بسترك صغائرنا وكبائرنا عنا وعن معالمنا من الأرض وعن ملائكتك الحفظة علينا حتى نلقاك وليس علينا شاهد بذنب، (ذنوبنا) أى ما اجترحته جوارحنا مما يخالف الكتاب والسنة، واجعل غفرانك لنا وقاية تقينا بها من عذاب النار، بل ومن عذاب حسيسها، حتى نكون مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وفى هذه الآية إشارة إلى أن أهل الإيمان الكامل يعتقدون أن كمال الإيمان لا يجعل العبد يأمن جانب الله تعالى، ولكن يجعله وسطا يطمع فى مغفرته وعفوه، وجائز أن يكون المعنى فاغفر لنا همنا وخواطرنا وإرادتنا التى تجعل أنفاسنا غير مستغرقة فيما تحبه وترضاه، لأن أهل الإيمان الكامل تمثلوا قوله: (و هو معكم أينما كنتم) [1] ومن تمثل هذة الآية كيف يقوى أن يفعل ويرتكب صغيرة أو كبيرة ؟ وهؤلاء شغلهم بمعاصى القربات لا بمعاصى الجوارح، فقد يتقرب الرجل منهم إلى الله طويل ليله ثم يسىء الظن بنفسه فيقول : إن أعمالى هذه ليست خالصة لوجه الله ولكنها لعلة وغرض خفيين عنى، فيستغفر الله ويتوب إليه ويسأله الحفظ والوقاية، وشتان بين من يستغفر الله ويسأله الوقاية من عذاب النار وهو يبيت لربه قائما ساجدا ثم يستغفر الله فيسأله الحفظ من النار، وبين من يبيت وهو يتقلب فى الصغائر والكبائر ويستغفر الله .

و جائز أن تكون النار التى يسألون الله الوقاية منها هى نار النفس الأمارة بالسوء، ونار الطبع الخبيث، ونار الهوى والحظ التى تدفع الإنسان إلى ما يغضب الله تعالى وهى شر من نار القيامة، لأن تلك النار أبعدت عن الله وحجبت العبد عن مطالعته الغيب المصون وأبقته فى نار جهنم، فكانت عذابا للروح وعذابا للجسم . وشر أوقات أهل جهنم إذا تذكروا ما كانوا عليه من موجبات غضب الله، وخير أوقات أهل الجنة إذا تذكروا مجالس العلم وأوقات المجالسة فى الله تعالى، فتكون تلك الذكرى ألذ عندهم من الجنة، كما أن ذكرى

---

(١) سورة الحديد آية ٤

أهل جهنم تكون أشد عندهم ألماً من النار . ويقول تعالى مخبرا عن أهل النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) [١] ويقول عن أهل الجنة (وجوه يؤمئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة) [٢] ويقول سبحانه (وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[٣].

قوله تعالى : (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) (١٧)

(الصَّابِرِينَ)

الصبر لغة ثبات جند فى مقاومة عدو لهم، والصبر هنا هو ثبات جند الروح والعقل والنفس المطمئنة اللوامة فى مجاهدة النفس الأمارة بالسوء والحظ والهوى والطمع والحسد وكل الرذائل، فإذا ثبت جيش الحق أمام جيش الباطل وصف الإنسان بأنه صابر، والصبر يحسن فى موطنين : صبرعلى طاعة الله، وصبرعلى ترك معاصيه سبحانه فالصبر يكون فى القيام بالمأمورت والانتهاء عن المنهيات .

وأما فى الأقدار فليس للصبر مقام على فيها وإنما المقام العلى لأهل الرضا عن الله فيها ... والصبر هو حبس النفس على عمل ما أمر الله به وعلى ترك ما نهى الله عنه، فالصابرون هم الذين جملهم الله بتلك المعانى جمالا نفذت به نفوسهم المطمئنة من أقطار السموات والأرض بسلطان اليقين الحق، حتى شهدوا ما فوق ذلك من جمال وجلال وبهاء الله تعالى، وقد يبلغ بالصابرين المقام حتى يكون الله تعالى معهم . وفى الحديث عن على بن أبى طالب قال ﴿ﷺ وآله﴾ : [الصبر نصف الإيمان] وذلك لأن الإيمان تخلية وتحلية فالصبر تحمل مضض المجاهدة فى تزكية النفس وتخليتها عن رذائلها، فإذا تجردت النفس وصفا جوهرها واجهت عالم الغيب العلى فتمثلته وكانت بحالة من الكمال بحيث ترى أن الله تعالى معها .

(وَالصَّادِقِينَ)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦٧

(٢) سورة عبس آيتى ٣٨ – ٣٩

(٣) سورة القيامة آيتى ٢٢ – ٢٣

و الصدق يكون فى القول والحال والعمل والنوايا : أما الصدق فى القول فمعلوم وهو أن يخبر المتكلم خبرا مطابقا للواقع . أما الصدق فى الحال فإنه الانفعالات التى تظهرعلى الهيكل عند تأدية الخبر أو عند سماع ما يفهم

من الانفعالات التى تعترى الشخص عند إقامته الحجة والدلائل على صدق ما يخبر به . أما الصدق فى العمل فهو قيام الإنسان فى عمله بعامل يؤثرعلى قلوب الشاهدين له .

أما الصدق فى الوجهات والقصود فهو انبلاج الحقائق لروح الإنسان انبلاجاً يجعله صادقا فى نيته عند الله تعالى وعند الخلق .

و لما كان الصدق كائنا فى كل الأعمال والأقوال والأحوال والنوايا ناسب أن يكون بعد الصبر، لأن الصبر مقدم بالحقيقة ولولاه ما قام الإنسان بعظائم الأمور وصغائرها . وقد ثبت لك أن الصبر يكون لله وفى الله وبالله . ولكن لا يكون عن الله إلا عند الكفار به سبحانه وتعالى . وبعد الصبر يلزم أن يكون الصدق فإن العامل لا يعمل إلا ليفوز بالخير المقصود، فإذا لم يكن ثم صدق اعتورته الشكوك والريب، فإن أدى العمل مع تلك الشكوك و الريب حرم أجره .

وقد يتوانى ويتلهى عنه بما يقوم بالقلب من علامات الشك والريب والتكذيب الذى يعتريه، وقد ورد فى القرآن الثناء الجميل على الصادقين، حتى أخبر أن الصادقين جملهم الله بتلك الصفة منه – جل جلاله – بقوله تعالى : (و من أصدق من الله قيلا) [١] و(أصدق) أفعل تفضيل يدل على أن هناك صادقين والله أصدقهم . فوضع نفسه مع الصادقين فى مقام الفوقية ثناء منه سبحانه على أهل الصدق، والواو هنا وا لمدح لأن تلك الصفات السبع كلها لفرد واحد، وليست واو العطف لأنها لو كانت واو العطف للزم التغاير كما تقول جاء زيد وعمرو وأكلت اللبن وشربت الماء .

(وَالْقَانِتِينَ)

تقدم شرح القانتين، ولكنى لا أخلى الموضوع من مزيد لك . لما كان الصبر كما قدمت لك حبس النفس على محاب الله ومراضيه، والله جل جلاله ينعم علينا فى كل نفس نعما لا

---

(١) سورة النساء آية ١٢٢

تحصى، لزم أن يكون ذلك الحبس مستديما ليصح من الصابر الشكرعلى نعماه، ويكون القانت هنا المستديم على الإقامة فى محاب الله ومراضيه، ولكن القنوت الذى اصطلح عليه الفقهاء : هو الدعاء بعد الركوع أو قبله فى صلاة الصبح أو صلاة المغرب أو الوتر، وهو مشهور فى الفقه ويسمى القنوت . وهذه التسمية اصطلاحا عند الفقهاء، وكان ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا حزبه أمر قنت فى الصبح وفى المغرب وفى الوتر، وكان يترك هذا القنوت كثيرا إذا لم يكن هناك ما يدعو إليه ،وقد كان يقنت بالدعاء على من قتلوا الحفاظ من أكابر قريش بعد غزوة أحد فيقول : [اللهم العن فلانا وفلانا] .

فأنزل الله عليه : (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) [(١)] فترك ﴿ ﷺ وآله﴾ الدعاء عليهم، فالقانتون هم الذين كشف الله عن عيون بصائرهم سحب الجهالة والغفلة والهوى والطمع والحظ ،حتى شهدوا الدنيا على ما هى عليه والآخرة على ما هى عليه، وشهدوا كمال وجلال وجمال الله تعالى فأفردوه سبحانه بالعبادة دائمين عليها محافظين على أدائها بشروطها وآدابها وآنائها . والقنوت هو دوام رعاية واجب الوقت، ولا يراعى واجب الوقت إلا أهل العلم بالله .

فإن للوقت واجبا وحكما، وواجب الوقت يقدم شرعا على حكم الوقت . ودليل ذلك بسيط جدا لأن المسلم إذا وقف يصلى العصر عند غرو ب الشمس بحيث لا يسع الوقت إلا قدر ركعة ويخرج العصر عن الأداء إلى القضاء، فرأى رجلا أعمى يخشى عليه أن يتردى فى بئر ترك الصلاة وأسرع لينجيه لأن ذلك واجب الوقت . وإنى الآن أرى أكثر من يدعون العلم يجهلون واجب الوقت، فيكونون فى كبائر وهم عمل القربات لجهلهم ذلك الواجب المقدس .

(وَالْمُنفِقِينَ)

لما كان الصبر والصدق مما يجب على الإنسان أن يحصل العلم بهما حتى تتكون منهما فطرة النفس بعد نقش علمهما على جوهرها، ويكون بذلك مؤهلا للمسارعة إلى محاب الله ومراضيه فى نفسه وماله وأهله وولده . وكان المال شقيق النفس . وقد قدم الله فى النفقه

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨

آيات كثيرة فى سورة البقرة وبين وجوهها وفضلها وجزاءها، حتى بلغ الجزاء فى النفقة أن ضرب الله به مثلا فقال:(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) [1] وزاد على ذلك بقوله : (و الله يضعف لمن يشاء) فالنفقة هى بذل الفضل للمحتاج مطلقا ولو كان عاصيا، وفيها فريضة وهى إخراج زكاة الأموال وإعطاؤها لأصحابها الذين بينهم الله تعالى، ثم بر الوالدين فصله الرحم، فإكرام الضيف والجار حتى ينال أنواعا من الجمال الإلهى :

النوع الأول : أنه تخلق بخلق الله من حيث الكرم فهو الكريم وصفته الكرم .

النوع الثانى : أنه وثق بما فى يد الله بعد التوكل عليه .

النوع الثالث : أن ملىء قلبه رحمة بإخوانه المسلمين .

(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)

لما كانت دالة على كمال التوكل والثقة بالله تعالى وهو القسم المالى ناسب أن يذكر تعظيم الله وإجلاله بعدها فذكر المستغفرين بالإسحار . والسحر : هو آخر الليل قبل طلوع الفجر الصادق، وهو الوقت الذى يتسلط فيه الشيطان على الإنسان فيقهره بالنوم فإذا استيقظ فى هذا الوقت فكأنه حارب نفسه الأمارة بالسوء وطبعه الخبيث وقهر شيطانه، لأن هذا الوقت تقوى فيه الشهوة للنوم فلا يقوم فيه إلا من عظم أمر الله واشتاق إلى أن يشهد القريب المجيب سميعا لدعائه مجيبا له كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ [إن الله يترل فى كل ليلة قبل طلوع الفجر إلى سماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له] حتى إذا طلع الفجتر أشرقت أنوار انفجارالحقائق الإلهية بانفجار أنوار الصباح فشهد أنوار التترل الإلهى .

قال تعالى (إن قرءان الفجر كان مشهودا) [2] وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ((المستغفرون بالأسحار هم الذين يصلون الفجر والعشاء فى جماعة)) وقد ورد فى الأثر : [

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١

(٢) سورة الإسراء آية ٧٨

من صلى العشا والفجر فى جماعة فقد قام الليل كله] تفسيرا لقوله تعالى : (و الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) [1] أى يصلون العشاء والفجر فى جماعة فيكتب الله لهم قيام الليل .

وكان ابن مسعود يقوم فى الثلث الأخير من الليل ويجلس فيصلى ثم يقول لغلامه : يا نافع أسحرنا ؟ فيقول : لا، فيقوم فيصلى . فإذا قال أسحرنا جلس يستغفر الله ويقول : اللهم أمرتنا فأطعنا فاغفرلنا كما وعدتنا .

و كان الصحابة يستغفرون فى السحر بسيد الاستغفار . وسيد الاستغفار قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : [اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت] . ومن أحب وسعة الرزق ونسيئه العمر فليقل سبعين مرة : ((سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله)) فى وقت السحر. وفى الإستغفار بالأسحار تعظيم لجلال الله ولأمره سبحانه . ومن عظم هذا الجناب العلى عظمه الله بين خلقه، ورفعه يوم القيامة حتى يشرف على حظائر قدسه.

قال تعالى: (و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [2]. وقد ذكرت لك فيما سبق أن التوبة لا يكبر عليها رسول من أولى العزم، وأن الولاية لا يصغرعليها مؤمن مذنب، لأن الولايه فرع الإيمان وما أعطى الله الأصل لعبد إلا أهل لأعلى مقامات القرب مما يتفرع عن الإيمان .

قوله تعالى : (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١٨)

سبب نزول هذه الآية أن حبرين من أحبارالشام دخلا المدينة فقال أحدهما للآخر : إن هذا البلد هو الذى ذكره الله فى التوراة أن يكون فيه خاتم الأنبياء، وسألا فأخبرا أنه ظهر هنا رجل يدعى النبوة، فتوجها إلية ونظرا إليه فتحققا منه أنه هو خاتم الأنبياء، فقال له أحدهما : أنت محمد ؟ فقال : نعم . فقالا : أنت أحمد ؟ فقال : نعم . فقالا : إنا سائلاك عن شهادة

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٤

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩

. فقال : سلانى . فقالا : ما خير شهادة فى كتاب الله ؟ فأنزل الله تعالى قوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملئكة وأولوا العلم قائما بالقسط) الآية، فآمنا وصدقا . والشهادة لغة : هى الإخبار المقرون بالعلم المؤيد بالحجة، وهنا جمع الله تعالى بين شهادته وشهادة الملائكة وأولى العلم .

و معلوم أن مفهوم الشهادة فيها واحد، لأن المراد نفى الجحود والشريك، والإقرار بوجود الإله وبوحدانيته ،والعلم بالنبوة لا يستلزم العلم بنفى الشريك . فإن العلم بالنبوة محتاج إلى أدلة وبراهين تثبت أن هذا الرجل نبى .أما نفى الجحود وإثبات الوحدانية فقد شهد الله بهما لنفسه فى آيات كثيرة، كآية الكرسى وكسورة الإخلاص وكفاتحة سورة آل عمران، وشهد بها الملائكة وأولوا العلم . وشهادة الله لنفسه بذلك، لا تعد شهادة من الشاهد لنفسه ولكنها فى قوة أنه سبحانه أقام الحجج والأدلة والبراهين الناصعة للقلوب التى تعقل عن الله بما أجلاه فى الكون علوه وسفله من بدائع إبداع الصنعة، وعجائب تصريف القدرة، وغرائب أحكام الحكمة، حتى لو نظر ذو بصيرة إلى ذرة التراب والجماد، أو إلى أصغر حيوان، أو إلى قليل النسيم العليل البليل، أو إلى ما فوق ذلك من أرجاء وأجواء وأفلاك ثابتات وسائرات، وإلى ما فوق ذلك بأن أعانه الله بالسلطان فنفذ من أقطار السموات والأرض لشهد أنه لا إله إلا الله، منزها لذاته العلية عن أن تلد أو تولد، أو تحتاج إلى كائن ما، أو أن يكون لها شبيه أو نظير أو ضد أو ند، بل هو جل جلاله كما أخبر عن نفسه بقوله تعالى : (قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد)

ثم أتى بجوهرة كمال توحيد الموحدين وصفاء جواهر أنفسهم فقال الكلمة الفذة التى لم يتذوق حلاوتها إلا الأفراد المخصوصون، وهى قوله تعالى : (و لم يكن له كفوا أحد) . وتلك الكلمة لو فصل إجمالها وأشرقت أنوار مضنونها لصار من يمشى على التراب فوق الملائكة العالين كشفا وإيمانا وطمأنينة قلب ويقين، فإن فى كنزها الخفى عن العقول بل وعن الألباب سراضمحلال العرش وما أحاط به مع بروزه مجملا بجمال الآيات شوقا إلى شوقا من أبدع الكائنات . وكيف يرضى مؤمن أن يرى أو يحكم بمكافىء لله يتسلى به عنه جل جلاله ؟.

اللهم تجل لنا بجلى تبيان يمحق من قلوبنا ومن أمام أعيننا وجوارحنا كل ظل يستر عنا جمالك العلى .. هنا عطف الله الملائكة على نفسه، وعطف أولى العلم كذلك سبحانه وتعالى

بين بالحجج الناصعة للملائكة دلائل تفريده سبحانه بالألوهة، وبين لأولى العلم وبين أولى العلم للعامة . وفى ذلك ما فيه من الشرف والرفعة لأولى العلم . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [أكرموا العلماء فإن من أكرم العلماء فقد أكرم الله ورسوله] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [العلماء سرج الدنيا ومصابيح الآخرة] وهذا هو الحق، فإن العلماء ورثة الأنبياء، وما ورث الأنبياء درهما ولا دينارا ولكن ورثوا علما وهدى، فمن أخذ بقسط منها طويت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

و ما تقول فى قوم عطفهم الله على نفسه فى مقام إخباره بالشهادة عن نفسه حتى أقامهم مقام نفسه فى الشهادة له بأنه لا إله إلا هو ؟ يضيق بنا المقام إذا نحن فصلنا مجمل مقام العلماء ومنزلتهم من أمة محمد﴿ ﷺ وآله﴾. وغاية الأمر أنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء . وكان أكثر الصحابة يعتقدون أنه صلوات الله وسلامه عليه لن يموت ،فلما مات هم إبليس أن يدخل عليهم شبهة أنه ليس بخاتم الأنبياء لولا أن قام الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه فقال للصحابة : من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى:(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) [(١)] فرفع الصوت بالولولة على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

بعد أن ثبت لهم بالحجة القرآنية موته، وثبت لديهم أن الله يقيم له ورثة فى كل زمان يحيون ما اندرس من معالم شريعته ،فالعلماء هم أمناء الله على شرعه وائمة الناس للسلوك إلى الله وهم شموس الهدى . قال على عليه السلام : ((اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة إما ظاهرا مشهورا أو باطنا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته)) ومر أبو هريرة رضى الله عنه فى السوق فوجد أهل الأسواق فى غفلتهم فقال : يا قوم ما لكم إن ميراث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم فى المسجد . فابتدر الناس بيوتهم وأخذوا أموالهم إلى المسجد ليشتروا ميراث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

فلما دخلوا المسجد وجدوا أبا ذر الغفارى وسلمان يتكلمان بعضهما مع بعض، ولم يجدوا بيعا ولا شراء : فرجعوا إلى أبى هريرة ورموه بالكذب والبهتان فقال : ما هذا ؟ ! قالوا :

---

(١) سورة آل عمرا آية ١٤٤

أخبرتنا أن ميراث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقسم فى المسجد وذهبنا فلم نجد إلا أبا ذر وسلمان يتحدثان، فقال : هذا هو ميراث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وهل لرسول الله ميراث إلا هذا الذى يتقاسمه أبو ذر وسلمان ؟ فرجعوا على أنفسهم .

و لك أن تشرح الآية فتقول : شهد الله أنه لا إله قائما بالقسط إلا هو، وشهد الله أنه لا إله إلا هو (قائما) بالقسط . وعلى التفسير الأول تكون (قائما) صفة (لا إله) وعلى التفسير الثانى تكون حالا مؤكدة أو مؤسسة، ولك أن تقول:(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ)فتكون حالا من(أولوا العلم)

و لك تأويل آخر فتقول أن الله تعالى شهد لنفسه بتفريده بالألوهية، وبأنه حكم عدل لا يظلم فى خلق ولا فى رزق ولا فى تقدير ولا فى أمر ونهى، وشهد له الملائكة وأولوا العلم بما شهد به لنفسه، منفردا بالألوهة وبالعدل وبشىء آخر وهو قوله : (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فشهادة الله لنفسه لأمرين عظيمين . وشهادة الملائكة وأولوا العلم بما شهد به لنفسه جل جلاله وبأنه العزيز الحكيم، لأن العزة هى القدرة القعساء، والقوة القاهرة فى تنفيذ أحكامه وأقداره . والحكمة هى كمال العلم الذى به تبرز الأشياء على كمالها .

وهنا ظهرت حججه للملائكة ولأولى العلم ظهورا محسوسا لعيون الإيقان والإحسان والإيمان والإسلام، فإنهم نظروا بأعين الإسلام أولا فشهدوا من بدائع إبداع الآيات ما طمأن به قلوبهم على الإقرار له بالتوحيد إقراراً مقرونا بالعلم، فاعترفوا اعترافا دعا إليه ما تحققته جواهر نفوسهم ليتمكنوا من الإسلام، لأن الإسلام نطق باللسان وعمل بالجوارح، وهذا الإسلام فى فاتحته لأن أهل الجاهلية العمياء لم تكن لهم أوعية تسع النظر والبحث وبيان الأدله والحجج أولا حتى يسلموا تسليما .

قال تعالى : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) [1] لأن محل الإيمان القلب وذلك لأن الإيمان هو التصديق، أما بعد أن دق الدين أو تاده وضرب أطنابه فالإسلام والإيمان واحد ولا فرق بينهما، فإن الإسلام هو عقد القلب على عقيدة الحق وإلانة الجوارح على العمل بما أمر به، والإيمان هو المسارعة إلى العمل بما أمر الله بالجوارح وعقد القلب على عقيدة الحق .

(١) سورة الحجرات آية ١٤

و قد اختلف المتكلمون والمحدثون أى علماء التوحيد والحديث فى هذا الموضوع، فالإسلام والإيمان عند المحدثين واحد وعند المتكلمين اثنان . وقد أشار بعض أئمة الصوفية إلى أن المراد من الدين هو التوحيد الكامل وعقد القلب على ما بينه الله من العقيدة والنوايا والمحاسبات والمراقبات التى بالتمكين فيها تعتبر أعمال الجوارح صالحة وبدونها لا تعتبر ولا تقبل .

فجعلوا العبادة بالجوارح فرعا من أعمال القلوب، وجعلوا الإنسان إذا مات كامل الإيمان ولو كان مقصرا فى أعمال الجوارح دخل الجنة، قال تعالى : (إن الله لا يغفرأن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [١] والخلاف بين المحدثين وعلماء الصوفيه لفظى . فإن أئمة الصوفيه يعتقدون أن العبادة تقليد يقلد الولد أباه حتى يكون التقليد لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

أما علم القلب فهو الفرض الواجب على كل مسلم . ومتى حصل الإنسان علم القلب لانت جوارحه على القيام بما فرض الله تعالى، بل وسارعت إلى عمل نوافل الخير، ومتى خرب القلب من هذا العلم وملأ صفاح السموات وبطاح الأرض عملا لن يرفع ولن يقبل . وأكمل الإيمان الإيمان بالغيب، وقد أثنى الله تعالى على أهله وبشرنا عنهم بقوله : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) [٢] ثم أمرنا بعد ذلك بالبحث والنظر فقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيت لأولى الألبب) [٣] وآيات لأولى النهى، وعبرة لأولى الأبصار حثا منه سبحانه على طلب العلم، وقد رفع العلماء درجات عالية بعد الثناء على أهل الإيمان فقال سبحانه : (يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجت) [٤] وقال تعالى : (و قال الذين أوتوا العلم والإيمان) [٥] وقال

---

(١) سورة النساء آية ٤٨

(٢) سورة البقرة آية ٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٩٠

(٤) سورة المجادلة آية ١١

(٥) سورة الروم آية ٥٦

سبحانه : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [١] وشبه ذلك بالميت والحى والعمى والبصير .

كل ذلك ليبين فضل العلماء حتى نشتاق إلى العلم فنسارع إليه حيث لا علم إلا بالتعليم، إذن فيكون العالم قصد كل طالب لله تعالى وقليل ما هم .

قوله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(١٩)

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ)

هذه الآية جائز أن تكون من متعلقات (شهد) وتكون همزة (إن) مفتوحة أى أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، ويكون تأخيرها عن تقديم بمعنى الإقرار بعد الحجة بتفريد الألوهة وإثبات أنه جل جلاله حكم عدل، لقوله تعالى : (قائما بالقسط) ثم قال : (إن الدين عند الله الإسلم) بحذف حرف العطف ملحوظا .

وإن ورد فى بعض الروايات الشاذة، حتى روى عن ابن عباس أنه فتح الهمزة فى : (إن الدين) وكسرها فى (أنه لا إله إلا هو) وجعلها جملة معترضة، وجعل تفسيرالآية : (شهد الله) أن الدين عند الله الإسلام والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط وإنه لا إله إلا هو … وذكرت قبل (إن الدين عند الله الإسلام) فى حكم الجملة المعترضة .. وجائز لك كسر إن، وعليه أكثر القراء، وتكون الجملة مستأنفة وهى خبر عن الله تعالى إدحاضا لافتراء اليهود والنصارى الذين أنكروا نبوة محمدﷺ وآلهﷺ. والدين هو الطاعة والجزاء ومعناه : ما يدين به العبد ليفوز بالجزاء الحسن يوم القيامة .

والإسلام هو التسليم والإستسلام لأمر الله تعالى، وقد جاء خبرا عن الخليل فى قوله تعالى:(ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [٢] فإن الإسلام تسليم لله واستسلام لله .

---

(١) سورة الزمر آية ٩

(٢)

و فى تلك الكلمة جماع الفضائل الإسلامية من قيام لله بما أمر، ومسارعة فيما رغب فيه، وبعد عما نهى عنه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وكل تلك الحقائق مجملة فى لفظة إسلام بمعناها اللغوى، وهو دين آدم إلى عيسى، إلا أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أنزل الله عليهم الكتب بعقيدة وعبادة بقدر أزمنتهم ومقادير عقولهم، بحسب ما شهدوه فى الكون من خلق وصناعات وآثار وآيات، حتى أكمل الله الدين بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،فخاطب الأرواح بعد أن كان سبحانه فيما سبق يخاطب العقول والأشباح، وفصل مجمل العقيدة وزاد أحكاما بحسب الأحداث الزمنية، وبين المبهم مما سبق حتى قال سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلم) [1] الذى جاء به﴿ ﷺ وآله﴾ (دينا)و قال تعالى:(واعتصموا بحبل الله جميعا) [2] يعنى القرآن(ولاتفرقوا) أى لا تختلفوا على حبيبى ومصطفاى(واذكروا نعمت الله عليكم)محمد﴿ ﷺ وآله﴾ (إذ كنتم أعداء)قبل بعثته إليكم(فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته)أى بمحمد﴿ ﷺ وآله﴾ (إخوانا)كالجسد الواحد وكل أفرادكم كأعضاء هذا الجسد .

(و كنتم على شفا حفرة من النار) لكفركم وضلالكم وجاهليتكم ولم يكن بينكم وبين النار إلا الموت (فأنقذكم) الله (منها) بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

تقرر لك أن الإيمان والإسلام واحد بدليل ما ورد أن الصحابى كان يقول : ((ما الإيمان يا رسول الله ؟)) فكان ﴿ﷺ وآله﴾ يقول : [أن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة] إلى آخر الحديث، فإذا سأله عن الإسلام أخبره بما أخبر به السائل عن الإيمان . فتلك حجة على أن الإسلام والإيمان واحد، وهما كحبة القمح التى يغشاها النخالة ودون النخالة السن وفى باطنها النشا وهو اللب وكلها حبة واحدة، فكذلك الإسلام والإيمان والإحسان .

وعندى أن الإسلام بما يفهمه العلماء هو أساس البيت الذى لولاه لهدم، فإنك ترى البيت رفيعا جدا والأساس خفى ولكنه أمتن وأقوى من كل ما فوقه من المبانى، فمن تساهل فى صغيرة من أركان الإسلام هدم البيت جميعه ولو بلغ مقام الإيقان، وما تقرب المتقربون إلى الله بشىء أفضل من أداء ما فرض عليهم . قال ﴿ ﷺ وآله﴾ مخبرا عن الله تعالى : [وما

---

(١) سورة المائدة آية ٣

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه]و قد تخبط بعض المتصوفة فظنوا لجهلهم أن الإنسان إذا تجاوز مقام الإسلام إلى الإيمان فالإحسان، لم يطالبه الله بأركان الإسلام . وذلك صريح الكفر . فإن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوم وفاته ناداه بلال : من يصلى بالناس يا رسول الله ؟ فأمر العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب أن يحملاه بعد أن أمر أبا بكر بالصلاة، فدخلا به المحراب وهو يخطو برجليه، فلما رآه المسلمون فرحوا وهللوا وهم فى الصلاة فتأخر أبو بكر وتقدم العباس وعلى فأجلساه ﴿ ﷺ وآله﴾ فى المحراب، وأمر أبا بكر أن يصلى، وصلى بالناس جالسا .

وصلى بصلاته أبو بكر فلم يترك ﴿ ﷺ وآله﴾ الصلاة ونصفه الأسفل فارق الحياة . وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أن أصبح الناس وطعنه أبو لؤلؤة المجوسى قبحه الله وسال دمه فناداه ابن أم كلثوم : من يصلى بالناس يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هلك عمر إن كان فيه نفس وترك الصلاة، ارفعونى، فرفعه عبد الله بن عمر وآخر معه، وأدخلاه المحراب والدم يشخب من جرحه، وصلى بالناس .

وقد أخذ بذلك مالك بن أنس فقال : من به جرح أو قرحة تسيل دما فليصل بالناس فلا إثم عليه . فإذا كان لم يترك الصلاة وقد فارقت نصفه الحياة عليه الصلاة والسلام ، وعمر بن الخطاب لم يتركها وقد فقد الحس والحركة ولم يبق له إلا أنفاس قلائل، فكيف يدعى هؤلاء الأبالسة أن الصلاة تسقط عمن تملكه الشيطان بغروره ؟ فأركان الإسلام الخمسة هى أصول، وما زاد عليها من ولاية وحب وقرب هى فروع عنها، فإذا زالت الأصول انمحت الفروع .

والواجب على المسلمين أن لا يفارقوا موزاين الشريعة من قلوبهم ولا من أبدانهم . فإذا رأوا رجلا يمشى على الهواء أو على الماء أو يقول يا سماء أمطرى ويا أرض أنبتى فتفعل، وهو تارك لركن من أركان الإسلام فإنه شيطان يستدرجه الله تعالى ليفتن به أهل الضلالة، وأكرم كرامة من الله تعالى لعبده هى الاستقامة . وسبب هذا البلاء الذى هو الشطح والخروج عن موازين الشريعة صحبة أهل الهوى والطمع والحرص على الدنيا من الجهلاء ،ولا تنكر يا أخى . فإن الله إذا سبق فى قدره السوءى لعبد فعاقبته السوء ولو بلغ أن يكون طاووس الملائكة . كما فعل بإبليس وبرحيطا وبلعام بن باعوراء .

وإذا سبق فى قدره الحسنى لعبد رفع حتى يجلس على منبر من النور قدام عرش الله عز وجل ولو فعل ما فعل من الكبائر، كما فعل سبحانه بآدم وبآصف بن برخيا وبعمر بن الخطاب الذى توجه إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ليقتله . وسترد عليك أحداث يذكر كل واحد منها عند مقتضاه .

ولا تعجب فالذى أخرج آدم من الجنة بعد أن خلقه الله بيديه وأسجد له ملائكته وأسكنه فردوسه الأعلى

و نفخ فيه من روحه قد مكنه الله أن يخرج من جنة الرضا وجنة الشهود من سبقت لهم السوءى، أسأل الله أن يعيذنا بوجهه الجميل من الفتن المضلة ومن البلايا المذلة إنه مجيب الدعاء .

(وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى والجاهلون من العرب، واختلاف اليهود على موسى بن عمران لأنه عندما حضره الموت سلم التوارة لسبعين رجلا من خيرة بنى إسرائيل، وأناب عنه يوشع، فتمسكوا بما فيها ،

حتى جاء قرن بعد قرن، فغيروا وبدلوا وحرفوا بعد أن قامت الحجج . واختلاف النصارى أن بعضهم قال إن عيسى بن الله، وبعضهم قال هو الرب . وبعضهم قال بقداسة مريم .

وسبب ذلك أن المسيح لما رفع، وقدر الله صلب يهوذا الأسخريوطى، لأن جند الرومان الذين كلفوا بصلب المسيح كان معهم رجلان محكوم عليهما بالصلب و معهم يهوذا الذى دل عليه .

وكان من عادة الرومان أن لا يرفعوا الرجال على الصليب إلا قبل الفجر بقليل ،فخرجوا إلى الصحراء خوفا من تعصب أتباع المسيح، لأنه كان له رجال كثيرون يحبونه لما أظهره من المعجزات الباهرات، فلما جاء وقت الصلب رفع الله المسيح، وقام الرومان ففتشوا عليه فوجدوا يهوذا لا بسا كلباسه ووجهه كوجهه ولحيته كلحيته، فلم يشكوا أنه هو، فقبضوا عليه ووضعوه على الصليب، فنادى بأعلى صوته باكيا : يا إيلى لم شبقتنى ؟ يعنى يا ألله لم تركتنى . والرمان يعتقدون أنه المسيح بدليل قوله تعالى : (و ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه

لهم) [1] أى أن يهوذا كان أشبه الناس به فصلبوه على أنه هو المسيح، وبعد صلبه أخرجوه فصنعوا له لحدا ووضعوه فى القبر، وبينما هو على الصليب جاء جندى آخر فقال : ليس هذا المسيح ولكنه خادمه، فأخرجوه من القبر وألقوه خارج الصحراء خوفا من أن يفتش عليه فيثبت لدى الرؤساء أنه غيره فيؤاخذون الجنود .

و كان تلاميذ المسيح أربعة ففزعوا خوفا من أن يصلبهم الرومان، وفر متى ولوقا ويوحنا المعمدانى، وكان بطرس قبض عليه من قبل ذلك، وسئل : هل أنت تلميذ ليسوع أو تعرفه ؟ فقال : لست تلميذه ولا أعرفه وبطرس هذا هو الذى قال للمسيح يوم أحيا له عاذر : أنت الرب . فقال له المسيح : لقد قلت كلمة أغضبت الرب، وستنكرنى غداً يابطرس . فتأخر عن التلاميذ الثلاثة فلما فروا ليلا إلى الصحراء آووا إلى كهف هناك ،فجاءهم إبليس فى لباس عراقى وجلس فى جانبهم يبكى حتى أبكاهم فقالوا :علام تبكى ؟ فقال : على ابن ربنا الذى صلبه أعداؤنا . ثم نظر إليهم فقال : ما تقولون فيمن يخلق من الطين طيرا ثم ينفخ فيه فيكون طيرا ؟ قالوا هذا هو الرب بلسانهم . فقال متى وقال يوحنا : كذبت، المسيح ليس هو الرب . وقال لوقا : صدقت هو الرب .

و احسرتاه وبكى، فأخذه على يمينه . ثم نظر إلى الاثنين وقال : ماذا تقولان فى رجل ولدته قديسة من غير رجل و تكلم، وهو فى المهد عند نزوله من أمه، ثم أحيا الموتى ثم .. ثم .... أليس هو ابن الرب ؟ فقال يوحنا : كذبت، تنزه ربنا وتعالى عن أن يلد أو يولد . المسيح لم يرض أن يكون معلما صالحا، فكيف يرضى أن يكون ربا أو ابن رب ؟ . وقال متى : صدقت هو ابن الرب كما تقول : فأخذه على يمينه، ثم نظر إلى يوحنا وقال : ما تقول فى رجل أخبرنا عن الغيب المكنون، وجذبنا إلى ملكوت السماء، وأخرجنا من الهاوية، أليس هو ثالث ثلاثة ؟ فقال : نعم هو ثالث ثلاثة .

فأضلهم جميعا، وانتشروا فى البلاد فكان منهم رجل بمصر ورجل بروما . فرجل مصر أبقى له بقية وهو البطرك . ورجل روما أبقى له بقية وهو البابا . وهذا سبب اختلاف النصارى . والثالث فر إلى بلاد الشام والعرب، فمنه بقية نصارى الشام والعرب واختلافهم فى عيسى إلى ما قررته لك .

---

(١) سورة النساء آية ١٥٧

و قد اختلف اليهود والنصارى . فقال اليهود عزير بن الله وهو شمويل . والنصارى قالوا المسيح بن الله .

و كذلك اختلفوا فى مذاهبهم ونحلهم، ومللهم، فمنهم الماثونية واليعقوبية وغيرهما، وهم بضع وسبعون ملة، وقد حدث الآن مذهب زائد وهو مذهب البروتستنت الذين يسمون الإنجيليين وهم أبعد الناس عن تعاليم الإنجيل، كل هذا الاختلاف بعد أن قامت الدلائل الواضحة والحجج الناصعة وقامت الحجة ووضحت المحجة (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) [1] ... (و ما اختلف الذين أوتوا الكتب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) يعنى من بعد ما جاءهم الدلائل والحجج التى تقطع العذر حتى لا تجعل لواحد منهم عذرا .

ولكن ذلك الاختلاف كان عنادا وبغيا لا قصورا بل تقصيرا (بغيا بينهم) أى ما اختلفوا إلا للبغى منافسة فى حب الرياسة والطمع فى الدنيا لا لخدمة الدين ونصرة الله ورسوله، فبغيا جائز أن تكون مفعولا لأجله أو مفعولا مطلقا بالمعنى، أى وما اختلف بعضهم على بعض إلا بغيا .

(وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ)

يعنى أن الله أقام آياته دلائل واضحة كوضح النهار ظاهرة لأقل عقل من عقول الأناسى . ومع وضوح الدلائل دعاهم الهوى والحظ والشهوة بداعى النفس الأمارة بالسوء والطمع الخبيث ووسوسة إبليس، فأنكروا آيات الله وجحدوا به سبحانه وهو الكفر، لأن الكفر لغة هو الستر . ورجل تستر عنه حقيقة من الحقائق بستار كيف يحكم بها ؟ فكذلك الحظ والهوى والطمع والشهوة حجب على الآيات الربانية التى تكاد تكون أقرب إلى العقل من المحسوسات الملموسة. والغيب إنما يتضح بثلاثة دواع : العقل السليم، والجسم الصحيح، والخبر الصادق . والخبر عند أهل العقل أقوى فى الدلالة من العقل والحس، لأن الحس قد يكذب عليك فإنك ترى الشمس صغيرة وهى قدر الأرض عشرات الألوف ! وترى الجبل العالى قريبا منك جدا فتمشى الأيام الطوال حتى تصل إليه . ولو رفعت أصبعك لرأيته أرفع

---

(١)سورة الكهف آية ١٧

من أعلى منارة يؤذن عليها المؤذن . وفى ذلك حكم بكذب الحس . وكذلك إذا أصابت الحمى رجلا وتناول السكر وجده مرا، وذلك كذب. وكذلك العقل قد يخطىء فى قضاياه واستنتاجه . ولكن خبر الصادق فوق العقل والحس، خصوصا إذا قامت الحجة على صدقه وو ضحت المحجة باستقامته، وهم رسل الله عليهم الصلاة والسلام وورثتهم الأمناء على شرائعهم الذين ينوبون عن الرسل فى تبليغها للأمة .

﴿فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
معنى ذلك أن الذين يكفرون بآيات الله بعد أن ابتدأها بما يجعلها حقا مسلما به فإن الله لا ينسى نواياهم وقصودهم وأعمالهم بل يحفظها لهم ويؤاخذهم عليها إما فى الدنيا بسلب النعمة منهم وخزيهم وسرعة الانتقام منهم بسيوف المسلمين وإزالة دولتهم، أو يعذبهم يوم القيامة بأن يلقى بهم فى هاوية العذاب حيث الدرك الأسفل من النار وقد يعذبهم الله فى الدنيا والآخرة، وسرعة حساب الله متحققة لأن أيام الدنيا تنصرم حتى كأن الإنسان يعتقد أنه لم يتنفس فيها إلا نفسا واحدا، والسعيد من جمله الله بمحاسبة نفسه حتى ترقى إلى مقام المراقبة ومنها إلى حيث يكون مع الله والله تعالى معه .

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢٠)

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾
يخاطب الله محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بأمر اقتضى وقوعه الأمر الواقع، وهو تعصب كل أمة لدينها عنادا وبغيا.
و (حاجوك) أى جادلوك وأنكروا عليك (فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) الفاء رابطة لجواب الشرط ،و الوجه هنا العبادة والإخلاص، أو النفس بجميع ما يتعلق بها، ومن أسلم عبادته المعبرعنها بالوجه أو نفسه المعبرعنها بالوجه لله قربه الله سبحانه إليه وكفاه شرالخلق . وسبب نزول هذه الآية : أن مشركى العرب واليهود والنصارى يؤمنون بالخليل عليه

السلام ، ويقتدون به، فأنزل الله تلك الآية جذبا لقلوبهم، كما قال إبراهيم عليه السلام :(إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) [1] وهذه آخر حجة يبينها من هو على الحق بعد أن يكشف للمخالفين ما به يؤمن كل إنسان سبقت له الحسنى . فإن الرجل إذا أراد أن يبين الحق لقوم قال : إنى أسلمت لله أنا ومن اتبعنى، يعنى أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ يخبرالمختلفين عليه من اليهود والنصارى ومشركى العرب إنى بينت لكم كل البيان، وصرحت على هدايتكم للحق، وأنتم أنكرتم وجادلتم وحاججتم حججا واهية تبطلها الحقائق المحسوسة، فأنا ومن اتبعنى لا نرتد عن ديننا الذى ظهر الحق فيه جليا ،وكان عليه الخليل وموسى وعيسى، لأجل ما أنتم عليه من التعصب والعناد والبغى . وكأن هذه الآية تبرئه منهم جميعا، وتهديد بأنهم لن يضروه ولو اجتمعوا عليه . وقوله : (و من اتبعن) ولم يقل أنا ومن اتبعن لأن الواو هنا واو المعية يعنى وأتباعى أسلموا وجوههم لله.

(وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ) هذة الآية برهان على أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ رسول الله إلى العالم أجمع .لأن الله تعالى يقول لمحمد﴿ ﷺ وآله﴾:(وقل للذين أوتوا الكتب) من اليهود والنصارى (و الأميين) من عبدة الأصنام وعبدة الشمس والكواكب (ءأسلمتم) الهمزة للاستفهام التقريرى . وأسلمتم أى سلمتم أموركم وشئونكم وقلوبكم ونفوسكم لله، واتبعتمونى فيما جئتكم به من عند الله .

(فَإِنْ أَسْلَمُواْ)

و هذه الجملة الشرطية لا يصح وقوعها بعد الاستفهام، لأن الاستفهام إنشاء وهى خبر، والذى سوغ ذكرها بعد الاستفهام أن الاستفهام هنا بمعنى الأمر والمعنى أسلموا ثم فرع عليه هذا الخبر، وفى هذا دليل على أن الأدلة والبراهين قد أقامها الله تعالى على اليهود والنصارى حجة على تفريده سبحانه بالألوهة، وعلى أنه سبحانه المختص بالعبادة دون غيره من الأنداد والأصنام والشركاء، لأن هذه السورة مدنية والدلائل والبراهين القاطعة تقدمت فى البقرة وفى الآيات المكية، فقول الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ قل لهم أسلموا . أى

(١) سورة الأنعام آية ٧٩

أن الحجج قامت والأدلة وضحت، وما بقى إلا أن تسلموا، وهو ما تضمنه قوله تعالى : (ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا) .

(فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ)
قد بينت لك أن معنى أسلموا سلموا وسالموا كما ورد فى بعض الروايات فى قوله تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه السلام : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) [(1)] وإن كانت فوق العشرة . إلا أن معنى سلم وأسلم وسالم مدلول واحد . ومعنى : (فإن أسلموا) أى قبلوا ما جئتهم به من الهدى والبيان قبولا انعقد عليه القلب فاطمأن بذكر الله ولانت الجوارح لعبادة الله (فقد اهتدوا) الفاء رابطة للجواب لموضع قد .
و اهتدوا هى قبول الفيض المقدس من الله قبولا ينتج المطلوب وهو توحيد الله وعبادته سبحانه . وقد بينت لك أنواع الهداية فيما تقدم ومعنى (فقد اهتدوا) أى نالوا هداية الإحسان من الله بعد هداية الحجة والبيان .

(وَّإِن تَوَلَّوْاْ)
أى ارتدوا عن قبول آيات الله وحججه وجحدوا بوحدانيته سبحانه وأنكروا عليك ما جئتهم به .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ)
هذه الآية أنزلها لطمأنينة قلب محمد ﴿ﷺ وآله﴾ . لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحزنه إنكار اليهود و النصارى والمشركين عليه ،ولكمال أدبه مع الله ورحمته الواسعة بالعباد كان يحزن كثيرا رحمة بالخلق وظنا منه أنه أساء فى طريق الدعوة فتكاد نفسه تزهق، فأنزل الله عنه ما كان يجده فى نفسه من الغضاضة بقوله : (و إن تولوا) فإنا ما أقمناك لأجل أن تهديهم هداية الإحسان بل لأجل أن تهديهم هداية البيان، أما الهادى هداية الإحسان فأنا وحدى لا شريك لى، وأنا ما أقمتك هذا المقام إلا وقد أفرغت عليك أكمل

---

(١) سورة البقرة آية ١٣١

العطايا التى خصصتك بها، آمن بك القوم أم كفروا، فإنك حجة لهم أو حجة عليهم . وكم بين الله له ﴿ ﷺ وآله﴾ مما قص عليه من أخبار الرسل السابقين ما يثبت به فؤاده، ومع كل ذلك كانت الرحمة التى جمله الله بها، والرأفة التى خصه الله بها، لا تجعله يستريح حزنا على من أنكر عليه وارتد عنه، وكم يحزن ﴿ ﷺ وآله﴾ إذا عرضت عليه أعمال أمته فى ليلة الخميس والاثنين فرأى فى أعمالهم ما يكره، وكم يتحمل يوم القيامة من التبتل والتضرع لله أن يشفع فى أمته، كى لا يرى مسلما فى النار ،وكل ذلك مما جمله الله به فى قوله تعالى : (حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) [١] حيث جمله الله باسمى الرءوف الرحيم، ولو نظرنا بعين البصيرة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام وما كانوا بالنسبة لقومهم لرأينا أن كل نبى دعا على قومه فأهلكهم الله، أو مسخهم قردة وخنازير، أو أغرقهم فى البحر، أو خسف بهم الأرض . ولم يصبهم من الشدائد ما أصاب محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾، ومع ما تحمله من أذية قومه فإنه كان يرفع طرفه إلى السماء ويقول : [رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون] ومن نظر إلى تلك المقامات العلية لاستغرق حب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كلية قلبه، ويشكر الله شكرا عظيما على نعمة الله علينا به ﴿ ﷺ وآله﴾ ولإحياء سنته بكل رخيص وغال من كل نفس ونفيس، قياما بالواجب علينا لذاته ﴿ ﷺ وآله﴾ . ومعنى (فإنما عليك البلغ) حصر الواجب عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ لله وللخلق فى البلاغ الذى هو هداية البيان .

(وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)

آية جامعة لمعنى البشائر والتخويف، فالمقبل على الله المسارع إلى نيل رضاه، إذا انكشفت له تلك المعانى وتحقق أن الله بصير، أى بصير يرى أعماله القلبية والبدنية، يفرح ويطمئن ويسارع . والكافر المرتد والمنافق إذا انكشفت له أسرار تلك الآية من أن الله بصير، أى مبصر أعماله عليم بها قادر على أن يسرع بالنقمة إليه يترع بقلبه ويرتجع عن عمله ويسارع إلى التوبة والاستغفار فهى بشيرة ونذيرة، وهى للتهديد أقرب فإنها سيقت فى مقام الذم عند ذكر من تولوا عن قبول الهداية .

---

(١) سور التوبة آية ١٢٨

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ﴾

ابتدأ الله تعالى الآية بالتوكيد لتعظيم الخبر واحتياجه إلى المؤكدات لأهل القلوب القاسية، وهذه الآية يجب أن نتدبر معناها . فإن الخبر عن حال مستقبل الكافرين بآيات الله والذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس هم اليهود والنصارى قبل بعثة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ . فما معنى قوله يقتلون بلفظ المضارع الدال على الحال والاستقبال . ومعاصروا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اليهود والنصارى والمشركين لم يقتلوا نبيا ولا داعيا إلى الحق منذ نزول هذه الآية ولا بعدها . فنقول لمن فهم ذلك أن معنى هذه الآية أن اليهود والنصارى والمشركين قبل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فعلوا ذلك بعد كفرهم . ومعاصروا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ منهم كانوا حريصين على قتله .

وقد هموا بقتله عليه الصلاة والسلام مرارا . من ذلك أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ توجه إلى اليهود ومعه أبو بكر وعمر، وجلس تحت جدار بنى قريظة وقينقاع والنضير ودعاهم إلى الإسلام، فانتهزوا تلك الفرصة وأخلوا الدار التى جلس تحت جدارها عليه الصلاة والسلام ، وجهدوا أنفسهم فى أن يرفعوا حجر طاحون إلى علية البيت ثم يلقونه عليه وعلى صاحبيه.

و مكث كثير منهم يعالجونه حتى ارتفع الحجر إلى قمة السلم تقريبا وإذا بيهودى دخل عليهم فانزعج لحركتهم ،

و قال : ماهذا ؟ قالوا : نريد أن نلقى هذا الحجر على محمد وصاحبيه فنستريح منهم، فقال : إنى ومن أنزل التوارة لقد رأيت أبا القاسم داخل المدينة الآن . فارتجت فرائصهم فسقط منهم فقتلهم جميعا، والذى حصل أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمر أبا بكر وعمر أن يمكثا وطلب قضاء حاجة له وانصرف، فلما حصلت حركة سقوط الحجرعلى السلم و القوم مجتمعون عليه قام أبو بكر وعمر فانصرفا .

وهم اليهود بقتله مرة ثانية فى خيبر حيث وضعوا سم نفس فى ذراع الشاة، وهم يعلمون أنه ﴿ﷺ وآله﴾ كان لا يأكل من اللحم إلا الذراع . فلما قدم له الذراع كالعادة، نهش

منه دهشة فقال : يا محمد، إنى مسموم فنادى القوم : من وضع السم فى هذا الذراع ؟ قالوا : أعطنا الأمان، فجاءت امرأة وقالت : أنا التى وضعته، فإن كنت نبيا حفظك الله، وإن كنت كاذبا قتلتك . فعفا عنها رسول الله ولم يؤاخذها .

و قد هم المشركون بقتله ليلة الهجرة حيث جلسوا فى دار الندوة يتآمرون على قتله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقال أبو لهب : نأخذ عشرة فتيان من كل قبائل قريش، ويأخذ كل واحد سيفا فى يده ويهجمون عليه هجمة واحدة فيضيع دمه بين القبائل، ولا يقوى بنو هاشم على أخذ دمه . وقال أبو جهل : بل يجتمع خمسون من كبار القبائل ويفعل هذا ،فحضر إبليس اللعين فى زى رجل عراقى وقال : إنى لا أحب أن نسفك دم دجاجة فى محمد، عندى أن تنتخبوا عشرين رجلا من قريش فيقفوا على بابه فإذا خرج أنزلوا عليه السيف مرة واحدة فيضيع دمه، فأجمعوا على ذلك وعينوا ليلة لهذا العمل، فأوحى الله إليه بذلك وبين له الليلة . وقد شرحت سيرة الهجرة فى صحيح البخارى وغيره فلا حاجة لذكرها إلا فى محلها .

فطلب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عليا بن أبى طالب وقال : احضرعندى الليلة ونم على فراشى فإنى مهاجر لن يقتلك المشركون، فأطاع ولبى وأسرع فلما نام على فراش رسول الله، خرج ﴿ ﷺ وآله﴾ والقوم وقوف على يمين الباب وعلى يساره وفى يد كل منهم سيف مسلط، فتناول عليه الصلاة والسلام قبضة من التراب وقال : شاهت الوجوه، ورمى بها القوم فسقطت رؤوسهم على صدروهم كأنهم لا حس لهم ولا حركة .

و مر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من بينهم حتى وصل إلى أبى بكر وكان ينتظره خارج مكة .

و هم المشركون بقتله مرة أخرى يوم خرج للطائف يدعو، فسلطوا عليه أمية بن خلف، فأغرى به العبيد والغلمان، فصاروا يضربونه بالأحجار حتى سالت رجلاه دما، وسقط على الأرض فنادته الجبال : مرنا يا محمد أن ننطبق عليهم، قال : لا، عسى الله أن يخلق من ظهورهم من يؤمن بالله . وقالت السماء كذلك، ورجع يشخب دمه ﴿ ﷺ وآله﴾ . وهم المشركون بقتله يوم أحد حيث ضرب بالسيف فشجت جبهته وكسرت رباعيته .

وصاروا يغسلون له الدم وهو يقول﴿ ﷺ وآله﴾:(كيف يفلح قوم اسألوا دم نبيهم)و صار يدعو على فلان وفلان فى صلاة الصبح فأوحى الله إليه(ليس لك من المر شىء) [1]

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨

كل هذا بعض ما أصابه﴿ ﷺ وآله﴾ يقول:[رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون]. ولولا أن عصمه الله من الناس جميعا لقتله العالم أجمع، قال الله تعالى (و الله يعصمك من الناس) [1]
وقد قتل بنو إسرائيل زكريا ويحى وجرجيس وظنوا أنهم قتلوا المسيح وكذبوا وافتروا على الله . وكم قتلوا أنبياء غير مرسلين.
و عزمهم على قتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعصمة الله له صلوات الله وسلامه عليه ، دليل على أنهم يقتلون الأنبياء همة ونية وقصدا . قاتلهم الله أنى يؤفكون .

(وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ)
هى رواية الإجماع من أهل الأمصار . وقد بينت لك بعض من قتلوا على أيدى اليهود، وكان قتل زكريا و يحيى لأنهما أمرا أن يبيحا نكاح الأخت فأبيا فقتلهما ملك يهود . قتل يحيى فارا من الجند حتى لقيته شجرة فقال : أدخلينى، فأدخلته، فجاء القوم إلى الشجرة متحققين أنه ما جاوزها فأخذوا ينشرونها، فلما وصل المنشار إلى رأسه
فصاح، فأوحى الله إليه : لئن أعدت الصيحة لأمحون اسمك من ديوان النبيين، وما زالوا ينشرون حتى قطعوا رأسه .
قدمت لك فى قوله (يقتلون النبيين) أنه خبر عمن كانوا يفعلون هذا الفعل من سلف اليهود والنصارى وإن لم يفعل ذلك معاصروا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . إلا أنهم آباءهم وهم رضوان عن فعلهم فكأنهم فعلوا .

(وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) و فى رواية (و يقاتلون) قال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لرجل من الصحابة:[إن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فى صبيحة يوم، فقام أهل التقوى منهم ينكرون عليهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فقتلوهم فى مساء اليوم . قتلوا منهم مائة واثنى عشر من علمائهم].وسأل رجل رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ وقال:من شر الناس يا رسول الله ؟ قال : [من قتل نبيا أو من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر] أى ومن قتل من يأمر بالمعروف . والآية معطوفة على الآية قبلها . وهنا سر أبيحه لك، إن الله

(١) سورة المائدة آية ٦٧

سبحانه وتعالى خلق نفوس الأناسى من جواهر مختلفة وأعلاها وأصفاها مخلوق من نور الجمال الإلهى، الذى خلق الله منه نفس محمد ﴿ﷺ وآله﴾ وما خلق من هذا النور قبل عن الله ما أنزله على أنبيائه قبول تعقل، وفهم عن الله تعالى . وأما النفوس التى خلقت من أردأ الجواهر أو من سجين فإنها لا تقبل عن الله ولا تمنح العقل الذى يعقل عنه سبحانه، ولو تجلى لها لأنكرته كما ورد فى الحديث الشريف : [إن الله يتجلى لطائفة من أهل المحشر فيقول : أنا ربكم فيقولون له : إخسا ما عرفناك ولا عبدناك، فيظهر لهم بالجنة فيقول أنا ربكم فيقولون عرفناك وعبدناك . وينصرفون إلى الجنة .

ويتجلى لقوم آخرين بالمنعم فيقول لهم : أنا ربكم . فيقولون إخساً ما عرفناك ولا عبدناك . فيتجلى بجمال وجهه العلى فيقول : أنا ربكم فيخرون سجدا يقولون : عرفناك وعبدناك . ويأبون أن يجيبوا داعى الجنة].فأنواع النفوس تختلف باختلاف جواهرها . فترى النفوس العالية تأبى أن تقبل الباطل أو تميل إليه . ومن علاماتها أن قليل الحكمة يكفيها . قال ﴿ﷺ وآله﴾ [المؤمن يكفيه قليل الحكمة] والنفوس التى خلقت من أردأ الجواهر تسارع إلى الباطل بفطرتها . ذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى : [قبضت قبضة بيدى فقلت هذه للجنة ولا أبالى وهذه للنار ولا أبالى] .

و إنما هو النوايا التى تقيم الحجة على صفاء جواهر النفوس أو رداءة جواهرها . وتلك النوايا حجة لصاحب النفس الطاهرة وليست حجة على غيره . والحجة على الغير هى الجوارح . فكأن الجوارح بريد النفس تظهر مكنونها. فترى أهل النفوس الخبيثة تظهرعلى الجوارح شر الأعمال لأن نفوسهم لا تقبل إلا الشر . وأهل النفوس النورانية تظهر على الجوارح خشوعا وخضوعا وسمعا وطاعة ومسارعة إلى ما أمر به الله وما سنة رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ . وقد كشف الله تلك الحقائق لمن أقامهم مقام الرسل من الأبدال والصديقين والشهداء . فتراهم يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة من غير جدال، فإن الجدال مذموم لا يتعرض له إلا الجاهل بحقائق النفوس .

وفى ذمة قال تعالى : (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) (١) فإذا رأيت داعيا إلى الله يدعو بالحدة والحماقة والفظاظة فاعلم أنه جاهل بأساليب الدعوة . والداعى إلى الله حقا

(١) سورة الزخرف آية ٥٨

من جمله الله بما يحبه الناس حتى يحبوه . فإذا أحبوه لما جمله الله به من الأخلاق الجميلة والهدى والتواضع لله ولرسوله قبل الناس منه مذهبه ورأيه واقتدوا به فنجوا . وقد قدر الله تعالى لأنبيائه أن يقيمهم رعاة للبهائم من صغرهم ليعلموا كيف يقودون النفوس الجامحة البهيمية، حتى إذا كملوا وأهلوا للرسالة أفاضها عليهم فكانوا قد درسوا طرق الإمامة قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (١) مخاطبا حبيبه ومصطفاه .

وهى الحجة لنا على صدق دعوانا . و (القسط) هو العدل وهو الوسط من كل شىء . وهو الأمر بالحكمة والموعظة تأليفا لقلوب السامعين للموعظة . فإن الامر بالمعروف الناهى عن المنكر الجاهل بأسلوب الدعوة يضر الناس أكثر مما ينفعهم . والواجب أن الإنسان لا يقيم نفسه بدلا عن الأنبياء، ويدعو إلى الله تعالى إلا بعد أن يكون دعا نفسه فأجابت، فإن دعا نفسه فتعاصت عليه فالواجب أن يجاهدها حتى يعلم أساليب الدعوة . ومن دعا نفسه فقهرته كيف يدعو غيره فيطيعه . وقد كتبت فى هذا الموضوع فى كتاب معارج المقربين (٢) بعنوان : ((ادع نفسك فإن أطاعتك فادع غيرك)) .

(فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

البشرى هى الخبرعن حقيقة يجهلها المبشر . والبشرى هى خبر ولكنها لا تكون إلا بالخير . وهنا أتت فى العذاب ليتذوق أهل الإيمان منها أن بشرى هؤلاء القوم هى عذاب مؤلم . فكيف يكون تهديدهم وإنذارهم . وفيها معنى التبكيت والتوبيخ بأقصى مراتبه. والعذاب الأليم أى المؤلم شديد الألم. وفى قوله(يقتلون النبيين بغير حق)سر عجيب ! لأن قتل الأنبياء كله باطل . وليس ثم فى قتل الأنبياء حق حتى يقال بغير حق . والمعنى أنهم كانوا يطيعون أهواءهم ومذاهبهم الباطلة، وأراءهم الفاسدة، وأحبارهم ورهبانهم، ويرون فى ذلك أنه حق وعدل . ولو تدبروا الأمر فكروا فيه قليلا لظهر لهم باطلهم .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) تطلب مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم من مكتبة المدينة المنورة ١١٠ شارع مجلس الشعب – القاهرة

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٢٢)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

اسم الإشارة عائد إلى الموصول قبله فى قوله : ﴿إن الذين يكفرون بآيت الله﴾ الآية . حيث ذمهم بثلاث خصال من الشر فقال:﴿ يكفرون ﴾،﴿ ويقتلون النبيين ﴾،﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ وأخبر عنهم سبحانه بثلاثة أنواع من الجزاء الشديد . فقال : ﴿أولئك الذين حبطت أعملهم﴾ فأتى بالاسم الظاهر بدل الضمير هنا الذى كان يصح أن يقال هم الذين لتوضيح شديد عقوبتهم بذكر اسم الإشارة والموصول بعده . والأنواع الثلاثة التى ذكرها الله هى حبوط أعمالهم فى الدنيا، أو حبوطها فى الآخرة، وفقد الناصر يوم القيامة .

وكل قسط من تلك العقوبة عائد إلى خصلة من خصال الشر التى ذموا بها . وحبوط الأعمال فى الدنيا هو حرمانهم من ثوابها فى الدنيا والآخرة . أما حرمانهم من ثوابها فى الدنيا فلما يصيبهم الله به من الخزى والصغار بالجزية فى الدنيا . وبضيق ذات اليد عليهم وبما يصيبهم الله به من الآلام بالأمراض والإهانة . وأما حبوطها فى الآخرة فلما ينكشف لهم من الحقائق التى تثبت كذبهم على الله ورسوله وجحدوهم آياته، وبذلك يستحقون الدرك الأسفل من النار، ويحرمون ما كانوا يعتمدون عليه من جزاء الأعمال التى كانوا يزعمون أنها حق فى نظرهم .

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

لأن الناصر يوم القيامة الذين يقبل الله منهم الشفاعة فى أهلهم وإخوانهم هم أهل العلم والإيمان ،بدليل قوله تعالى : ﴿و قال الذين أوتوا العلم والإيمن لقد لبثتم فى كتب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ [١] ومعنى هذه الآية أن الذين يقبل الله منهم الشفاعة هم أعداء هؤلاء القوم حتى لو وقعت العين على العين هناك فإنهم يحاجونهم بالحجة ويقهرونهم بما وضحوه لهم من المحجة ،والعدو يحب الانتقام من عدوه فى هذا اليوم

---

(١) سورة الروم آية ٥٦

فكيف ينتظرون منهم النصرة . أما أحباب الذين يكفرون بالله ويقتلون النبيين ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فهم الشياطين والكفار والمنافقون الذين أوبقتهم أعمالهم فى نار جهنم . ومن كب على وجهه كيف تكون له نصرة أو شفاعة . وهذة الآية تدل على أنه فى يوم القيامة أنصار و شفعاء لأن الله تعالى نفى النصراء عن أعدائه . ونفيه للنصراء عن أعدائه مفهومه يدل على أن هناك نصراء

وشفعاء لأهل الإيمان من أحباب الله تعالى وأوليائه . ومنكر الشفاعة حاكم على الله والحكم لله . ومن حكم بغير حكم الله كفر . فما بالك بمن حكم على الله وهو الحاكم جل جلاله ؟ ! .

قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾

الاستفهام للتقرير وسبب نزول هذه الآية أن رجلا من بنى إسرائيل زنى وكان وجيها فى قومه فحكم عليه بعض الأحبار بالرجم، ولو جاهة الرجل والمرأة رغبوا أن يجدوا حكما يعتمدون عليه فى منع الرجم، فذهبوا إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وطلبوا منه أن يحكم بعدم الرجم فحكم به، فقال بعضهم : ليس هذا فى التوارة، قال : [بل فى التوارة فأتوا بها] . فجاءوا بها مع حبر منهم ففتح التوارة فى سفر الأحكام، ووضع يده على حكم الرجم وقال :ليس هنا يا محمد حكم للرجم، فقال عبد الله بن سلام : إن الرجل أخفى الآية بيده يا رسول الله، فرفعوا يده عن

الآية فوجدوا الحكم فحكم ﴿ﷺ وآله﴾ به .

و سبب آخر أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ توجه إلى اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقالوا : على أى دين نتبعك فقال : [على ملة إبراهيم] فقالوا : إن إبراهيم كان يهوديا فبين لهم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ الحجة، فأبوا بعد أن ثبت ذلك فى التوارة وثبتت نبوته وأخباره ومولده وبعثته واسمه ولقبه فى التوارة، فأنكروا ذلك كله فأنزل الله تعالى تلك الآية (ألم تر

يا محمد بعينى رأسك أو ترى بحكم عقلك أو ترى بما أخبرناك، فإن كل ذلك صادق أن يكون رؤيا، لأن المراد بالرؤيا إثبات الحقيقة التى يراد بيانها أو كشفها .

(يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ)

أى يدعوهم رسول الله «ﷺ وآله» إلى التوارة سواء أكان فى حكم الرجم أو فى حكم إثبات نبوته واتباعه للخليل عليه السلام كما صرحت التوارة .

(لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

فى الحقيقة التى اختلفوا فيها . وهى أن رسول الله «ﷺ وآله» وأصحابه يؤمنون بالله ورسوله وبما جاء فى التوارة ،واليهود يكفرون بالله ورسوله وبما جاء فى التوارة .

(ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ)

أتى بثم هنا وإن كان الزمان الذى حصل فيه النظر فى هذا الحكم قصيرا إلا أنه أتى بثم ليدل على بعد نفوسهم عن الحق وعلى أن أنفاسهم فى الباطل وإن كانت قصيرة إلا أنها كأنها زمن طويل لا ينتهى (ثم يتولى فريق منهم) أى يرجع عن الحق وينقلب إلى الباطل، وفى لفظه يتولى معان كثيرة، يقال تولى الولاية وتولى عن كذا أى رجع، وهنا بمعنى رجع وانقلب (فريق منهم) لم يخبرنا الله أن كل اليهود والنصارى تولوا بل أخبرنا أن فريقا منهم تولى، لأن بعض أحبارهم أسلم وسالم كعبد الله بن سلام وككعب الأحبار وغيرهما .

(وَهُم مُّعْرِضُونَ)

الواو هنا للحال، والجملة حالية والعامل فى الحال قوله (يتولى)، وصاحبه فاعل يتولى، وهو (فريق) . وفى هذه الآية إشارة إلى أن الإسلام كان يقرعهم بالحجة قبل الجهاد فكانت لهم الخيرة من أمرهم . ولم يقهر الإسلام بالسيف قوما من اليهود والنصارى ولا من المشركين، ولكن سيف الإسلام كان كالمشرط فى يد الحكيم الرفيق الشفيق وإنما يقطع الأعضاء الفاسدة المفسدة كالملوك المتألهين والجبابرة المتجبرين، بدليل أن الأسلام أمر بعدم قتل النصارى واليهود ما داموا يدفعون الجزية، ولو كان سيف الإسلام ظالما لمحق العالم، ولما بقى من اليهود والنصارى إنسان يتنفس نفسا، لأن الله مكن لسلفنا الصالح تمكينا حتى محقوا

القياصرة والأكاسرة . وكان من السهل محق كل نصرانى ويهودى على ظهر الأرض بكلمة صغيرة . ولكن الإسلام حرم ذلك، وقد طلب السلطان سليم الفاتح أن يستأصل النصارى من البلقان . وكان يمكنه بجرة قلم . ولكن قام فى وجهه الأستاذ الشيخ أبو السعود مفسر القرآن . وكان مفتيا فقال له : إنك إن فعلت ذلك خالفت الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ . ولكن الذى لك عليهم الجزية فحسب . وعندى أنه لو لم يقف الشيخ أبو السعود فى وجه السلطان سليم الفاتح هذا الموقف لاستراح الناس من شرور نصارى البلقان كاليونان والبلغار والأرمن وصربيا وغيرهم . والواجب على من يمكنه الله فى الأرض بالحق أن يكون حكمه القتل أو الإسلام أو الجزية [1] فإن الحجة قامت واضحة على سوء نواياهم بالنسبة للمسلمين وخصوصا اليهود .

قوله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (٢٤)

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ)

اسم الإشارة عائد إلى ما بين الله من أنواع الجزاءات لأولئك الكفار، فهو كعلة لوقوع هذا الجزاء، وتلك

العلة هى أنهم حكموا على الله تعالى أنه يجب عليه بالنسبة لما هم عليه افتراء منهم أنه سبحانه إنما يعذبهم فى النار ثمانية أيام أربعين يوما وهى التى عبدوا فيها العجل، وأنه لا يمكن أن يزيدهم إقامة فى النار أكثر من هذا ،بدليل قولهم (لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ) كذباً وافتراء على الله وغرورا بما كان يفتريه على الله أحبارهم وقادهم، ومع أنهم هم الذين افتروا هذا تناسوا ذلك، وزعموا أنه من عند الله تعالى، لأن أحبارهم كانوا يقولون لهم أنتم أبناء الله، والله بشر يعقوب بأن لا يدخل ولدا من أولاده النار، وأنتم أحباب الله والله لا يعذب حبيبه بالنار، ولكنكم تردون النار أربعين يوما مدة عبادهم العجل كما قدمت لك فكذبهم الله . وما بينت لك من قول أحبارهم لهم هو الذى غرهم فى دينهم قال تعالى :

(١) كلمة (الجزية) أضيفت بمعرفة مجمع البحوث عند التصريح بالنشر و لم ترد فى أصل التفسير

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أى ما كانوا يدعون من الفريه والكذب على الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾

هذه الآية الشريفة نهاية فى التهديد والوعيد ومعناها : فكيف يكون حالهم بعد عنادهم وبهتانهم وتكذيبهم لله ورسوله مما بينه الله تعالى فى الآيات السابقة، وبعد كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط، إذا أبرز الله حقائق ما توعدهم به وجمعهم ليوم تنكشف فيه آلات العذاب من سعير النار التى تحطمهم تحطيما، ثم يعودون أحياء ليحسوا شديد آلام العذاب، ولا يزالون كذلك إلى مالا نهاية .

وذكر اللام هنا مع أن المحل (فى)، لأن اللام تفيد أن هنا محذوفا بخلاف فى، فإنه لو قال فى يوم لا نتظر السامع ماذا يكون فيه، ولكنه تعالى ذكر اللام على أن هناك محذوفا هو شديد العذاب وعظيم المؤاخذة، لأن اللام تفيد وقوع أمر متوقع . فإنه كان يجوز أن يذكر يوم من غير اللام وفى، فيكون بمعنى (فى) ولكنه لا يفيد وقوع ما توعدهم الله به إلا بذكر اللام : فللام خصوصية ليست ل (فى) هذا الموطن . (لا ريب فيه) تقدم شرحها فى أول البقرة .

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾

أى وفى الله تعالى كل نفس ما كسبت . فالمراد بالكسب هنا ما سبق لها أزلا من الحسنى أو من السوءى، فقد يمكث العبد كافرا سبعين سنة ثم يهدى الله قلبه للإيمان فيؤمن، والموت قريب، فيدخله الله الجنة أبدا، ولم يكتسب شيئا سوى عقد القلب على التوحيد ونطق اللسان . كما حصل فى واقعة أحد عندما خرج أبو ذات الكرش فدعا للبراز حتى قتل عشرين من الصحابة ثم نادى : يا محمد أبرز لى فإما أن أقتلك ونستريح منك او تقتلنى وتستريح منى، فتبادر إليه أبو بكر فرده رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقال : متعنا يا أبا بكر . وطلب عليا بن أبى طالب فأمره بالخروج إليه، فأسرع على إلى فارس قريش، فلما رآه قال : ارجع يا غلام فإنى لا أقاتل الغلمان قال : لابد من حربك، قال : ما اسمك ؟ قال : على

بن أبي طالب، قال : ارجع فإن أباك كان خليلى قبل موته ولا أخونه، قال : لا أرجع . وهجم عليه على عليه السلام فقابله بضربة السيف فلقيها على بضربة مثلها، ثم هجم كل منهما على الآخر هجمة شديدة حتى سقط جواداهما من تحتهما، وقاما فتصارعا حتى ألقاه على على ظهره وعلا صدره بالسيف، فبصق الرجل فى وجه على، فتركه وانصرف، قال له : يا غلام أنت تمكنت منى وقد قتلت عشرين رجلا منكم وآذيت نبيكم وسببت ربكم وقد تمكنت منى فما الذى منعك أن تقتلنى ؟ قال : إنى هممت أن أقتلك لله، فلما بصقت فى وجهى خشيت أن أقتلك لحظى .

فقال الفارس : أنتم تراعون هذا فى مثل تلك المضايق ؟ قال : ويلك، وفى أضيق منها، قال : مد يدك فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قام على قدميه وركب جواده ووجه وجهه إلى قريش وقال : إنى كنت أحارب الله ورسوله، والآن أنا أحارب مع الله ورسوله، وهجم فقتل وقتل ولم يعمل فى الإسلام عملا إلا عقد قلبه على التوحيد فمات شهيدا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وما الذى كسبه هذا ؟ كسب حرب الله ورسوله وقتل أحبابه وأصحاب نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ . ولكنه من نفس واحد فى الأخلاق رفع إلى معية الأنبياء .

و هنا يجب أن نؤول قوله تعالى (ما كسبت) أى ما تفضل الله به عليها فى الأزل من رحمة وهداية وعناية ،أو ما قدره عدلا من كفر وجحد وإنكار وعناد . ولا لزوم للإطالة فيما قال العلماء . وهذا معنى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وبذلك نستريح من الجدل فى الكسب فى خلق الله الأفعال، أو خلق العبد لها . فإن الله تعالى يتفضل على العبيد بالإيمان فالاستقامة، فالإقبال عليه سبحانه، فشرح صدره، فلين جوارحه : فضل بعد فضل، بعد فضل، ثم يتفضل بالفضل الأعظم فينسب إليه ما تفضل به عليه، ثم يتفضل عليه بفضل أفضل من هذا فيجازية عليه بالحسنى .

وهو المتفضل أولا وآخرا . ويقدر إيجاد العبد ويصوغ نفسه من نوع من أنواع الجواهر الرديئة ويقدر عليه الأعمال التى يكرهها ويقيمه فيها، ثم يخفى عنه القدر وسره، ثم يتفضل فيقول : هذا هو سبيل الحلال وهذا سبيل الحرام ويحجب عنه أنوار التوحيد : حتى يرى لنفسه عملا، وقوة وحولا، يفعل ما شاء أن يفعل: يدفعه إلى ذلك حظه وشهوته، وقدر الله السابق عليه . فإذا وقع فيما قدرعليه ونفذه الله على يديه سقط فى يده وقال : قدر الله

على فلم يعلم أنه قدره عليه إلا بعد وقوعه . وهذا من نسيان العبد لربه جهلا منه بقدر نفسه وقدر ربه . وتلك النفوس بل والعناصر التى أحاطت بها خلقت من طينة الخبال لتخلد فى النار . ولايسأل عما يفعل .

(وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)

لأن الله تعالى تنزه عن الظلم والتظالم، وإنما هو عدل او فضل .

قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٢٦)

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ لما عمل بمشورة سلمان الفارسى، فقام هو وأصحابه رضى الله عنهم لحفر الخندق قسم أصحابه، فجعل قوما منهم للحفر، وقوما لحمل التراب وكانوا يتبادلون . وكان رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعمل معهم بالتساوى فينزل للحفرة مرة ويخرج للحمل مرة أخرى حتى جاء الصحابة إليه، وكان إذا حزبهم أمر عظيم لجئوا إليه، فقالوا : يا رسول الله : كدية يعنى صخرة عظيمة لا تعمل فيها المعاول

فقال : أنا نازل للحفر بعد تمام نوبتى فى الحمل، فلما أتم ما عليه قال : [أين هى الكدية ؟] ونزل ﴿ﷺ وآله﴾ وأخذ المعول وضرب به الكدية فصارت رملا أهيل وأشرق منها لمعان نورعم الجهة التى هم فيها فقال:؟ [الله أكبر فتحت لى فارس]، ثم ضرب الثانية على كدية أخرى فكان ما كان أولا وصارت رملا وقال : [الله أكبر فتحت لى عمان]، والثالثة فكان ما كان وقال : [الله أكبر فتحت لى الروم]، فقال المنافقون . هذا الكاذب يخاف من طغام العرب فيخندق حول بيته ويدعى أنه يملك فارس وعمان والروم .

ومكث بعضهم على النفاق حتى زمان أبى بكر، فلما فتح الله فارس وما حواليها، وتولى عمر بن الخطاب فتح الله الروم ومصر وعمان وقامت الحجة صدقوا. وكان ﴿ﷺ وآله﴾ يسأل الله أن يفتح لأمته ممكلة فارس والروم، وكان اليهود والنصارى وكفار قريش يجعلون ذلك من المبالغة فى الكلام، فأنزل الله تعالى (قل) يا محمد (اللهم) أعنى يا ألله بحذف حرف

النداء وإبدالها بميم مفتوحة فى الاخر (ملك الملك) أى المنفرد بالملك فى الدنيا والآخر، ومالك الملك هو الملك حقا الذى لا ينازعه فى ملكه منازع .

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء)

أى تهب الملك . والملك هنا مؤول بالنبوة والحكمة وميراث النبوة، وإن كان عند من لا يفهم تأويل القرآن فهو ملك الأرض فحسب . قال تعالى : (و لقد ءاتينا بنى إسرائيل الكتب والحكم والنبوة) [1] لأن ملك الأرض وإن كان نعمة عظمى يهبها الله لمن يشاء فإنه إذا تجرد من أسرار النبوة وأسرار الحكمة كان بلاء على صاحبه .

ورجل يرضى لنفسه أن يسمى ملكا فى الأرض وهو عبد تقهره بطنه فيأكل وتقهره فيتبرز ويقهره ما يحيط به من حر وقر، وتعتوره الأسقام والآلام والفتن فى نفسه وفى ماله وفى أهله، إنه لملك كذاب دعى، والملك حقا من أثر فى كل شىء ولا يؤثر فيه شىء، واستغنى عن كل شىء واحتاج إليه كل شىء، وهو الله جل جلاله أو من وهب له النبوة والحكمة .

و معنى إيتائه الملك أن يهب له شيئا من الخيرات ينتفع به هو وغيره، فإن آتى تفيد التعميم وأعطى تفيد التخصيص ..قال تعالى : (و لقد آتينٰك سبعا من المثنى والقرآن العظيم) [2] أى لتنتفع أنت وغيرك وقال سبحانه : (إنا أعطيناك الكوثر) أى خصصناك به لنفع نفسك ومن تشاء.

(وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء)

أى تمنعه أو تسلبه بعد إيتائه .. وهنا يمكننا أن نقول : قد يكون ذلك فى ملك الأرض فقط، فإن الله لا يهب لعبد النبوة والحكمة الغالية ويسلبها منه، قال تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون) [3] وفى هذه الآية كمال أخلاق الحضرة العلية فى تصرفاتها، إلا أننا بحسب

---

(١)سورة الجاثية آية ١٦

(٢) سورة الحجر آية ٨٧

(٣) سورة الحجر آية ٩

حسن الظن فى الله وبحسب الاستقراء نحكم أن الله إذا تفضل على عبد بما يحبه سبحانه حفظه عليه .

ومعنى (تؤتى الملك من تشاء وتترع الملك ممن تشاء) أى يعطى الملك من يشاء أن يعطيه إياه علىحد ما ذكرته لك، ويترعه ممن يشاء أن يترعه منه .

(وَتُعِزُّ مَن تَشَاء)

أى تعز من تشاء أن تعزه بكمال الإيمان وبالعلم والتوفيق للتقوى والاستقامة، فيكون عزيزا به سبحانه فى الدنيا بنيل الكرامة ورفعة المترلة وتسخير الأعداء وتخديم الأولياء، عزيزا بالله فى الآخرة بإكرامه سبحانه له عند قيامه من قبره، فيحمل على دواب من نور إلى مقعد صدق، أو إلى الفردوس الأعلى، أو إلى جنة من الجنان، أو يرفعه فى الآخرة إلى أن يؤنسه بشهود وجه ربه تعالى .

(وَتُذِلُّ مَن تَشَاء)

بحرمانه من أن يشرح الله صدره ومن أن يوفقه لما يحبه تعالى ويرضاه، وبإقامته فى معاصى الله ومخالفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وبذله فى الآخرة بوقوفه للحساب بالمرورعلى الصراط وبالوقوف للميزان إن كان مؤمنا وبدخول جهنم لتطهيره . أو بقيامه من القبر وسوقة بمقامع من الحديد إلى أن يلقى به فى نار جهنم إن كان كافرا . وما كان الله بظلام للعبيد .

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

معلوم أن الله سبحانه أخبرنا بأن الملكوت بيد واحدة منه . وأن الملك بيد واحدة منه قال تعالى : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) (١) وقال تعالى (تبارك الذى بيده الملك) (٢) ثم أخبرنا بأنه خلق آدم بيديه معا، يد الملك والملكوت . فقوله هنا : (بيدك الخير) حصر الخير فى يده سبحانه . و(بيدك) متعلق بمحذوف خبر مقدم والخير مبتدأ مؤخر لأن الخير

---

(١) سورة يس آية ٨٣

(٢) أول سورة الملك

كله بيد الله تعالى يهبه لمن يشاء ويمنعه ممن يشاء، وهو المعطى المانع جل جلاله . ولى هنا أن أبين لك أن الله تعالى ما خلق الشر فى قدره وكل ما قدره جل جلاله خير . ولو انكشفت الحقائق لعيون البصائر لرضينا عن الله فيما قدر تحققا بأنه لا يقدر إلا خيرا، وما تشقشق به ألسنة أهل الجهالة بالحقائق من أن الأقدار منها خير ومنها شر فذلك لجهالتهم بحكمة إيجاد كل تلك الأشياء التى قد يعتبرونها خيرا وقد يعتبرونها شرا .

و عندى أن الأمر الذى يرونه خيرا هو من الخير . وأن الأمر الذى يرونه شرا هو عين الخير لأنهم يرون الفقر والمرض والفاقة والذل وفقد نيل المشتهى شرا، ويرون كثرة المال والعافية ونيل الرياسة والسيادة والجاه والفوز بالانتقام من الأعداء خيرا، وليس ذلك بخير فى الحقيقة لأن الخير فى الحقيقة هو الله تعالى .

ومن رأى أن الخير غير الله تعالى كذب على نفسه . وقد جهل الناس أربع حقائق الخير والسعادة واللذة والنوم فإن اللذة عند الجائع خبز وأدم، وعند العريان ثوب، وعند الخائف أمن، وعند من توفرت له تلك الأشياء لذته بامرأة فإذا نالها فبولد ،فإذا ناله فبمال وعقار وهكذا . و ليست تلك الحقائق لذة، ولكن اللذة الحقيقة هى نيل وإدراك ما هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر، فلو أن رجلا أبله نال ملك الأرض لم يكن متلذذا لأنه لم يدرك منه شيئا .

وكذلك لو أن رجلا مجنونا أعطى كل ما يشتهى الإنسان أن يناله ما تلذذ به .

و إنى أبين لك الحقيقة ... الأكل فى نظرك لذة وهو عندى دفع الألم، لأن الإنسان يأكل ليعالج مرضا، وهو خلاء فى جوفه، وألم فى معدته، ومعالج المرض ليس متلذذا . ودليل ذلك أنه لو ملأ بطنه وتناول لقمة قذفها وأبى أن يقبلها فلو كان لذة لما شبع منه ولما تألم منه . وكذلك الجماع يراه أهل الجهالة لذة وليس بلذة لأن المنى إذا اجتمع فى المجموع المنوى سرى إلى العروق ثم إلى الأنثيين ثم إلى العروق فى الذكر وحصلت شدة الشبق كأنه مريض يريد أن يدفعه، فإذا دفعه حصل له الملل والتعب والكسل، ولو كان لذة لما دعا إليه هذا الألم ولما أعقبه ذلك الألم .

وكذلك الثياب فإن ظواهر الجو تدعو إليها من حر وقر فإذا اشتدت حرارة الجو وكان يلبس ثيابا كثيرة امتلأ جسمه حبوبا وحكة فى جلده حتى يخلع ما عليه من الثياب فيخففها رغم أنفه مما يصيبه من الألم، وإذا نزلت درجة الحرارة أسرع إليها فلبسها وذلك هو الدواء

لدفع المرض . وكذلك النوم فإن النائم لا يتذوق لذة النوم لا قبله ولا فيه ولا بعده أما قبله فإن الإنسان لا يتلذذ بمفقود . وأما فيه فإن الحواس محجوبة . وأما بعده فلا يتلذذ بمفقود أيضا فقد جهل الناس تلك الحقائق وكذلك السعادة والخير . فمن ظن أن الخير مال يوفره أو جاه يجدده أو قوة ينفذ بها انتقامه فقد وقع فى الشر من حيث لا يعلم، ولذلك يقول الله تعالى : (بيدك الخير) يعنى أنه سبحانه يهب الخير الحقيقى عنده لمن يشاء من خلقه وهو معرفة الله والشوق إليه والتضحية بكل شيء فى سبيل الوصول إليه . وهذا هو الخير الذى ينتفع به العبد فى الدنيا والآخرة .

وما عدا ذلك مما يراه أهل الجهالة فستنكشف الحقائق وترفع البراقع، ويظهر أن وعد الله حق ووعيده حق، ويندم الظالمون ولات حين مندم .

و أهل الجهالة يحكمون على ما يلائم طباعهم بأنه خير، ومالا يلائمها بأنه شر، والخير قد بينه الله تعالى ،والشر فصله لذى عقل يعقل عن الله .

(إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

هذه الآية ...يأمر الله تعالى محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقولها وفيها الاسم الأعظم، وهى دعاء وتوحيد وشهود أما كونها دعاء، فلأن فى طيها أعطنى الملك ولا تنزعه منى لأنك مالك الملك، ولأن الخير بيدك، ولأنك على كل شئ قدير وأما أنها توحيد، فلأنها أكمل مشهد من مشاهد التوحيد لأن الله ما أمر حبيبه محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ أن يقولها بلسانه إلا بعد أن أجلى له حقائقها، فشهد باليقين الأكمل أن الله مالك الملك وأنه يهبه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء وأنه على كل شيء قدير .

وهذا هو كنز التوحيد الذى لو فك طلسمه عن كنز لا نمحى ما بين السماء والأرض، حتى يرى من شهد هذه المعانى وجه الله محيطا به بدليل قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) (١) على قول وتحقق الصوفية أن هذا خبر من الله وخطاب لأهل الخصوصية الممنوحين هذا المشهد . ومن كان على كل شيء قدير كان كل مقدور مبدع بقدرته وصنعه سبحانه . وقادر أبدع كل شيء يلزم أن يكون له التصريف المطلق فى كل شيء من إعطاء ومنع

(١) سورة البقرة آية ١١٥

وإعزاز وإذلال وما يلحق بها . ونكر (شيء) ليدل على أنه قادر على عظيم الأشياء وصغيرها كما قال لموسى عليه السلام في التوارة : ((يا موسى سلنى شسع نعلك وملح قدرك)) وشسع النعل : أى سلة أن يخيط لك نعلك إذا تمزق وسلة الملح لطعامك إشارة إلى أن يسأل فى العظيم والصغير ولا معطى لعظيم ولا صغير إلا الله جل جلاله ولذلك أتى بشيء نكرة . (و قدير) بمعنى فعيل تفيد المبالغة ولو قال قادر لا تنفى معنى (قدير) .

قوله تعالى :(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٢٧)

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ)

بينت لك عند شرح قوله : (قل اللهم ملك الملك) أن هذه الآية وما بعدها سيقت مساق الأدلة على تفريد الله تعالى بالإيجاد والإمداد وخلق الأفعال، وبينت لك أن الملك الذى يعطيه الله هو الحكمة والنبوة . وهنا أزيدك وهو جائز أن الملك الذى يمنحه الله العبد ولو فى أسرته، أو محلته التى يقيم فيها بين أهله وجيرانه، وبقدر وسعة التصريف تكون عظمة الملك وإن جهل من منحهم الله الملك بما أولاهم الله من نعم . أما الملك الحقيقى الذى يدوم مجده فى الدنيا والآخرة فهو النبوة والحكمة، وهذان يهبهما الله لأحبائه من وراث رسله – صلوات الله وسلامه عليهم يجددون للناس معالم دينهم .

ولما بين الله تعالى أنه مالك الملك لا فرق بين الحقائق الثابتة والمتحركة والحية والجامدة من زمان ومكان وأفلاك وأجواء وأرجاء أيد ذلك بقوله سبحانه : (تولج اليل فى النهار) أى يدخل الليل فى النهار فتكون ساعات من الليل داخلة فى النهار مضيئة بعد أن كانت مظلمة حتى يبدو النهار خمس عشرة ساعة ويكون النهار فى زمن تسع ساعات . وذلك لحكمة اقتضاها بقاء الأنواع متمتعة بضرورياتها وكمالياتها لتعتدل العناصر بتغيير الفصول وتنتج الحاصلات بحسب ما هى محتاجة إليه من حر وقر ونسيم عليل بليل أو هواء حار .

ولذلك تنضج المعادن والنباتات والثمار، وتنتج الحيوانات، ويعيش الإنسان فى بحبوحة العافية متمتعا بضرورياته وكمالياته .

وإن اعترض علينا معترض بأن هناك أقاليم تستوى فيها الفصول كبعض نقاط قريبة من خط الاستواء فنقول له إن تلك المناطق خلقها الله مطهرة للهواء لا تصلح فيها معيشة للإنسان ولا للأنواع الحية إلا القليل منها مما تعوذ الحر الشديد المحرق، فإن المنطقة المحترقة بنقطة خط الاستواء إلى درجة خمسة شمالا ومثلها جنوبا تشتد فيها الحرارة اشتداداً حتى لو وضع اللحم على أحجارها لاحترق، وهى معمل لتطهير الهواء، وهى لمصلحة كل حى على الأرض، فإن تيار الهواء يأتى من القطب الشمالى إلى تلك المنطقة ويأتى من القطب الجنوبى إليها كذلك، فإذا وصل إليها تحلل واحترق ما فيه من الميكروبات والحيوانات السامة وارتفع بعد تحلله إلى أعلى الأفق، ثم افترق فكان منه تيار إلى الجنوب من أعلى الأفق وتيار إلى الشمال،

فيترل تيار الشمال عند القطب الشمالى حارا فى فصل الجليد بحيث لو وجد هناك حيوان هلك من شدة البرودة فيترل تيار الهواء عليه حار فيحيى نباته وحيواناته وأناسيه بحكمة ورحمة من الله تعالى . كما أن الله تعالى جعل فى المحيط المتجمد الشمالى إلى شمال بحر الظلمات وشمال المحيط الهادى تيارات مائية محترقة تمر فتحيى ما فيه من الحيوانات بحرارتها، كما جعل سبحانه فوق البحار المتنائية شمالا وجنوبا طبقة من الثلج تمنع اتصال هواء الجو الذى هو أشد برودة من الثلج بعشر درجات تقريبا إلى النباتات وإلى الأسماك السابحة فى البحار . وإن كثيرا من سكان الأقطار الشمالية خصوصا الفقراء والمسافرين فى كهوف من الثلج خوفا من برد الهواء .

(وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

أى وتدخل أجزاء مضيئة من أجزاء النهار فى ظلمة الليل لحكمة تخفى إلا على أهل البصائر، وما يعلمه العقل منها أن ذلك يكون لراحة الأبدان من عناء العمل، ولحفظ العينين من شدة أشعة الشمس، ولحفظ العناصر من أن يتغلب عنصر الحرارة واليبوسة لشدة الحرارة وكثرة الأعمال على الجسم فيهلكه، وقد جهل الإنسان تلك الحكمة فأطال النهار على الليل بما اخترعه من آلات النور والحرارة التى يستعملها فى المدن ليصرف أوقات الليل فى عمل الدنيا جاهلا بقدر صحته، ولذلك فقد كثرت الأمراض كثرة لا تحصر وتعددت أنواعها، وكانت الأمراض فيما سبق قبل تلك المخترعات لا تتجاوز الأصابع عدا

أما الآن فأصبحنا نرى فى بنى الإنسان أمراضا لا تحصى عدا . وكل ذلك من أن الإنسان جهل حكمة الله تعالى فى شروق الشمس وغروبها . فإن الشمس إذا طلعت نشط كل شىء على وجه الأرض، فترى الديكة تصيح والحمير تنهق وبنى آدم يسارعون إلى مزارعهم ومتاجرهم وصناعتهم وحرفهم . وإذا غربت الشمس سكن كل حى إلى مأواه لتدوم صحته وعافيته أو تتوفر أمواله وقوته .

ولكن قتل الإنسان ما أكفره . فرح بما اخترعه بسبب الصناعات فلم يكفه عمل النهار من كل أعمال سعيه حتى أخذ قسطا وافرا من الليل، فصرت لا ترى إنسانا إلا وهو يشكو بدوار فى رأسه وألم فى عينه، وتعب فى مفاصله ،وضعف فى معدته، وخمول فى قواه العصبية والعقلية . كل ذلك لأنه جهل حكمة الله فى تقدير الليل والنهار وفى نقص كل واحد منهما جزءا وإضافته للآخر . فلو أن الإنسان فقد حكمة الله فى إيجاد الأشياء وعلم أنها خلقت له لاستراح وأراح فى الدنيا والآخرة، ولكان وهو فوق الأرض فى جنة عالية بما يشهده بعيون روحه فى بدائع إبداع صنع الله تعالى .

(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ)

يعنى تخرج المؤمن من الكافر كما أخرج إبراهيم عليه السلام من آزر . وتخرج الكافر من المؤمن كما أخرج كنعان من نوح، ولك أن تتوسع فيها فتقول تخرج الإنسان من النطفة والدجاجة من البيضة والسنبلة من الحبة والنخلة من النواة . كما قال تعالى (يحى الأرض بعد موتها) [1] فيخرج النبات من الأرض الجماد ،سبحانه من قادر على كل شىء .. وفى الميت لغتان : لغة التخفيف والتشديد وهما بمعنى واحد وبأيهما قرأت فأنت مصيب . إلا أن اللغة العامة بالتشديد فقد فدق بعض الأدباء بين التخفيف والتشديد فقال : الميت بالتخفيف هو من دخل القبر، والميت بالتشديد هو من اعتورته المصائب حتى كأنه مات . قال فى ذلك :

ليس من مات فاستراح بميت .. إنما الميت ميت الأحياء

(١) سورة الحديد آية ١٧

هذه الآيات تشير إلى أعلى مشاهد التوحيد لأهل التفريد وهم فى مزيد، لأن مالك الملك الذى يملك ولا يملك بخلاف غيره من الملاك . ويؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز ويذل وبيده الخير . وقد قدمت لك أنه سبحانه منفرد جل جلاله بأن الخير بيده وأنه لم يخلق شرا فى الأزل أى لم يقدره . وجميع ما أراده وأبرزه خير بدليل قوله تعالى : (بيدك الخير) وإن كان جائزا أن تقول فيه اكتفاء أى بيدك الخير والشر كما قال تعالى (سرابيل تقيكم الحر) [1] أى والبرد فحذفه اكتفاء بذكر الحر . وهنا حذف الشر اكتفاء بذكر الخير : وهو على كل شىء قدير .

وبعد ذلك قال تعالى : (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) لتشهد عيون الأرواح تفريده بالأعمال وقيامه سبحانه بقدرته وقيوميته بالإيجاد والإمداد والإعطاء والمنع . فمن أهل منهم يشهد ذلك عين يقين، ومنهم من يشهده حق يقين، ومنهم من يتذوقه ذوقا، ومهم من يعلمه عند سماع القرآن فيقوى يقينه به . وويل لمن سمع تلك الآيات فمسح بها سبلته .

(وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)

هذا أيضا من مقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى أمره الله تعالى به، والواو هنا للعطف والجملة معطوفة على ما قبلها، والرزق هو ما مكنك الله من التصريف فيه من مال وعقار وخول وحشم وأهل وأولاد .

و بعضهم يقول : الرزق ما انتفعت به منفعة تجعلك تفنية فى نفسك أو فى متاعك وما عدا ذلك فليس برزق . والرزق هنا ما يتفضل به على العبد لروحه وعقله ونفسه وجسمه وحسه . وخير رزق الله تعالى ما يتفضل الله به على العبد من غذاء الروح الذى هو العلم والمعرفة، والحب والشوق والذوق والكشف والاصطناع والاصطفاء وقبول التوب والغفران وشهود جماله الظاهر فى الكونين، وغير ذلك مما لا يسطر على الأوراق، ولا تفى به العبارة،ولا تبينه الإشارة، وما تقول فى رزق الله الذى من به على رسله وفضل بعضهم على بعض بالكلام وبالرؤية وبغير ذلك مما لا تعمله الأرواح الطاهرة فضلا عن أن تتذوقه .

---

(١) سورة النحل آية ٨١

ورزق الله فى الحقيقة بغير حساب . ولذلك خصه الله لمن يشاء لأن الله تعالى لو حاسب العالم لما منح مخلوقا من خلقه نفسا يتنفسه فى الهواء فضلا عن غير ذلك من النعم ...

أما ما عدا ذلك فإنه قد يحاسب . وإنا لنطمع أن يرزقنا ربنا جل جلاله رزقه العالى المعنوى من غير حساب فى الدار الآخرة، ونسأله أنه إذا قدر علينا حسابه فيها أن يجعل حسابنا حسابا يسيرا، أو أن يعرض علينا أعمالنا لنعترف بها على أنفسنا فتستر وتغفر كما بين رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى تفسير الحساب اليسير . ونعوذ بالله من الحساب. وكيف لا والقاضى يكون هو الله – تعالى – والشاهد علينا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

قوله تعالى : ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)

﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

سبب نزول هذة الآية : هو أن بعض أحبار اليهود معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سعوا بين المؤمنين ليردوهم عن دينهم . وكان حاطب بن أبى بلتعة القيسى يود كفار قريش و يواصلهم حتى كتب لهم رسالة بتوجه رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ إلى فتح مكة، أعطاها لامرأة من قريش كانت مغنية فى المدينة يحذر قريشا من جيش رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و يأمرهم بالاحتياط للقائه،

و هى أكبر خيانة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأعلم الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ بذلك فأرسل عليا بن أبي طالب و آخر من معه و قال : أدركا فى مكان كذا امرأة و معها كتاب، فلما وصلا إلى المكان وجداها هناك فطلبا منها الرسالة، فأقسمت أيمانا مغلظة و حلت شعرها و عملت أعمالا تخدع، فأبى على رضى الله عنه إلا أن تخرج الكتاب و قال لها : كذبت و صدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فأبت، فقال : ؟ إن لم تخرجى الكتاب فتشت فرجك، فلما علمت عزمه على أخذ الكتاب قالت : غض بصرك عنى فغض بصره فأخرجته و ناولته إياه، فرجع يقول : صدق رسول الله و كذبت، حتى وصل إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و قرىء الجواب فإذا به من حاطب القيسى يشرح لكفار قريش حال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و

عزمه على غزو مكة، فوقف عمر و بيده السيف مصلت يقول : مرني يا رسول الله أن أقتل هذا المنافق فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ مه يا عمر، و قال لحاطب : ما الذى دعاك لهذا ؟ فقال : و الله يا رسول الله ما نافقت بعد الإيمان و لكن كل رجل من المهاجرين معى له عصبة فى مكة يدفعون عن أهله و أولاده، و أنا رجل وضيع فى قريش ، و أخشى إن داهمهم الجيش أن يقتلوا أهلى و أولادى، فأقدمت على هذا معتقداً أن الله ناصرك و مؤيدك، فهم عمر أن يثب عليه فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : دعه يا عمر لعل الله نظر إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

و من أسباب نزول الآية : أن عبادة بن الصامت كان له أحلاف من اليهود، و فى وقعة الأحزاب قال : يا رسول الله إن لى خمسمائة يهودى من الأحلاف أو أخرجهم معى فى الجيش ؟ فقال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما معناه : ((لا حاجة لنا بهم و إن الله أغنانى عن نصرهم))و من أسباب نزولها أيضا : أن عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين كان يتودد إلى اليهود و إلى قريش و يتمنى نصرهم على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : و هو يظهر الإسلام و هو الذى قال لرسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة تبوك حينما قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ :(كن معنا و أضمن لك أن ترجع وردفك رومية جميلة). فقال : ائذن لى يا محمد و لا تفتنى، فزعم هذا المنافق أن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ ﷺ وآله﴾ يفتنه كما ورد فى القرآن فرده الله على عقبه و ارتد معه كثير من جيش رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

كل تلك الأحداث التى ذكرتها لك كانت سببا فى أن الله تعالى أنزل هذه الآية فقال سبحانه و تعالى : (لا يتخذ المؤمن الكفرين أولياء من دون المؤمنين) الآية . و تأويل هذه الأية أنها أنزلت للترغيب و الترهيب و فى قوله : (لا يتخذ المؤمن) نهى تحريم . و قد قدمت لك معنى المؤمنين و معنى الكافرين . و المعنى لا يتخذ الذين صدقوا الله و رسوله من كذبوا الله و رسوله أولياء من دون المصدقين الذين هم أولى بالولاية و أحق بها ، فإن كان الذى يتولاهم راضيا عن كفرهم فرحا بولايتهم كفر و طلقت زوجاته ... و الواجب على المسلمين أن لا يصلوا على جنازته و لا يدفنوه فى قبور المسلمين لقوله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله و اليوم الآخر يودون من حاد الله و رسوله .) [1] الآية . و قوله تعالى : (لا

(١)سورة المجادلة آية ٢٢

تتخذوا عدوى و عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) [1] و قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض و من يتولهم منكم فإنه منهم) [2] أما أن كانت الولاية للمسلمين و غيرهم سواء مع عقد القلب على بعض أهل الكفر بالله أو كانت لقرابة نسبيه كما كان فى زمن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من وجود مشركين أقارب للمسلمين أو علاقة اقتضتها دواع زمنية لا تؤدى إلى حب أو ود أو رضا مع عقد القلب على البغض الشديد لكل دين يخالف الإسلام فذلك مالا يقتضى الكفر، إلا أنه منهى عنه .

(وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ)

تهديد من الله تعالى لمن تميل قلوبهم للمودة و الولاء لغير المسلمين، أى و من يفعل ذلك الذى هو اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء فليس من الله أى من ولاية الله فى شىء . و لما كانت الشريعة المطهرة أنزلها الله لمصالح العالم و هو يعلم ما فى سجايا الناس من الفطرة على طلب المنافع و دفع المضار، و أن الحق قد يعلو فيكثر أهله، و أن الباطل قد يظهر فيكثر أهله، رحمنا سبحانه بأن جعل لنا مندوحة تجعلنا نعيش فى صفاء فى كل أطوار الكون فقال :

(إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً)

و تتقوا : يعنى تخافوا و أتى بلفظة تقاة لأنها ليست مصدر تتقوا، و لكنها اسم مصدر فإن مصدر تتقوا ((اتقاء))، و التقاة هى الوقاية التى يخاف الإنسان أن لولم يتوق بها أهلك نفسه أو ماله أو عرضه و قد قال تعالى : (إلا من أكره و قلبه بالإيمان) [3] و التقاة هنا مصورة بصور عدة، منها أن يكون الإنسان بين قوم كافرين فيخفى ما فى قلبه و يظهر بلسانه موالاتهم بالبشاشة و التأليف، و هى رخصة من الله حفظا للدم و المال و العرض ، و إن كان بعض العلماء قال : لا يجب النظر إلى التقاة إلا عند الخوف على الدم فقط، إلا أن

---

(١) سورة الممتحنة آية ١

(٢) سورة المائدة آية ٥١

(٣) سورة النحل آية ١٠٦

هذا تضييق، و قد ورد أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ قال : [من مات دون ماله فهو شهيد] و من التقاه أنه إذا قهره أهل الكفر على أن يكفر أو يقتل فله أن يظهر كلمة الكفر بلسانه مع عقد قلبه على بغضهم و كمال الإيمان حتى يسلم من القتل و هى رخصة من الله .

و قد أمرنا بمداراة الناس لأنه أصبح بين المسلمين و بعضهم كما بين الكفار و المسلمين بالنسبة للبدع التى حدثت و التعصبات التى ظهرت و المذاهب التى يسموها سياسية و هى شيطانية، فترى المؤمن يوالى الكفار و المسلمين المتحدين على رأى سياسى باطل و يعادى إخوته المؤمنين، و من لم يراع فى ذلك المداراة مع وقاية قلبه من أن يحب أو يعتاد محبة من جهلوا الله و رسوله و أيامه خيف عليه من سلب الإيمان و العياذ بالله تعالى، و كم نجد من المسلمين جماعات يحاربون المسلم و من معه من الملسمين، و ينصرون الكافر و من معه من أتباعه و أشياعه من المسلمين الجاهلين، غير ملاحظين فى ذلك إلا و لا ذمة .

و هنا عندى تحسن التقاة خوفا على النفس و العرض و المال، فإن إثارة العواطف قد تلقى العداوة و البغضاء بين الوالد و ابنه و الأخ و أخيه تعصبا جاهليا، و هى فتنة شيطانية أعاذ الله المجتمع الإسلامى منها و من أسبابها . و لو نظرنا فى هذه الأيام بعين البصيرة إلى المجتمع الإسلامى لوجدنا تلك البذرة الخبيثة تفرعت من سو يداء القلوب إلى جميع الجوارح، فأصبح الناس بدلا من أن يعبدوا الشمس و القمر و العجل يعبدون الزعماء الذين لا يعملون بدين و لا بسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و لا يحفظون قومية أمتهم، ويرون أنفسهم على زعمهم مسلمين .

و ما الإسلام إلا التسليم لله و رسوله و للأئمة الراشدين المرشدين . أما دعوى الإسلام مع الخروج عليه و العمل بغير شرائعه فهى دعوى لم تقم عليها حجة، و الدعاوى التى لا حجة تؤيدها باطلة . و إن الصلاة عادة و الصيام جلادة و الدين المعاملة .

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)

لما كانت النفوس ميالة إلى حب العاجل مما يلائم الحس و الشهوة، و هذا الحب قد يعمى عيون البصائر فتنقلب الحقائق بحب الهوى و الحظ إلى ضدها، فترى الحسن قبيحا و القبيح حسنا، كما يتذوق المريض طعم السكر مرا أو كما يكره الأرمد أن يرى ضوء الشمس، و كذلك أهل العلل الشهوانية إذا وجدوا رخصة من الله لعبادة استعملوها ليتذرعوا بها أمام

الخلق، فتراهم يسارعون إلى أعداء الله و يتولونهم و ينصرونهم، فإذا ذكروا بأيام الله قالوا : إننا نتقى منهم تقاة، و يعلم الله أن قلوبهم منعقدة على حب غير الله سواء كان فى مرضاة الله أو فى مساخطه، فقطع الله عذرهم و أقام عليهم الحجة و أرجعهم إلى الحق بقوله تعالى : (و يحذركم الله نفسه) و معنى هذا أى يخوفكم تخويفا شديدا يجعلكم تراقبونه فى كل أعمالكم مراقبة توقفكم عند أعمال الشريعة و حدود الله تعالى . و فى هذه الآية إنذار من الله تعالى لمن يتلاعبون برخصه سبحانه و تعالى أو يفتحون أبواب الفتن بالرخص .

﴿وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴾
هذه الآية وعيد من الله تعالى تترعج منها قلوب أهل الإيمان فى تلك الدار الدنيا، و هى حجة على أهل الغفلة، و معناها أن مرجع العباد و مصيرهم إلى الله العليم بسرهم و جهرهم و خواطر قلوبهم و حركات جوارحهم و همم نفوسهم، فيجازى المحسن بما أعده له و وعده به، و يجازى المسيء بالعذاب الأليم و العقاب الشديد .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾
يكشف الله تعالى الحجاب بالبيان كل البيان حتى يقيم الحجة على أهل النفاق و أهل الشك و الريب ، حجة تقصم ظهورهم، لأنهم يخدعون الناس بإظهار ما ليس فى قلوبهم كما قال تعالى : ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾[1] فيظهرون للناس أنهم أهل حكمة و مراقبة و مداراة ليجذبوا قلوب الناس إليهم و هم لا يراقبون الله و لا يحاسبون أنفسهم، فألزمهم الله الحجة بقوله : (قل إن تخفوا ما فى صدوركم) مما ألم بها من دواعى الحظ و الهوى و الشهوة و الطمع و الغرور بالدنيا تخفونه عن الناس و تظهرون أنفسكم بمظهر أهل الدين و التقوى، (أو تبدوه للناس بالتفضح فى معاصى الله أو تعدوه من تكلف الأتقياء أمام الناس

(١) سورة الفتح آية ١١

لتخدعوهم .

(يَعْلَمْهُ اللَّهُ)

جواب الشرط و هذا و إن كان لفظه شرطا إلا أنه متضمن معنى الخبر من الله تعالى، و هو حكم علينا بأن الله يعلم سرنا و نجوانا، و يعلم أخفى من ذلك .

(وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

الجملة استئنافية و الواو هنا للاستئناف، و من علم ما فى السموات و ما فى الأرض من الآيات و الأسرار و الخواص و الكميات و المقادير يلزم أن يكون عالما بالسموات و الأرض من باب أولى، فإن من علم بما فى الظرف من الحقائق الخفية عن الأبصار يكون علمه بنفس الظرف أولى و أكمل . و إن كثيرا من أهل العلم قد علمهم الله من علوم القرآن سبعين ألف علم، قال على كرم الله وجهه : ((تلقيت من رسول الله ألف علم، و استنبطت من كل علم ألف علم)) فيكون معلوم على عليه السلام ألف ألف علم كلها فى القرآن . أما أولياء الله فإن الله إذا صافاهم أشهدهم فى القرآن سبعين ألف علم، و قد بينت بعضها فى كتاب : (الإسلام نسب) .

و هنا يحسن أن أبين لك شيئا اختلف فيه علماء الظاهر و هو أن الله ما ذكر الأرض إلا و أفردها و ليس ثم دليل على أن الأرض سبع أراض إلا ما تمسك به بعضهم من قوله سبحانه : (خلق سبع سموت و من الأرض مثلهن) [1] فليس هذا دليل على أن الأرض سبع أراض، و وجه الشبه أن يكون مثلهم فى الخلق لا فى العدد ، وعلى ذلك فما أقامه علماء تخطيط الأرض من أنهم ساحوا حول الأرض من أسفلها إلى أعلاها يكون أقرب للحقيقة و لا مخالفة فيه للقرآن فى وجه من الوجوه، و القرآن لا يخالف المحسوس و لا المعقول فيما يتعلق بالكائنات الكونية ، أما ما عداها مما هو فوق المادة و لوازمها فإن العقل ليس له سلطان عليه، و إنما ذلك يكون بإخبار الله تعالى أنبياءه عنها ليخبرونا بخبر الله عنها و علينا السمع و الطاعة و التسليم الأكمل، فإن العقول مصائدها الحس و ما لا يقع تحت الحس

---

(١) سورة الطلاق آية ١٢

ليس للعقول أن تحوم حواليه . و لو أن العقول تصل إلى إدراك الغيب و الحكم عليه لكانت بعثة الرسل عبثا ، و لأمكن للعقل أن يصل إلى محاب الله ومراضية من عقيدة و عبادة و معاملة و أخلاق، و لا يمكن للعقل أن يصل إلى هذا إلا يوحى من الله تعالى . إذن فالحكم بالعقل على ما ليس من دائرة اختصاصه خروج عن جادة الحق، قال تعالى : (يمعشر الجن و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموت و الأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطن) [١] أى بحجة و برهان و لا سبيل إلى ذلك . قال تعالى مخبرا عن الملائكة الروحانين :(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) [٢].

(وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أى و الله على كل شيء خصصته إرادته من محيط علمه قدير على إبرازه و إيجاده فى الأعيان الظاهرة ، سواء أدركته العقول الإنسانية أو لم تدركه . و فى قوله قدير معنى المبالغة أى قدرته العلية صالحة لأن تبرز كل شيء على وفق علمه و إرادته العلية سبحانه فلا يعجزه شيء قدر إبرازه . و متعلق القدرة معلوم و هو الممكن فليس للقدرة تعلق بالواجب و لا بالمستحيل . و كل ما هو فى دائرة الإمكان فالقدرة صالحة لإبرازه و إمكانه و هو سبحانه لا يعجز شيء فى ملكه و ملكوته .

قوله تعالى : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ)(٣٠)

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً)

بين الله تعالى فى هذه الآية بيانا عن يوم القيامة أن ذلك اليوم تجد فيه كل نفس من المكلفين، و المكلفون هم الملائكة و الإنس و الجن و الشياطين، فتجد كل نفس من تلك الأنفس ما عملت أى الذى عملت، و إن كان بعض العلماء بين أن (ما) شرطية و هو مقبول لغة إلا

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٣

(٢) سورة البقرة آية ٣٢

أن سياق الآية للخبرية لا للشرطية، فالأولى أن تكون موصولة و (عملت) صلتها، و (من) تبعيضية و (خير) معلوم، و هو القيام بما أمر الله به و الامتناع عما نهى عنه ، (محضرا) أى موجودا، و هنا نظر، و هو أن الأعمال أعراض تزول ليست حقائق فكيف تكون محضرة ؟ و الجواب : أن المحضر قد يكون صحائف الأعمال أو يكون جزاء الأعمال و قد وردت فى القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك قال تعالى :(و وجدوا ما عملوا حاضرا)[1] و فى قوله:(ما عملت من خير محضرا)بشائر لأهل الإيمان بأن الله تعالى إذا وعد وعدا نفذه بدليل قوله : (محضرا) فى جانب الخير .

(وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ)

و الواو فى (و ما) للعطف و (ما) معطوفة على (ما) الأولى و (عملت) صلتها و (من سوء) أى من صغير أو كبير، و لم يقل هنا محضرا رحمة بعباده، فإنه قد يتوعد العباد بالعذاب الأليم و يأتى يوم القيامة فيغفر، بل قال : (تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا) و هذه الجملة صفة لسوء (تود) أى تتمنى، و معنى الآية أن الإنسان يفر من تلك الصحائف أو تلك الحقائق التى هى جزاء السوء، و الأمد هو النهاية الكبرى، كما قال تعالى : (يا ليت بينى و بينك بعد المشرقين)[2] (و يحذركم الله نفسه) تقدم الكلام عليها .

(وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ)

قدم الله تعالى الوعيد بأجلى مظاهره و رحمة منه أتى بالبشائر، و جائز أن يكون قوله تعالى : (رءوف بالعباد) أى العباد المخصوصين الذين أهلهم للرأفة و الرحمة و الرضوان كما قال تعالى : (و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا)[3] و كما قال تعالى : (عباد مكرمون)[4] و كما قال سبحانه (يشرب بها عباد الله)[1] و جائز أن تكون الآية لكل

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) سورة الزخرف آية ٣٨

(٣) سورة الفرقان آية ٦٣

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٦

بنى آدم لأن الله رأف بهم ببيان تلك الحقائق لهم التى من شأنها أن توقظ القلب من نوم الغفلة و رقدة الجهالة، و قد بينت لك ما تحمله من المعانى و كلها جائزة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣١)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾
سبب نزول هذه الآية ما كان يدعيه اليهود و النصارى من أنهم أبناء الله و أحباؤه، فلما نزلت هذه الآية قام عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فقال : إن محمدا يريد أن نعبده و نقدس ذاته كما فعل النصارى بعيسى . عنادا و بهتانا على الله تعالى و جهلا بمعنى الآية الشريفة . و معنى الآية أن الله يأمر حبيبه ﴿ﷺ وآله﴾ بقوله قل يا محمد لليهود و النصارى و للعالم أجمع، إن كنتم تحبون الله تعالى محبه أنتجها العلم به سبحانه فاتبعونى فى عقيدتى و عملى و قولى و حالى و معاملتى .
فإن محبة الله لا تكون إلا بعد معرفته، و من عرف الله أيقن أن الله رب و هو عبد، و العبد عليه حقوق لربه جل جلاله ، و تلك الحقوق لا يمكن أن يحصلها إلا بمعرفتها من الله تعالى ، و الله سبحانه أنزل على حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بيان ما يحبه من العقيدة و العبادة و الأخلاق و المعاملة، فمن بلغ به المقام إلى محبة الله تعالى فإنه بحسب تلك المحبة ينجذب إلى اتباع من بعثه الله تعالى إلينا، و إذا بينت لنا تلك الحقائق جذبتنا المحبة إلى المسارعة للقيام بها، و قد وعد الله من أحبه و اتبع نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ أن يتفضل عليه بمحبته سبحانه له، فجزاء محبة العبد لله و اتباع رسوله الفوز بالمحبة من الله تعالى .
و المحبة هى الإرادة كما أن الرحمة هى الإرادة و لكن متعلق الإرادة التى هى الرحمة خيرات الدنيا و الآخرة التى تتعلق بالأشباح، و متعلق الإرادة التى هى المحبة خيرات الدنيا و الآخرة التى تتعلق بالأرواح : فمتى أحب الله العبد وهب له فى الدنيا معرفته و أشهده بدائع إبداع صنعه و غرائب حكمته و عجائب قدرته و غيوب أقداره و حكمة إيجاده و إمداده و

---

(١) سورة الإنسان آية ٦

أسرار تجليه و غيب أسمائه و صفاته . و متى رحمه الله منحه الوسعة و الصحة و العافية فى الأموال و الأولاد و الخول و رفع ذكره فى الدنيا و نقله إلى الآخرةلا فى روضات الجنات منعما بألذ المشتهيات فى الجنة، و هذه رحمة الله و تلك هى محبته . و قد أنكر بعض العلماء محبة الله للعبد مع ورودها صريحة فى القرآن لأنهم تأولوها كما تأولوا يد الله و معية الله، و لو أنهم سلموا كما سلم سلفنا الصالح لكان خيرا لهم .

و ما أنكر المحبة إلا من حرمها، و قد دلت هذه الآية أن لا نجاة لمسلم فى الدنيا و الآخرة إلا بكمال اتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما جاءنا به من عند الله أمرا بقدر الأستطاعه، و فى ما جاءنا به نهيا مطلقا، فما أمرنا الله به يجب علينا أن نسارع إلى القيام به بقدر استطاعتنا ، و ما نهانا عنه يجب علينا أن نتركه مطلقا. و بهذا يظهر لنا أن مخالفة رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ من غير نسيان و لا سهو فيما يجعلون له تأويلا نفاق بل مجاهرة و تفضح، و لو بمخالفة السلف الصالح، و مروق من الدين . و من خالف ما علم من الدين بالضرورة و لو متأولا فهو منافق . أما ما يقوم به آل العزائم من العمل بعزائم الكتاب و السنة مما لم يألفه الناس فذلك ممدوح جدا .

و قد كان فى الصحابة أنواع كثيرة منهم المشدد على نفسه كأهل الصفة، و منهم المتساهل كمن أقامهم الله فى التجارات و الزراعات و الصناعات، و منهم الذى شدد على نفسه باختياره حتى ترك كثيرا من شهوة البطن و شهوة الفرج مع تمكنه كأبى ذر الغفارى و أمثاله من خيرة الصحابة .

و كان يعلم ذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و لم يعب على أحد منهم . و كذلك الواجب على أهل المعرفة أن يقتدوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلا ينكرون إلا ما أنكرته السنة، و لا يعيبون على أحد من المسلمين إلا فيما خالف السنة . و قد خرج قوم عن جادة السنة فصار يكفر بعضهم بعضا بما ليس بكبيرة، و يلعن بعضهم بعضا، فأوقعوا أنفسهم فى حكم قوله تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أختها) [(١)] و كأنهم يثبتون على أنفسهم أنهم من أهل جهنم و إلا فمال الداعى إلى الله و للإنكار على العامة إنكاراً ينفرهم من الدين و يوقعهم فى الفتن، إنما الداعى إلى الله طبيب رفيق يجب أن ينوع أفكار الناس بأساليب الحكمة التى

(١) سورة الأعراف آية ٣٨

وردت عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، قال عليه الصلاة و السلام :[ألا أخبركم بأحبكم إلى و أقربكم منى مجالس يوم القيامة قالوا : بلى يا رسول الله، قال : أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون و يؤلفون] .
أما من أقام نفسه داعيا إلى الله و زكى نفسه، و رمى غيره بالشر و السوء، حاكما عليه و هو يجهل ما عند الله له بل و يجهل نواياه و مقاصده، أوقعته نفسه فى إحدى خصلتين مأخذوتين من قوله تعالى : (و من لم يحكم بما أنزل الله) (١)، و قد بلغ بالقوم من الحكم بغير ما أنزل الله إلى أن قالوا المقلد كافر . و الذى لا يعلم عقائد التوحيد بما أحدثوه من البدع كافر . و لم يكن فى السلف الصالح شىء من ذلك .
و قد بين الله تعالى التوحيد بأكمل برهان فى كتابه العزيز، و نحن سمعنا و أطعنا و صدقنا . ما أعداء الله المنكرون للإسلام المحاربون له فإن حجتنا عندهم بعد القرآن السيف، فإن لم يكن للسيف قوة تنفذ أحكام الدين فعلينا بالرجوع لأحكام الكتاب و السنة، و انتظار الفرج أعظم عبادة الرسل (فاتبعونى) الفاء فى قوله (فاتبعونى) رابطة لجواب الشرط لأنها صيغة أمر، والأمر هنا للوجوب، فاتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ واجب على كل مسلم، و قد أقامه الله بيننا إنسانا حتى لا نقول إننا لا نطيق أن نتشبه به .
و الواجب علينا أن نبحث عن عمله فى كل شىء قبل أن نعمل شيئا حتى نعمله طبق ما عمله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و قد أكل و شرب و نام و باشر و لبس وباع و اشترى و مرض و أصلح بين الناس و وعظ و نصح و جاهد بنفسه و ماله فى سبيل الله، بل عمل كل شىء يعمله الإنسان، و ضحك و حزن و مازح، و بين بالحجة و غضب و فرح و ما من عمل من أعمال الإنسان إلا و عمله ﴿ ﷺ وآله﴾ حاشا المعاصى لعصمته .
و ما على المسلم الذى يحب أن يحبه الله إلا أن يبحث عن كل أعماله ﴿ ﷺ وآله﴾ و يتلقاها من أهل العلم، ثم يجاهد نفسه أن يكون صورة من صور حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ ليحبه الله، فإذا أحبه ألقى عليه محبة منه لخلقه، و ألقى عليه صورة حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى إذا رآه أهل الإيمان الكامل كادوا أن يقولوا هذا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لما يجليه الله لهم فيه من صفات محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإذا جاء يوم القيامة و رآه الملائكة احترموه احتراما

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤ - ٤٥

لرسول الله، و احتفلوا به حتى يدخل دار رضوان الله . و كان بعض أهل السلف إذا كان عند جنيد القواريرى أو سرى السقطى أو عند التوزى من أئمة الصوفية و سئل أين كنت ؟ يقول : كنت عند رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و يتمثل ما كان عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أقوالهم و أحوالهم و أعمالهم و يتشبه بها، فإننا لم نر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و بيننا و بينه ألف و ثلثمائة و ست و خمسون سنة زمانا[1] ،و بيننا و بينه ﴿ ﷺ وآله﴾ مكانا سفر شهر تقريبا على ظهور الإبل . و إذا كان الأمر كذلك فإن الشريعة تكون قد نسخت إن لم يقم الله تعالى للأمة من يجدد لها أمر دينها لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل .

و إذا كان الناس لا ينتظرون نبيا و لا وارثا يرشد نسخت الشريعة و درست معالمها اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجة (يحببكم الله) سبق أن بينا المحبة فى قوله (أشد حبا لله)[2] و لكننا فى مقام اختطفت فيه أرواح المقربين إذ سمعوا قوله تعالى (يحببكم الله) و زلت فيه أقدام من لم يتعقلوا عن الله آياته، فإن من جهل شيئا عاداه .

هذه الآية الشريفة التى هى (يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم) جواب للأمر الذى هو (فاتبعونى) و إلى تلك الآية انتهت كمالات المقامات العالية، فإن الغاية التى ليست بعدها غاية هى نيل العبد محبة الله تعالى له .

و قد أنكر محبة الله للعبد من حرمها من الله تعالى بعد أن حكموا أن المحبة هى الإرادة كما بينت لك، و أن الإرادة إذا تعلقت بخيرات الدنيا و الآخرة الجسمانية تسمى رحمة، و إذا تعلقت بخيرات الدنيا و الآخرة الروحانية تسمى محبة، و هذا مذهب المتكلمين و أهل السنة من العلماء بالأثر، أما أهل المعرفة بالله الذين أقامهم الله فى مقام التقرب إليه بعد أن رفعهم إليه على رفارف التقريب منه، فإنهم لا يرون رأى هؤلاء المحجوبين الذين يقولون إن الإرادة لا تتعلق بشىء فمحبة الله للعبد مستحيلة على مذهبهم، و المعنى عندهم (فاتبعونى يحببكم الله) أى يجازيكم على ذلك بالجنة أو بمقعد صدق أو بالرضوان .

أنا لا ألوم على هؤلاء القوم لأنى كنت جاهلا غافلا ساهيا ناسيا و الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . إنما يلوم من جهل نفسه .

---

(١) هذا التاريخ عند إملاء الإمام أبى العزائم رضى الله عنه تفسير هذه الآية

(٢) سورة البقرة آية ١٦٥

الله تعالى يرضى و يغضب و يحب و يكره، و ليس الحب منه يقتضى التأثر الذى يجعل المحب يخضع لحبيبه و يطيعه، تتره عن ذلك و تعالى، كما أنه سبحانه و تعالى يرحم، و ليس مقتضى ذلك أن له قلبا يرق و يعطف و يحنو على المرحوم تتره و تعالى عن ذلك . بل رحمته سبحانه تليق به .

و ما علمنا أن أحدا أنكر أنه رحيم و أنه رحمن لأن كل موجود فى العالم فاز من الرحمة بقسط وافر، و لكنا نرى المنكرين على محبة الله للعبد كثيرين، و ذلك لأن محبة الله تعالى علت على أن تعرف و غابت عن أن توصف، و هى مضنون إحسان الله الذى خص به من جملهم بجماله العلى ممن ورد عنهم الحديث الشريف أن الواحد منهم إذا رؤى ذكر الله لرؤيته، و أقرب مرجع للضمير هنا هو الله تعالى، أى ذكر الله لرؤية الله تعالى . (يحببكم الله) أى يصطفيكم لذاته و هو الرب المطلق الذى لا يسأل عما يفعل .

و إذا كانت محبة الله تعالى للعبد يثبتها له حسن اتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنى قدمت لك أن محبة الله تعالى فضل منه لا يتعلل بعلة .

و فى قوله تعالى (فاتبعونى يحببكم) كأنه فعل شرط و جواب شرط و تكون المعنى إن تتبعونى يحببكم الله تعالى، فماذا يقول أهل المعرفة فى هذا ؟ الذى يقولونه أن الله تعالى خلق روح حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ من نور جماله ، و خلق أرواح من سبقت لهم الحسنى بمحبوبيتهم له سبحانه من روح محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و جذبهم إليه بعوامل تلك المحبة جذبة جعلتهم يتحدون مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عقيدة و عملا و قولا و حالا كأنهم (هو) فى الحقيقة و المعنى . و لا تعجب فإنا نرى الإنسان الذى يحب الانتقام لنفسه فنحكم عليه أنه وحش، فالأجسام من حيث هى لا قيمة لها إلا بما تجملت به من المعانى .

و كل جسم تجمل بمعانى رسول الله ****** نحكم عليه حكما كأنه (هو) . و قد ورد فى غزوة تبوك أن الصحابة رضى الله عنهم قالوا : يا رسول الله نرى خيالا من بعد يقوم و يقع، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ [ليكن أبا قتادة]، فقالوا : يا رسول الله ننتظره ؟ قال : [سيروا بنا الذى جاء به يحمله إلينا] . فأصبحوا و إذا بأبى قتادة معهم فكان قوله عليه الصلاة و السلام ليكن معنى كن . فكذلك قول الله لنبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) أمر بالاتباع سمعه من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من حضرة ممن يسمعون بآذان أرواحهم فكان قوله (فاتبعونى) مع سابق العناية الإلهية جذبة كبرى تجعلهم يتقربون إلى الله

و يقربهم الله منه حتى يجملهم بجماله الذى يحبه هو و الظرف تابع للمظروف .
و فى الأثر [كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به] الحديث بعد قوله [فإذا أحببته] و هذا مقام فوق حب الله للعبد، لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول عن الله [فإذا أحببته كنت . و كنت . و كنت] أمسك القلم عن هذا و لكنى غبت عن وجودى نشوة بقول الله (يحببكم الله) و فرحت كل الفرح بأن الله يحب من اتبع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

و فى تلك الآية من غوامض الإشارة أن الله تعالى يقيم الحجة أنه المنفرد بالتزاهه و الكبرياء و العظمة، و أن كل موجود من عالم الأرواح العالية إلى الثرى أغيار أظهر الله بهم أسرار أقداره و عجائب قدرته و غرائب حكمته ، و يقهر النصارى و اليهود الذين قالوا نحن أبناء الله و أحباؤه و يقصم ظهور وفد نصارى نجران، لأنه جعل محبته للعبد محصورة فى إطاعة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ الأمر الذى جعل كل من فى الأرض مقهورا بقهر الله تعالى، لا قداسة لأحد و لا نزاهة و لا خصوصية لعبد عند الله إلا باتباع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .
و مسلم يعلم قدر محبة الله له و ما بها يناله من حظوة بالأخيار فى دار الرضوان و من خير عظيم فى الدنيا و فى البرزخ و فى يوم القيامة و يخالف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى صغيرة أوكبيرة حكم على نفسه بالشقاء فى الدنيا و الآخرة إلا أن يغفر الله تعالى له و يعفو عنه .

(وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)
الغفر كما سبق هو الستر فإن حقائق المعاصى لا تمحى من علم الله تعالى و لكنه سبحانه يسترها عن عيون المذنبين و عن ملائكته و عن معالمه من الأرض و عن جوارحه (و ما كان ربك نسيا) حتى يلقى الله و ليس عليه شاهد بذنب . و عندى (و يغفر لكم) هنا تفيد الستر و تبديل السيئات حسنات و هو الذى يناسب (يحببكم الله) قال سبحانه : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)[1] (و يغفر لكم ذنوبكم) الذنوب معلومة و هى كل ما خالف الشرع الشريف فى أمر أو نهى، ومغفرة الذنوب صغيرها و كبيرها بعد وعد الله تعالى بتلك البشرى قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [إذا أحب الله العبد لا يبالى ما فعل] . و كيف

(١) سورة الفرقان آية ٧٠

لا و فى الحديث يقول﴿ ﷺ وآله﴾ يقول الله تعالى:[المتحابون فى و المتزاورون فى و المتجالسون فى و المتباذلون فى على منابر من نور قدام عرش الرحمن] الحديث . فإذا كان هذا جزاء الحب فى الله تعالى فكيف يكون جزاء من أحبهم الله تعالى .

﴿وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بعد أن بين الله تعالى للمؤمنين ما بين من ترك ولاية الكافرين، و هدد من اتخذهم أولياء بسلب الإيمان منهم، و شدد فى التهديد حتى حذر المؤمنين نفسه، رد سبحانه و تعالى على النصارى و اليهود افتراءهم على الله بدعوى أنهم يحبونه و أنهم أبناؤه قائلا:(إن كنتم تحبون الله اتبعونى يحببكم الله)يعنى اتبعوا محمدا﴿ ﷺ وآله﴾ تنالوا خيرا مما تدعون من أنكم تحبون الله، و ذلك الخير هو محبة الله تعالى لكم و يغفر لكم افتراءكم و كذبكم على الله تعالى و ما وقعتم فيه . (و الله غفور رحيم) يعنى أن من صفاته العلية أنه غفور رحيم، و رحيم يعنى أنه يتفضل يوم القيامة فيسع من اتبعوا حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بجمال إحسانه العلى فإن (رحيم) يعنى الذى يحسن إلى عباده يوم القيامة . و الرحمن هو الذى يحسن إلى عباده فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)

﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ﴾

سبب نزول هذه الآية ما قدمت لك من سوء ظن عبد الله بن أبى بن سلول بالله و رسوله هو و من معه من المنافقين، لأنهم قبحهم الله لما فى نفوسهم من بغض رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا يسارعون إلى قلب معانى القرآن مع وضوح حقائقها لأجهل إنسان يفهم معنى الألفاظ، فقصم الله ظهورهم بقوله تعالى : (قل أطيعوا الله و الرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكفرين) بعد قوله : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فإنهم شوهوا قوله تعالى : (فاتبعونى) بقولهم : أى فاعبدونى و قدسونى، فقهرهم الله تعالى بتلك الآية الشريفة و هى الأمر بإطاعة الله بما أمر به من عقد القلب على حقيقة التوحيد و من المسارعة إلى عبادة الله تعالى و إلى التجمل بالأخلاق التى رغب الله فيها و القيام بحسن المعاملة التى

أوجبها الله لكل ذى حق بحسب مرتبته . و هذا معنى طاعة الله . و أما قوله (و الرسول) أى و أطيعوا الرسول، فالمراد من طاعة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ هى أن نقبل منه عليه الصلاة و السلام بيان ما أرسله الله به إلينا، لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ شرح لنا الآيات الدالة على التوحيد و بين حججها الواردة فى القرآن، و فصل لنا مجمل العبادات بقوله و عمله و حاله، فإن الله جل جلاله أمرنا بالصلاة فقال : (و أقيموا الصلوة) [1] و أمرنا بالركوع و السجود فقال : (اركعوا و اسجدوا) [2] و لما كانت تلك الحقائق لا تنكشف للإنسان انكاشفا يجعله يقوم بها على ما يحبه الله سبحانه و تعالى، لزم للإنسان أن يتلقى ذلك عن إنسان نظيره يقلده فى عمل ما أمره الله تعالى أن يعمله مما يعجز العقل عن أن يعلم تفصيله من كلام الله تعالى إلا ببيان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإطاعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هى إطاعة الله تعالى ، لأنه سبحانه و تعالى إنما بعث الرسل عليهم الصلاة و السلام ليبلغونا عن الله ما يحبه منا و ما به ننال رضوانه الأكبر .

و إنما جعلهم أناسى مثلنا لنقتدى بهم فيما يعملون أمامنا عند تعليمنا حتى يمكننا أن تطمئن قلوبنا بأننا عملنا بمحاب الله و مراضيه بعد وقوع العمل طبق ما سمعناه و رأيناه من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و بذلك لم يبق من شبه يؤسس عليها أهل الشرك بالله و المنافقون فتنه عمياء صماء، فظهر الحق لذى عينين و باءوا هم بالخسران و الوبال .

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

سبب نزول هذه الآية أن وفد نجران بعد أن بين الله تعالى لهم أن عيسى و أمه و الخلق أجمعين كلهم عبيد الله و قامت عليهم الحجة حتى قصمت ظهورهم، بقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) بعد قولهم (نحن أبناء الله و أحباؤه)[3] و ظهر لهم أن محبة الله تعالى لا يمنحها سبحانه لأحد إلا لمن اتبع محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ فى عقيدته التى نزل بها القرآن

(١) سورة الروم آية ٣١
(٢) سورة الحج آية ٧٧
(٣) سورة المائدة آية ١٨

و هو تفريد الله تعالى بالألوهية دون غيره وتتريهه عما لا يليق بكمال ذاته سبحانه . وما عداه من الخلق أجمعين فعباد مقهورون و خلق مربوبون، لا فرق بين عمار السموات السبع و من فوقهم بل و سكان الأرضين و الأجواء و الأرجاء، لا فرق فى ذلك بين نبى مرسل و ملك مقرب بل كلهم عبيد مقهورون .

قال تعالى : (إن كل من فى السموات و الأرض إلا ءاتى الرحمن عبدا) (١) و قد فضل الله من شاء أن يفضله و رفع من شاء أن يرفعه من رسله الكرام و ملائكته و أنبيائه و أوليائه بما أقامهم فيه من كمال الذل لعزته و الخضوع لكبريائه و القيام بالسمع و الطاعة لعظمته الإلهية . فليس عيسى بإله و لا بابن إله، بل هو عبد مقهور مربوب، و فضله الله تعالى بما أمره به أن يبينه لعباده و يدعوهم إليه ... و قد كفر فى عيسى طائفتان وقعتا فى الغلو : طائفة اليهود و هم الذين كذبوه و هموا بقتله، و طائفة من لا بصيرة لهم و هم الذين غالوا فى رفعة مكانته حتى بلغوه إلى مترلة بنوة الله .. و كلهم فى النار .

و معنى هذه الآية أن الله يأمر وفد نصارى نجران أن يطيعوا الله فيما جاءهم به محمد ﴿ﷺ وآله﴾ و أن يطيعوا الرسول فيما بينه لهم مما أنزله الله عليه مفصلا عقيدة و قولا و عملا، و هذا الحكم و إن كان سببه خاصا بوفد نصارى نجران إلا أن الحكم فيه عام لكل بنى الإنسان لا فرق بين الأبيض و الأصفر، حتى أن كل من بلغته الدعوة و لم يطع الله و الرسول فهو كافر من أهل جهنم المخلدين فيها أبدا . و من لم تبلغه الدعوة بأحد طرقها الشرعية فهو من أهل الفترة الناجين يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣)

الاصطفاء هو الاختيار و الاجتباء . أى اختارهم سبحانه أن يكونوا صفوة من خلقه فى زمانهم (إن الله اصطفى ءادم و نوحا) أى اختار آدم لأنه أبو الإنسان الأول و نوحا لأنه أبو الإنسان الثانى بدليل قوله تعالى : (و جعلنا ذريته هم الباقين) (٢) و هذه الآية الشريفة حجة قاطعة على وفد نجران و غيرهم، أن الحكم ليس إلا لله لا لليهود و لا للنصارى و لا

---

(١) سورة مريم آية ٩٣

(٢) سورة الصافات آية ٧٧

للكفار و غيرهم، حيث قال النصارى المسيح بن الله . و قال اليهود العزير بن الله . و جعل أهل الكفر بالله الشمس إلها و الأصنام و البقر فكذبهم الله تعالى فى ذلك و قال : ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾ أى اختاره من العالم فى عصره كما اختار نوحا عليه السلام و جعله صفوة له من جميع خلقه فى عصره و بذلك يثبت أن الله تعالى ليس له شريك و لا ولد و هو تتزه و تعالى عن أن يشابه الكائنات و أن يحتاج إلى شيء منها و أنه سبحانه و تعالى هو المريد الفاعل المختار، يصطفى من يشاء و يهدى من يشاء و يذل من يشاء .

﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾

يعنى أنه سبحانه اصطفى كل من كان على دين إبراهيم متمسكا به عاملا لله . و آل إبراهيم بحسب مراد الله تعالى هم من آمنوا به و تمسكوا بدينه لا فرق بين أقرب الناس إليه و بين أبعدهم عنه نسبا كما قال الله تعالى : (محمد رسول الله و الذين معه) [1] و مدحهم.و قال فيمن خالف رسول الله:(إنك لا تهدى من أحببت و لكن الله يهدى من يشاء) [2] و كان ممن خالف رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أقرب الناس إليه كأبى لهب و غيره . و آل إبراهيم هم إسماعيل و إسحاق و يعقوب و من اقتدى به، بل و كل مسلم . كذلك فإن الله اصطفى دين آدم و دين نوح و أنه دين الإسلام .

﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾

و الراجح أن المراد بعمران هو عمران أبو مريم أم عيسى بن ماثان لا عمران أبو موسى، لأن سياق الآية يظهر أنه سيق لبيان حال عيسى بن مريم لتقوم الحجة على وفد نصارى نجران كما سيأتى، و بين عمران أبى موسى و عمران أبى مريم ألف وثمانمائة سنة . و لو كان المراد عمران أبا موسى لقال الله تعالى : و آل موسى، لأن سيدنا موسى رسول من أولى العزم الذين أقامهم الله مقاما كمقام نوح و الخليل عليهما السلام .

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩

(٢) سورة القصص آية ٥٦

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

أى على العالمين فى زمانهم، و هذه الآية الشريفة و إن دلت على اصطفاء آدم و نوح و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين فى عصورهم، فالله أنزل على محمد ﴿ﷺ وآله﴾ آية جعلت آل محمد و هم جميع أمته من لدنه ﴿ﷺ وآله﴾ إلى يوم القيامة خيرا عند الله تعالى من سائر خلقه من لدن آدم إلى يوم القيامة، و نبينا خيرا من أنبايئهم و نحن خيرا من الأمم السابقة و هى قوله تعالى : (كنتم خيرا أمة أخرجت للناس) [١] . ثم بين حكمة هذا الفضل بإقامتنا مقام الرسل و الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم بقوله تعالى:(تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله).

قوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾

معنى هذه الآية و الله أعلم أن المراد دينهم واحد و أراؤهم فى هذا واحدة . و إن كان من الجائز أن يكون من سلالة واحدة يتناسل بعضهم من بعض، إلا أن ذلك لم تؤيده الحجة، بل الذى تؤيده الحجة أن بعضهم من بعض أى أنهم أهل دين واحد وآراء واحدة بدليل قوله تعالى : (المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض) [٢] .

﴿وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أى أنه تعالى يسمع أقوال أهل الإيمان به و أهل الكفر و كلام المنافقين فيجازى كل فريق بما يستحقه . و قوله تعالى (عليم) أى يعلم سرهم و نجواهم و أخفى من السر فيجازى بإحسان أو بعذاب أو يغفر و يعفو و يقبل التوبة .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

(٢) سورة التوبة آية ٦٧

أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٣٥)

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾
يخاطب الله محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ فيقول : اذكر يا محمد إذ قالت حنة أم مريم جدة عيسى عليه السلام عندما نظرت إلى طير يطعم فرخا له فحنت إلى الولد و كانت عاقرا قد تجاوزت سن الحمل : لله على نذرا إن رزقنى الله تعالى بمولود لأجعلنه خادما لبيت المقدس، فقدر لها أن تحمل . و الله على كل شيء قدير . فلما حملت قالت : (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا) أى حرا عتيقا لا يشتغل بغير خدمتك فى بيتك المقدس .

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
معنى هذا أن حنة بعد أن نذرت النذر دعت الله تعالى أن يقبل منها نذرها و أن يرزقها بهذا الغلام الذى نذرته لله تعالى . و تقبل فعل التماس (إنك أنت السميع العليم) من كلام أم مريم تابعا لما قبله أى إنك يا إلهى السميع لكلامى و دعائى و نذرى، العليم بحالتى و اضطرارى إلى أن يكون لى ولد .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦)

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾
يعنى أن حنة بعد أن وضعت النسمة من بطنها و ظهر أنها أنثى و كانت تتمنى أن يكون ذكرا، و كذلك حكمة الله تعالى فى أن جعل النفس التى حملت بها أنثى قالت متوجعة آسفة : (رب إنى وضعتها أنثى و الله أعلم بما وضعت) الواو هنا للحال و الجملة حالية . و جائز أن تكون خبرا عن الله تعالى لحنة على رواية جعلت التاء للمخاطبة و كسرها كأن الله يخاطبها فيقول : (و الله اعلم بما و ضعت) يعنى أن الله لا يخفى عليه شيء، و كان الأولى لحنة أن ترضى عن الله فيما قدر و أن تعلم أن ما أراده الله لها خيرا مما كانت تريده لنفسها، فإن الأنثى هذه اصطفاها الله تعالى و أبرز منها آية كبرى جعلت كثيرا من الناس يقدسون

مريم لأنها حملت بدون زوج، و ولدت إنسانا أجرى الله على يديه من المعجزات الباهرات ما جعل أهل الغباوة يتخذونه إلها من دون الله لجهلهم . قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ :[لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع]و لكن خلق الإنسان عجولا.و قد ماتت حنة و مريم صغيرة .

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾
هذا من مقول حنة . ومعناه أن بنى إسرائيل اعتاد بعضهم أن يقرب ابنه الصبى لخدمة بيت المقدس و لم تسبق العادة بخدمة النساء فى المعابد و الهياكل، و فى هذا إشارة إلى أنها تتمنى لابنتها هذه عناية من الله تعالى تبلغ بها أن تلد من يخدم فى بيت المقدس وفاء لنذر أمها .
و لما كان هذا المعنى هو المفهوم من كلامها و خصوصا فى قولها : (و إنى سميتها مريم) لأن معنى مريم فى العبرانية العابدة، تفضل الله عليها و بشرها بإجابتها فيما طلبت بقوله تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن) .

قوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾
و قوله تعالى (بقبول) اسم مصدر لأن مصدر تقبل تقبلا و هى من اللغة الفصحى أن يأتى العرب باسم المصدر محل المصدر و كثيرا ما يقولون تكلمت كلاما . و القبول الحسن من الله تعالى أن يعطى السائل أفضل مما سأل لأن حنة كانت تريد أن يكون لها ولد يخدم بيت المقدس فقط، فأعطاها الله تعالى بنتا اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين، و بعد ذلك ولدت ولدا هو عيسى بن مريم عليه السلام أخبرنا الله عنه أنه كلمة الله و روح منه و كل ذلك سبب قبول الله تعالى مريم إكراما لوالدتها .

﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾

أى أنشأها تنشئة عجيبة لأنها كانت تنمو فى اليوم كنمو غيرها فى الشهر، و كان هذا المزيد فى صحتها و فى دينها و فى عقلها و فى كل حقيقة من حقائقها بدليل قوله تعالى : (نباتا حسنا) فإن حسنا من الله دليل على حصول البركة من الله فى كل شىء.

(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) أى أن حنة لما ولدت مريم و قالت ما قالت لفتها فى ثوب و توجهت بها إلى بيت المقدس و وضعتها بين أيدى الأحبار و كان أبوها إماما للأحبار و قالت لهم : هذه نذيرة لبيت المقدس، فتنافسوا جميعا فيها، فقال زكريا : إن خالتها عندى و أنا أولى بها منكم و كفلها . و القراءة التى هى أولى بالقراءة من غيرها هى تشديد الفاء . أى أن الله تعالى كفلها زكريا بعد قيام الحجة له فأخذها لخالتها حتى كبرت و أرجعها فأسكنها غرفة فى بيت المقدس . و كانت غرف بيت المقدس تسمى محرابا . و كان زكريا يزورها لقضاء حاجتها .

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

كان زكريا عليه السلام بعد كفالته لمريم يتعهدها بزيارته ليقضى حوائجها، فكان كلما دخل عليها المحراب يجد عندها (رزقا) أى فاكهة ليست موجودة فى الزمان الذى يجدها فيه عندها، فكان يعجب كل العجب لأنه كان يغلق عليها سبعة أبواب . فيقول لشدة تعجبه : (يمريم أنى لك هذا) أى من أى جهة لك هذا . و أنت لا يصل لك أحد ولا وجود لما عندك من الرزق فتجيبه قائلة : هو من عند الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) هذا خبر من الله تعالى يكشف به الحجاب عن زكريا ليعلم كرامة مريم عند الله تعالى، أو معنى ذلك أن الله تعالى وضع الأسباب ليتعرف بها إلى عباده فيعرفونه لما يرونه فى الأسباب بعد ارتباطها تمام الارتباط بمسبباتها و مخالفتها لما يرونه فيما يصل إليهم من غير أسباب فيحصل لهم العلم اليقينى بوجود الله تعالى . و بعجائب قدرته، و غرائب حكمته، فيكمل إيمانهم أن الأسباب ليست فاعلة مختارة و الفاعل المختار هو واضع الأسباب جل جلاله .

و فى هذه الآية الشريفة رد على من أنكر كرامات الأولياء . و هنا نبين لك بيانا شافيا يطمئن به قلبك بدليل هذه الآية ...إنا لو فرضنا أن الله أكرم مريم بكفالة زكريا لها .

فرزقها من حيث لا تحتسب كان ذلك يقتضى علم زكريا به . و لو كان يعلمه لما قال لها (أنى لك هذا) فثبت لنا أن إيصال الرزق إلى مريم لا يعلم زكريا سببه فلا يكون معجزة له. و إذن فهى كرامة لمريم و منكر الكرامة محروم منها . فثبت أن الله يكرم أولياءه . و هنا أؤكد لك أن منكر الكرامة لا ينكر أن الله يكرم أولياءه مطلقا، و لكن ينكر أن تأتى الكرامة بطلب الولى لأن الله تعبد الرسل بإظهار المعجزات لأنهم يتحدون الكفار بها لتثبت رسالتهم. و تعبد الأولياء بإخفاء الكرامة لأن الولى لا يتحدى بدعوته . و كيف لا و هو يدعو إلى شريعة تقررت بالعقل و المعجزة و بأخبار الرسل السابقين اللهم إلا إذا دعا المشركين بالله و عند تحديهم له فإنه بحسب الميراث له أن يسأل الله تعالى تأييده فى الدعوة بالحجة و أن يكرمه بما يقهر به أعداء الله تعالى .

و قد ثبت إكرام الله لأوليائه بصريح القرآن . فإن الله أكرم آصف بم برخيا بما هو معجزة لسليمان عليه السلام بأن نقل صرح بلقيس من بلاد اليمن إلى بيت المقدس . و أكرم اليتيمين فحفظ لهما كنزهما بما أقامه الخضر و موسى عليهما السلام من الجدار . و أكرم مريم بما أنزله سبحانه فى هذه الآية و الخلاف بين مثبت الكرامة و منفيها لفظى . فإنا نسلم أن الولى لا يطلب الكرامة لأنه متعبد بسترها و إخفائها خوفا من أن يدعى الناس انه رسول أو يبالغوا فيه كما بالغ اليهود فى عزير، و النصارى فى عيسى . على أنى لا أنكر أن الله تعالى إذا أقام عبدا فى مقام المجاهدة بقلب و قالب يبين له سبله .

فإذا اتضح له فناء الدنيا و بقاء الآخرة أو رفعه عن ذلك فأشهده ساطعة أنوار جماله فر إلى الله تعالى فانيا عن الدنيا أولا بالآخرة، و عن الدنيا و الآخرة بالله تعالى ليحصل له كمال العلم بالله سبحانه و حقيقة الاتصال، فيستغرق بكليته فى محاب الله و مراضيه، و لديها يكرمه الله تعالى من حيث لا يعلم و لا يريد . و لا يقصر بفنائه بالكلية عن تعلق قلبه بغير الله و عن ميله إلى حب الشهرة عند الخلق . و مثل هذا يكون من ضنائن الله تعالى لا يحزن إذا حزن الناس، و لا يخاف إذا خاف الناس، بل يكون دائم المراقبة لله و الفرار إليه و الخوف من الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾ (٣٨)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

أى عند ما شهد زكريا إكرام الله لمريم شرح الله صدره أن يسأله مالا ينال إلا بفضله سبحانه لفقد الأسباب الداعية إليه، لأن زكريا كان رجلا هرما و كانت امرأته لا تلد، فتحقق أن الذى أعطى مريم رزقا لم يكن موجودا و عليها سبعة أبواب مقفلة قادر أن يعطية ولدا مع هرمه و عقم زوجته فقال : ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾ و هذا دعاء زكريا ربه أن يهب له ذريه من غير سبب يقتضيها كما رزق مريم من غير حساب . و فى الآية سر عجيب لسرعة الإجابة و هو كمال الثقة بقدرة الله على إغاثة السائل و تحقق اضطراره إلى ما يسأله و هو سر الاسم الأعظم، لأن زكريا لما رأى ما رأى عند مريم من الرزق، و تحقق أنه لا سبب أو صله إليها لأنه مغلق عليها سبعة أبواب و لأن الرزق الذى كان عندها كان مفقودا فى ذلك العصر و أجابته بقولها : (هو من عند الله) فعلم أن الله يخبرنا بقوله : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) انشرح صدره و ثبت لديه باليقين الحق أن الله قادر أن يعطى من غير سبب .

وزاد على ذلك اضطراره إلى الولد فجمع بين شرح الصدر على اليقين بالقدرة و ثبوت اضطرارة إلى الله تعالى، فكان كأنه يناجى سميع الدعاء القادرعلى إغاثة الداعى . و من جمع الله له هذين المعنيين فاز بطلبته و هى سرعة الإغاثة : قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) [(١)]

و قد أغاث يونس بن متى و هو فى الظلمات الثلاث عندما سأل الله تعالى مبينا ظلمه لنفسه مقدما على دعوته توحيد الله و تنزيهه، فقبل الله منه توحيده و تنزيهه و دعاءه و إنابته، و أغاثه و ذلك عند قوله : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) [(٢)] كما أغاث إبراهيم عندما ما انكسر قلبه و أفرد ربه بالقصد دون غيره، و تيقن أنه سبحانه أقرب إليه

(١) سورة النمل آية ٦٢

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧

من جبريل بل و من روحه التى بين جنبيه فجعل النار عليه بردا و سلاما : و دعاء الفرج عند الشدة مرتبط بهذين المعنيين . و دليل ذلك :

قوله تعالى : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩)

معنى هذه الآية الشريفة أن الله أغاث زكريا و طمأن قلبه بإجابته سبحانه له بأن أرسل له ملائكة يبشرونه بالإجابة و هو قائم يصلى، و هذه الصلاة هى الدعاء . و المحراب كل مكان شريف يجلس فيه المتحنث أو يقف فيه للدعاء و العبادة . أقول لك الصلاة هى الدعاء لأنه لو كان يصلى صلاة شرعية لما كلمته الملائكة . اللهم إلا إذا كانت صلاقم يباح فيها الكلام . يخبرنا ربنا أن الملائكة قالت لزكريا :

﴿أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

أسرع الله تعالى بإغاثة زكريا عند دعائه بأن أرسل له الملائكة يبلغونه البشرى من الله تعالى بنيل ما يتمناه من الله سبحانه و هو الولد الذى كان يراه مستحيلا، و بشره بتشديد الشين أى أخبره بخبر يسره لم يكن بلغه من قبل، و بتخفيفها بضم الشين فى الماضى و المضارع بمعنى السرور و الحبور و النضرة، و هى هنا بتشديد الشين، و عليه قراءة الأنصار و أنه ورد هذا المعنى فى لغة بتخفيف الشين، و يحيى مأخوذة من الحياة أى يحيى للدين و العلم (مصدقا بكلمة من الله) يعنى مصدقا بعيسى بن مريم الذى هو كلمة من الله (و سيدا) السيد من احتاج إليه الناس لفضله و علمه و انتفعوا به فسودوه عليهم أى رفعوه (و حصورا)

الحصور هو الذى لا يميل بطبعه إلى النساء و لك أن تقول : هو المتواضع (و نبيا من الصالحين) تقدم أن الله وصفه بأربع صفات ثم ختمها بوصف الصلاح . و هو قوله (من الصالحين) فيظهر من هذا أن الصلاح أكمل منازل المقربين . قال يوسف عليه السلام : (توفنى مسلما و ألحقنى بالصالحين) (١)

(١) سورة يوسف آية ١٠١

و قال الخليل عليه السلام:(رب هب لى حكما و ألحقنى بالصالحين) [1] و فى ذلك من تعظيم الصلاح ما فيه لأولى الألباب .

قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (٤٠)

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى منح الأنبياء علما بكمال إطلاقه جل جلاله حتى بلغ بهم العلم مبلغا به عرفوا أن الله فوق كلمته : فهم فى هذا الجانب لا تطمئن قلوبهم إلا بعد وقوع المبشر به فعلا فترددهم عليهم الصلاة السلام كما تردد زكريا و الخليل عندما قال له الله : (أو لم تؤمن) وموسى عندما أمره الله أن يدعو فرعون و الخليل أيضا لما بشره بإسحاق، و كل تلك المعانى تدل على كمال يقينهم و على طلبهم المزيد من اليقين لتطمئن قلوبهم و ليسوا كغيرهم من الخلق ممن تغره بارقة من لوامع آيات الله تعالى .

بل الرسل عليهم الصلاة و السلام أهل يقين كامل لا يأمنون جانب الله و لا يقنطون من رحمته و لا تسكن نفوسهم، و لا تطمئن قلوبهم إلى وعد أو وعيد إلا بعد قيام الحجة الناصعة لأن الحق جل جلاله فوق أسمائه و فوق صفاته، و لا يأمن جانبه فى مثل هذه المواضيع و فى غيرها إلا القوم الكافرون . و يجوز أن يكون سؤال الأنبياء عليهم السلام ربهم بعد البشرى بما يتفضل به عليهم من إجابه ما طلبوا أن يكون ذلك من سرورهم و فرحهم بما بشرهم الله و رجاء سرعة إغاثتهم بما طلبوا .

و يجوز أيضا أن يكون من باب تلذذهم بمكالمة الله عز و جل و أنسهم بمناجاته سبحانه و هذا من مقامات أنبيائه عليهم السلام التى أكرمهم الله بها فى الدنيا، و ليس للشيطان سلطان على قلوب الأنبياء حتى يقوى سلطانه عليهم فيترددون فى أخبار الله تعالى أو يشكون . و لكن التردد للتثبيت و لطمأنينة القلب كما قال الخليل عليه السلام : (بلى و لكن ليطمئن قلبى) و كما قالت مريم لجبريل رسول الله إليها بعد أن قال لها : (إنما أنا رسول بك) [2]

---

(١) سورة الشعراء آية٨٣

(٢) سورة مريم الآيات ١٩ – ٢٠ – ٢١

قالت:(أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر) فرد الله عليها بقوله : (كذلك قال ربك هو على هين) فرد عليها . بما يناسب قولها النفسية كما رد على زكريا بما يناسب مقامه من الرسالة بقوله:(و قد خلقتك من قبل و لم تك شيئا)و كان يسرنى أن أطيل البيان فى تلك المواضيع و لكن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قال:[المؤمن يكفيه قليل الحكمة] .

(و قد بلغنى الكبر) يعنى تجاوز سن الكهولة إلى الهرم حيث ارتخاء المفاصل (وامرأتى عاقر) أى لا تلد أبدا فأراد الله تعالى أن يكرم مريم بعد بيان زكريا هذا الذى يدل على أن الأسباب التى بها يحصل الحمل و الوضع مفقودة .

و فى الآية إشارة إلى أن يحيى أكبر فى المعجزة من عيسى عليهما السلام ، لأن عيسى حملت به امرأة مؤهلة للحمل و الوضع فى ريعان شبابها و قد يكون من الجائز أن تتحد الأخلاط الأربع فيها فتحمل من غير ذكر . أما زكريا و زوجته فحصول الحمل منه و الولادة من زوجته بعيد عن العقل جدا يقتضى أن يكون معجزة تتحير فيها العقول.

و من ذلك ثبت عفاف مريم و طهارتها و بهتان اليهود الذين رموها بالزنا، و إنى لأرى نيل زكريا ولدا برهانا على إكرام الله لمريم، و بيان لغرائب قدرة الله و عجائب حكمته سبحانه، و أنه جل جلاله هو الذى وضع الأسباب ، و لا يسأل عما يفعل . و هذا هو المقام الذى كانت تخاف منه الرسل و الأنبياء و ورثتهم . قال أبو بكر رضى الله عنه : ((أنا لا آمن مكر الله و لو كانت إحدى قدمى الجنة))مشاهدا هذا السرالذى رآه فى رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾

و قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [(١)] و أمره هنا سر القدر (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) بعد أن بين زكريا عليه السلام حجة استبعاد ولد له بالنسبة للأسباب التى نعتقد أن الله الواضع لها، و أنه مكلف شرعا بالوقوف عند الأسباب حتى لا يتعداها تعبدا لله و صبرا على عبادته و رضا بأقداره، حتى إذا قامت الحجة أن هذا مراد الله و سر قدره من الأحداث التى يحدثها غير مرتبطة بالأسباب اطمأن قلبه و رضى عن الله . و هذا الخطاب كما بينت لك يناسب مقام زكريا عليه السلام بقدر ما علمه الله تعالى من معانى صفاته و أسرار أسمائه جل جلاله .

---

(١) سورة يس آية ٨٢

و قد بينت لك أن الله سبحانه خاطب رسله بعبارات تختلف لفظا و معنى بحسب مقادير الرسل من العلم بالله تعالى و بمعانى صفاته و أسمائه، و فعل الله تعالى صفة من صفاته جل جلاله ليس كفعل الحوادث فإنه يحدث ما يشاء أن يحدثه بأسباب و بغير أسباب و من لا شيء و لا كذلك فعل الحوادث، و قد حصل الظمأ الشديد لأصحاب رسول ﴿ﷺ وآله﴾ فى غزوة تبوك و فى غيرها فشكوا ذلك إليه ﴿ﷺ وآله﴾ فأمر بأن يؤتوه بماء و وضعه فى راحتيه فبارك الله فى الماء حتى سال بين أصابعه الشريفة أنهارا روت الجيش و الحيوانات و تزودوا منها، و هذا الفعل أدبا مع الله تعالى لأنهم طلبوا الماء من الماء .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (٤١)

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبره أن آيته اعتكافه مقبلا على الله بقلبه مستغرقا أوقاته حضورا مع الله تعالى غير مشتغل بغيره سبحانه و تعالى حتى و لا يكلم الناس، فإذا دعت الضرورة إلى ما لابد منه جعل ذلك بالإشارة دون العبارة فراغا لقلبه من الشواغل .

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾

و التسبيح هو إبعاد الله تعالى عن النقائص التى هى من شأن الأحداث كما قدمت لك . و فى قوله تعالى (بالعشى) أى وقت اشتباك النجوم و زوال الشفق الأبيض و الأحمر و هو الوقت الذى يسارع فيه أهل القلوب إلى
عبادة الله ربهم جل جلاله .

و قد عينت الشريعة فى هذا الوقت صلاة العشاء لما فيه من الخصوصية، لأنه وقت يشتغل فيه الغافلون عن الله بطلب النوم للراحة و الخلوة لنيل الشهوات أو الغفلة بالسمر . (و الإبكر) من حين طلوع الفجر إلى وقت الضحى و أصله التعجيل بالشىء . و لأهل القلوب فى الأوقات التى عينتها الشريعة أنس بربهم و فراغ عن الشغل بغيره .

فأمر الله زكريا بتسبيح الله و ذكره كثيرا سبحانه، و لا يتحقق الذكر الكثير إلا إذا كانت القوة الإنسانية جميعها تذكره بحسب ما تطيقه . فللروح ذكر و للعقل ذكر و للقلب ذكر، و لكل من السمع و البصر و الشم و اللسان و اليدين و الرجلين ذكر خاص، حتى يكون

ذاكرا الله مستغرقا بكليته فى استحضار الله و الفوز بمعيته سبحانه حتى يتحقق لديها الذكر الكثير و لتلك الآية أسرارغامضة يمكن أن نبيح لك برذاذ منها . و ذلك لأن الآيات التى تليق بالرسل عليهم السلام لابد و أن تكون آيات فوق مقاديرالعقول و الأرواح ، بل لابد و أن تكون ليست كالآيات المنبلجة فى الكائنات من الآيات التى تطمئن بها قلوب السالكين، و تعجز نفوس أهل الجحود عن إدراكها .

بل تكون من الآيات المتعلقة بما فوق الكون من غيب تجليه أو سر تتزله سبحانه و تعالى، أو إشراق جمال وجهه العلى أو الوحى إليهم فى مقام العندية أو اللدنية أو غير ذلك . و أمسك لسانى عما فوق ذلك من أسرار حتى يمنحك الله تعالى إن شاء . و فى هذا الاعتكاف كمال صفاء لجوهر النفس التى هى محل لهذا التترل .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢)

بين الله تعالى فى الآية السابقة ما أكرم الله به زكريا من التفضل عليه بيحيى، و تفضل فبين لنا ما أكرم به مريم من أنه جعلها والدة لعبد أخبرنا عنه سبحانه أنه كلمة و روح منه فقال جل جلاله و اذكر يا محمد أنت و أمتك :

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾ أى حين قالت الملائكة يا مريم .

﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾

الاصطفاء : هو أن الله اختارها بما أكرمها سبحانه به (و طهرك) أى حفظك و عصمك من أن يقدر عليك نجاسة فى عقيدة أو فى حال تقتضيه البشرية، مع وجود البشرية حتى يكون الاصطفاء سببا فى رفعة شأنها و بلوغها أعلى مقامات بسبب الجهاد الفادح الذى كانت تقوم به، لأن البشرية إذا فقدت من إنسان فقد الأجر و التقرب من الله تعالى (و اصطفك على نساء العالمين) أى رفع قدرك على نساء أهل زمانك من اللآئى كن يعملن الصالحات، فإن أجر الأعمال مقدر بقيمتها، و لكن فضل الله تعالى الذى يؤتيه من يشاء يقدر بأكمل الأعمال فقد يعطيه للعامل و لغيره، و لا أدل على ذلك من الفضل الذى أعطاه لأمير المؤمنين عمرعندما هم بقتل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾

فإنه منح أرقى المقامات و أعلاها، و السيف مصلت فى يده لقتل رسول الله و ذلك من فضل الله تعالى على من يشاء من عباده ، فكيف يكون تفضله على عمل رسله صلوات الله وسلامه عليهم خذ مثالا ..

خرج موسى عليه السلام يقتبس من النار فوجد الوهاب و الغفار، و منح الرسالة و الكلام و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قوله تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾

تقدم شرح القنوت و هو طويل القيام فى الصلاة و هو الدعاء .

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

و فى تقديم السجود على الركوع إشارة إلى أنه أمر من الله بلزوم أعتاب العبودة فى حال العبادة، لأن العبد أقرب ما يكون من الله و هو ساجد قال تعالى : (و اسجد و اقترب) [1] فقدم السجود على الركوع ليشعر قلبها بكمال الاستحضار عند العبادة استحضارا بكسب قلبها كسرا حتى تمنح مقاما عند الله لها . و الركوع معلوم . و قوله تعالى : (مع الراكعين) إشارة إلى أنها تابعة لموسى عليه السلام لأنها ليست أول الراكعين، و فى ذلك أدب لها و برهان على أن النبوة لا تنالها النساء لأن الرسل عليهم الصلاة و السلام علمهم أن يقولوا : (فأنا أول العابدين) [2].

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤)

(١) سورة العلق آية ١٩

(٢) سورة الزخرف آية ٨١

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ)

يقيم الله الحجة على اليهود و النصارى بتلك الأنباء التى كان لا يعلمها إلا الأحبار بعد يقينهم أن محمدا ولد فى الجاهلية، و عاش بين ظهرانيهم و أهل الجاهلية كانوا أميين لم يدرسوا كتابا و لم يحتفلوا بتاريخ، و آثار ظهور رجل منهم ينبىء بتلك الأخبار التى هى أخبار الأنبياء، و هذا دليل على أنه نبى من عند الله إذ لا يعلم علم هذا إلا الله و الراسخون فى العلم (و ما كنت لديهم) أى بينهم .

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

أى وقت إلقاء أقلامهم . و إلقاء الأقلام جائز أن يكون وقت منافستهم فى كفالة مريم حين وضعوا أقلامهم، و وقف قلم زكريا فقامت الحجة على أنه كفيلها . و جائز أن يكون ذلك بعد حصول الجدب الشديد الذى دعاهم إلى أن يعملوا لمساعدتها فاجتمعوا و ألقوا أقلامهم ليظهر الله لهم من يكفلها فى أيام الجدب .

(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)

أى و لم تكن عندهم حين كانوا يختصمون فى أيهم يكفل مريم . و كل ما تقدم من الغيب الذى لا يعلمه إلا الأحبار من الراسخين فى العلم و فى بيان الله لهم على لسان محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ و هو بين جاهلية عمياء و صماء دليل على أنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . و كان الأحرى بمعاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود أن يسارعوا إلى الإيمان بعد إقامة تلك الحجة التى هى أظهر معجزة، و لكن قاتل الله اليهود فإنهم قوم بهت .

قوله تعالى : (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (٤٥)

(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ)

معنى هذه الآية أن الله تعالى يأمر محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يذكر تلك الحادثة، مذكرا بها اليهود من معاصريه ليقيم عليهم الحجة بصدقه فى النبوة .

و بعد أن بين ما بين سبحانه فى زكريا و يحيى و حنة و بنتها مريم تفضل فبين لنا فاتحة أمرالمسيح و أنه ممن اعتنى الله بهم فبشر به أمه على لسان الملائكة حين قالوا :

(إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ)

تقدم لنا الكلام على لفظة يبشر، و بينا فيها أنها بتشديد الشين و بتخفيفها، فهى فى تشديد الشين تدل على خبر يسر لم يعلم المخبر به منقبل، و بتخفيفها تدل على السرور و النضرة و الحبور . و يقال فيها بشر فلان يبشر . و فى بعض اللغات أن المخففة قد تكون بمعنى المشددة . و قوله تعالى : (بكلمة منه) لك فى هذه الكلمة أن تفهمها بمعنى كلمة و هى من كلمة ((كن)) و كل أنواع الخلق كلمة من كلمات الله تعالى، و لك أن تقول أن الله تعالى خلقه ليبين للناس مالا بدلهم منه دينا فسماه باسم ما خلقه الله لأجله و هو الكلام فسماه كلمة . و لك أن تقول إنه كلمة الله بمعنى قدر قدره الله تعالى، تقول على شيء يحصل : هذا قدر الله تعالى كالغنى و الرقى و العلو و السعادة أو المرض و الفقر و غيره . و ليس حقيقة لشيء إلا و هو حقيقة القدر و لكنا نسمى هذا المقدور قدرا .

و جائز أن تقول إنه لما خلق من دون والد كان كأنه من كلمات لأنه خارق للأسباب التى وضعها سبحانه (منه) أى من كلماته على حذف المجرور (اسمه المسيح) جائز أن الله سماه بذلك لأنه كان يمشى على الأرض كثيرا، و جائز أن يكون ممسوح البطن لأنه مسيح فقبل بمعنى ماسح أو ممسوح . و جائز أن يكون يمسح الباطل . و لفظه عيسى علم على هذا الغلام . و الضمير فى (اسمه) عائد إلى الغلام أو إلى المعنى المراد من (بكلمة) و هو المولود .

(وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

الوجاهة فى الدنيا الظهور و الرفعة فيها . و المسيح عليه السلام بلغ فى الدنيا مبلغا حتى كان يؤمه عشرات الألوف من المرضى ليشفيهم الله على يديه . و بلغ من الوجاهة أيضا أن أحبار اليهود فى عصره خافوا منه زوال ملكهم، و خاف منه ملوك الروم أن يزيل ملكهم، بل كان شعب إسرائيل و الجيوش الرومية فى فلسطين ليس لهم حديث إلا شأن المسيح . و وجيها فى الآخرة أى أنه مقبول عند الله تعالى قبولا يجعله من المقربين لديه سبحانه .

و قد وصف الله تعالى موسى عليه السلام بقوله تعالى : (و كان عند الله وجيها) [١] فوجاهة موسى فوق وجاهة عيسى عليهما السلام ، فإن عيسى عليه السلام كان وجيها، فى الدنيا و الآخرة بخبر الله تعالى عنه . و قد أخبرنا الله تعالى عن موسى عليه السلام بأنه عند الله وجيها، و ما يفتريه دعاة النصرانية أخزاهم الله سبحانه و تعالى من أن خبر الله عن المسيح لأنه وجيه فى الدنيا و الآخرة يجعله إلها أو ابن الإله فدعوى لا يدعيها ممرور . و كتب اللغة بينت معنى وجيها . فإن لفظه وجيه على وزن فعيل . فتكون بمعنى مواجه أو مواجه .

(وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

حجة قاصمة لظهور دعاة النصرانية على أنه عليه السلام فرد من أفراد من اصطفاهم الله فقربهم بفضله و ليس لهم فضل ذاتى، فضلا عن أن يكون لهم قداسة، لأن كلمة المقربين اسم مفعول من قربه الله تعالى لقربه فهو مقرب بفضل الله لا لمزية خاصة لذاته، فهو عبد كالعبيد و الله تعالى يصطفى من يشاء و يقرب من يشاء و يبعد من يشاء، و ليس بين الخلق و الخالق نسب إلا العبودية . فليس من ذات الله فى الكون شىء، و لا فى ذات الله من الكون شىء تنزه و تعالى . إذ ليس ذات الله ظرفا للكون .

و لا الكون ظرفا لذات الله تعالى قال سبحانه: (إن كل من فى السموات و الأرض إلا ءاتى الرحمن عبدا) [٢] و الخلق جميعا لا فرق بين عيسى و عزير و لا بين نبى و ولى . بل و لا بين مؤمن و كافر كلهم عبيد مقهورون و عباد مربوبون، يرفع الله تعالى من يشاء منهم و يخفض من يشاء لا يسأل عما يفعل .

قوله تعالى : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ) (٤٦)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦٩

(٢) سورة مريم آية ٩٣

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾

معنى يكلم الناس فى المهد واضح لأن الكلام فى المهد معجزته، و المهد هو حجر أمه أو فرشه و هو رضيع . و المهد هو ما يمهد للنوم عليه . و معنى هذه الكلمة إذا أطلقت تدل على ما يوضع فيه الطفل الذى ليس له إرادة فى دفع ما يضره، أو جلب ما ينفعه .

﴿وَكَهْلاً﴾ معنى هذه أنه يتكلم كهلا بما يتكلم به طفلا، و بهذا المعنى لا يكون كلامه كهلا معجزة و لكنا نفهم فى هذه الكلمة أن كلامه كهلا من أكبر المعجزات . و إن كان بعض العلماء عرف الكهل من سن استواه إلى صباه الأعلى أى من ثلاثين سنه إلى الأربعين، إلا أنه بحسب العرف لا تطلق إلا على من تجاوز الستين، و المسيح رفع إلى السماء و هو فى ريعان شبابه حيث كان سنه ثلاثا و ثلاثين سنه .

و إذا فهمت ما أورده عليك تتحقق أن كلامه كهلا معجزة كبرى، و ذلك لأنه يترل من السماء بعد رفعه فى آخر الزمان فيتكلم مع الناس فيكون كلامه فى ذلك الوقت من المعجزات الباهرات، و يصير عليه عندها أنه كهل بالنسبه لطول الذى الزمن أمضاه فى السماء الرابعة كما ورد ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فيها معنى ما فى قوله و من المقربين و قد سبق لى أن تكلمت فى هذه الكلمة و بينت أن الصلاح فوق كل تلك المراتب، لأن الله تعالى ختم به تلك الصفات التى لم يثن بها إلا على أولى العزم من الرسل فدل ذلك على أن الصلاح أكمل مقام يتفضل الله به على خاصة رسله، أسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الصالحين ...

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤٧)

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

لما أن بشر الملائكة مريم عن الله تعالى أن الله تعالى يهب لها كلمة منه، يعنى غلاما، فعجبت لأنه فى غاية الغرابة لفقد الأسباب التى تعودها الإنسان و هى صديقة و الصديقون فطروا أن لا يقبلوا إلا بالحجة لأن لهم مقام الإيمان خصوصا فيما يتعلق بالغيب المصون من ذات الله تعالى و أسمائه و صفاته . قالت من أى جهة يكون لى ولد مع فقد الأسباب التى هى من البشر الذى جعله الله سببا لحمل النساء .

و ذلك لم يحصل لكمال عفافها و يقينها بنفسها و لم يكن تعجبها جهلا بقدرة الله تعالى و لكن ليطمئن قلبها، لعلمها أن مثل هذا يثير ثائرة الشبهة ممن يجهلون سر قدرة الله تعالى فتعتورهم الشكوك و الريب . فلما سألت ربها بعد بشرى الملائكة لعلمها أن بينها و بين الملائكة مجانسة بالنسبة لأنهم مخلوقون مثلها لكن كمال يقينها جعلها تعتقد أن ربها جل جلاله أقرب إليها، فنادته نداء القريب للقريب فأغاثها الله مطمئنا قلبها بمزيد علم اليقين قائلا : ﴿كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ و قد شرحنا هذه الآية فى سورة البقرة .

﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

و قضى هنا بمعنى قدر بخلاف معنى قوله تعالى ((و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه))[1] فإن معناه أمر و حكم و معناها فى هذه الآية أنه إذا قدر أمرا فى سابق علمه و وقته بوقت و حان الوقت قال له كن فيكون كما قدر سبحانه و تعالى و ليست كن بكلمة تحتاج إلى صوت و تقاطيع حروف و لكنها سر القدرة التى تبرز ما قدره الله تعالى أزلا فى آنات معلومة .

قوله تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (٤٨)

كل تلك الصفات التى أثنى الله بها على عيسى عليه السلام هى مدائح فى نهاية الكمالات إلا أنها حجج قائمة على كمال العبودية للمسيح قاصمة لظهور وفد نصارى نجران، و إليك الإشارة فى ذلك الذى يبشر الله تعالى به أمه فيترعج قلبها و يحصل لها الدهش من شدة العجب، و يخبرها الله تعالى فى البشرى أنه روح منه و أنه يكلم الناس فى المهد و كهلا و من الصالحين، كل تلك الصفات التى تفيد أنه عبد تعتوره التغيرات الكونية .

و كل متغير فى أطواره و مقاماته حادث مقهور لا يقبل عقل أبله و لو رآه يحيى الموتى و يخلق من الطين حيوانا و يخبر بالغيب بعد أن قامت الحجة على أنه متغير متطور إلا أن يقول هذا مخلوق أكرمه الله تعالى، و لا يمكن أن يتصور أن هذا المتغير الذى حكمت عليه الحقائق فتغير بحسبهافى كل سن و فى كل زمان فجاع و شبع وظمأو شرب و مرض و شفى و أمن

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣

و فرح و حزن و غضب و رضى و اختفى من الأعداء . وظهر بكل أنواع التغيرات الكونية التى تعتور الحوادث أنه الله أو ابن الله و من قال بعد تلك الحقائق أن عيسى ابن الله أو هو الرب كان من الذين يقولون يوم القيامة : يا ليتنى كنت ترابا . و كان أقل قيمة ممن يعبدون البقر لأن لهم عذر فى عبادة البقر لما ينالونه من البقر من لبن و روث و لحم و جلد و عجول . اللهم إنا نبرأ إليك مما يصفك سبحانك به أهل الجهالة العمياء و الصماء بعد أن قال لهم المسيح : أنا لست المعلم الصالح، فرأى نفسه أحقر و أصغر من أن يكون معلما صالحا و هو الرسول الكريم من أولى العزم و لكن (من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) [1] نشكر الله تعالى على نعمة الإسلام و نسأله أن يجازى سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ عنا خير الجزاء .

(الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

الكتاب هى التوارة . و الحكمة هى السنة التى علمها الله للرسل ليبينوا للناس محاب الله ومراضيه من العبادة و المعاملة و الأخلاق مما لا يتلقاه الناس إلا عملا أو مما أبهم على الناس فى الكتاب أو أجمل . فيبينون ما أبهم و يفصلون ما أجمل و هى السنة .

(وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ)

يبين الله تعالى ما خص به عيسى بن مريم عليه السلام من الفضل العميم الزائد على ما جمله الله به سبحانه فى ذاته عليه السلام من أنه كلمة منه . و أنه وجيه فى الدنيا و الآخرة و من المقربين . و أنه يعلمه الكتاب و الحكمة و التوارة و الإنجيل . و معنى تعليمه الكتاب أى أنه سبحانه يمنحه العلم الذى به يصير يكتب الكتاب بيده . و الحكمة هى السنة التى بها بيان الكتب قبله و المنزلة عليه السلام . و التوارة هى الكتاب الذى أنزله الله على موسى عليه السلام .

و الإنجيل هو الكتاب الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام . و هذان الكتابان أنزلهما الله تعالى خاصين بموسى و عيسى و بنى إسرائيل، و لكن أحبار اليهود و رهبان

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

النصارى دعاهم الهوى الذى هو أخو العمى و الحظ و حب متاع الحياة الدنيا إلى تحريف هذين الكتابين عن مواضعهما، و من قرأهما فيما يتعلق بأخبار الرسل السابقين يجزم أن هذا ليس من عند الله تعالى خصوصا فيما يتعلق بلوط وداود و سليمان و موسى و إبراهيم عليهم السلام فإنهم ذكروا الأنبياء و الرسل بما لا يليق بمقاماتهم العلية و خصوصا فيما يتعلق بالبشائر التى وردت فى التوارة عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ التى حرفوها تحريفا يدل على سوء أدبهم مع الله تعالى و افترائهم عليه .

و نحن لا نحكم بيننا و بينهم إلا العقل السليم من الهوى، فإن العقل بمجرد اطلاعه على ما رموا به أنبياء الله ..

يحكم أن ذلك محض افتراء، فإن اليهود رموا عيسى بأنه ابن زنى و رموا داود بأنه كان رجلا شهوانيا ظالما قتل رجلا لينكح امرأته . و رموا لوطا عليه السلام بما أخجل أن أذكره . و رموا غيره من الأنبياء بما هو مشهور عنهم فى التوارة . و رمى النصارى عيسى بما لا تقبله العقول السليمة .. من أنه ابن الله أو الإله بعد أن أقام الحجة بنفسه أنه عبد يتأثر و يتغيتر فيأكل و يتغوط و يبول و يخاف و يفرح و يرضى و يغضب و إن كان أظهر من الآيات الكونية مالا يقدر عليه إلا اللهُ تعالى، فإن اللهَ قادر أن يهب لمن يشاء من عباده ما شاء سبحانه .

قوله تعالى : ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩)

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

هذه الآية جعلت مسألة المسيح خاصة بقومه، و إن كان لنا أن نفهم أن الرسول إلى بنى إسرائيل الذين هم أهل كتاب يجعله رسولا إلى غيرهم بالأولى من أهل الجاهلية و المجوسية و غيرهم، إلا أن تعيين القرآن أنه رسول إلى بنى إسرائيل يجعل معاصريه و من بعد عصره من الأمم الذين ليسوا من بنى إسرائيل أهل فترة لا يؤاخذون بترك الإيمان به .

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ﴾

و تأويل هذه الآية بأنى (قد جئتكم بآية من ..) عند ربكم بأنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير . ومعنى ذلك أنى جئتكم بآية أى بعلامة تقوم بها الحجة من عند ربكم تدل على صدق رسالتى و تأييد دعواى لتؤمنوا بما جئتكم به من ربكم، و تلك الآية هى أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا . و على هذه الرواية رسم المصحف وإجماع القراء . وقد روى : (كهيئة الطير فأنفخ فيها فيكون طائرا بإذن الله) . و تفصيل هذه الآية أن عيسى عليه السلام كان جالسا بين صبيين فقال : إن أنا خلقت من الطين طيرا يطير أمامكم تؤمنون بى ؟ فقالوا : نؤمن .

فقال : أى طائر تريدون أن أخلق لكم ؟ فقالوا : الخفاش لأن الخفاش لحم كله، فصور الطين كالخفاش ونفخ فيه فطار فقام الصبيان فى دهشة وأخبروا الناس فعجب الناس . وتلك المعجزة وإن أدهشت من شهدها فإنها لا تؤثر على من سمعها . فقد تكون فتنة لمن رآها ومن يسمعها كما حصل بسببها .

والمعجزة التى قدر الله تعالى أن يحفظ بها عباده من الفتن فى الدنيا . وينجيهم بها فى الآخرة هى معجزة خاتم الأنبياء ﴿ ﷺ وآله﴾ التى هى القرآن المجيد .

﴿وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾

الأكمه : هو الذى يبصر نهارا و لا يبصر ليلا، وجائز أن يكون الأكمة هو الذى ولد أعمى لا يبصر . وجائز أن يكون الذى كف بصره . والأبرص : هو الذى أصيب بمرض أفسد دمه فغير جميع جلده أو مزق جلده أو مزق الجلد و بتر الأصابع والأطراف أعاذنا الله منه وإخواننا (وأحى الموتى) هذا ظاهر ولكن لأهل الإشارة فيه تأويل . وهو أنه كان يحى موتى القلوب كما قال تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) [1] وذلك أنه نزل مع أمه

(١) سورة فاطر آية ٢٢

ضيفا فى بيت رجل فى بلد أيام هجرته من أورشليم عندما شدد اليهود عليه العناد فأكرمه الرجل وأكرم والدته وأحسن إليها . فدخل الرجل يوما حزينا، فقالت له مريم : ما يحزنك ؟ فقال : إن ملك هذه المدينة يكلف كل رجل بأن يطعمه هو وجنوده يوما واليوم على طعامهم . وليس عندى ما أقدمه، فقالت : إنى سأسأل ابنى أن يدعو لك الله فيعينك . و توجهت إلى عيسى فقالت : يا بنى اسأل الله أن يعطى هذا الرجل طعام الملك و جنده، فقال : دعينى إن هذا شر، فقالت : أحسن إلينا .

فأمر عيسى الرجل أن يملاء قدوره وجراره ماء . ثم قال : اللهم اجعل ما فى القدور طعاما وما فى الجرار خمرا فكان كما قال . وجاء الملك فأكل وشرب الخمر . وقال للرجل من أين لك هذا الخمر فإنه لا يوجد فى بلادنا ؟ فأنكر ولما شدد قال : إن عندى صبيا قلب الماء خمرا وطعاما . فقال الملك : إن الذى قدر أن يجعل الماء خمرا يقدرعلى إحياء الموتى وكان له ولد مات فجاء بعيسى فقال له : سل الله أن يحيى ابنى فقال : إن هذا يكون شرا فقال : أراه فقط، فسأل عيسى الله فأحيا للملك ابنه . فلما قام هاج الشعب وازداد اليهود عدواة للمسيح

وقالوا إن هذا الساحر يريد أن يغير ديننا بسلب ملكنا . واشتد الأمرعلى المسيح وكان يوما بالسامرا ونزل فى دار مريم المجدلية صديقة أمه وذهبت المجدلية إلى المقابر وجلست مع مريم أم عيسى تبكيان، فقال عيسى لأمه : ما يبكيما ؟ فقالت : إن لو عاذر أخا مريم المجدلية مات هنا، فقال إن أحييته لها هل تؤمن بى ؟ فأحياه لها وهاج الشعب واشتد عليه اليهود وكان يتبعه عشرات الألوف من المرضى والزمنى . وكانت محبة الناس محصورة فى تلك المعجزات .

(وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)

يعنى أنه يخبرهم عن أشياء لا يعلمها غيرهم مما يتعلق بمنازلهم و بخصوصياهم لم يطلع عليها سواهم، ومن ذلك أنه كان يجلس مع الصبيان فيقول للواحد منهم إن أمك أخفت عنك كذا فى مكان كذا، فيحبه الصبيان ويجلسون معه، ومن ذلك ثبتت القاعدة أن أقرب الناس إلى الله وأقبلهم للحكمة الصبيان والنساء، لفراغ قلوبهم مما يحجبها عن مطالعة الغيب المصون .فإن النساء لا يشتغلن برياسة ولا بسياسة ولا بتدبير ولا بسعى إلى معاش .

فقلوبهن خالية مما يشغل قلوب الرجال وكذلك الصبيان، ولما علم آباء الصبيان بذلك حبسوهم فى دار، فسأل عنهم المسيح عليه السلام حتى جاء إلى الدار التى هم فيها فقال : من هنا ؟ فقالوا : هنا خنازير. فقال : ليكونوا خنازير فلما فتحوا الباب وجودا الأولاد قد استحالوا إلى خنازير فكان ذلك مما قوى عناد اليهود .

وتلك المعجزات وخوارق العادات التى لا يتصور العقل أن إنسانا بنفسه يقوم بواحدة منها إلا بقوة الله تعالى و سابق إرادته ، و ذلك لا يكون إلا على يد رسول صادق . و قد بينت لك فيما سبق أن الله تعالى لا يظهر تلك الآيات الباهرات إلا لتقوم له الحجة جل جلاله على من يشهدها، وقد علمت أن موسى عليه السلام أتى بما فوق ذلك ، بالعصا التى فلق بها البحر و ألقاها على أعمال السحرة فلقفت ما صنعوا، و ضرب بها الحجر فانفلق منه اثنتا عشرة عينا، فكانت أعاجيبها عند التحدى و من غير تحدى، و تلك المعجزات الباهرات ما نال فرعون و قومه منها إلا الهلاك الأكبر، بل و ما نال اليهود الذين هم أمة موسى فى عصره إلا بعدا عن الله و عبادة العجل من دونه، فكذلك ما نال بنو إسرائيل أيضا من المسيح و ما نال غيرهم منه إلا اللعنة و الغضب من الله عليهم لأنهم نوعان : نو ع كفر فرمى عيسى بأنه ابن زنى، و نوع كفر فبالغ حتى رماه بأنه ابن الله . و سبب ذلك كله تلك المعجزات المحسوسة التى تحيرت فيها العقول .

و إليك ما جاءنا به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من المعجزات المحسوسة الملموسة التى تفوق كل معجزات الرسل من قبله كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين الأصابع، و نطق الذارع، و البركة فى الطعام، و إدرار الشاة العجفاء، و إحياء الموتى كما ورد، ورد العين بعد سقوطها و إبراء المجزوم، ورد الساق المقطوعة و إبراء المحترق بالنار، و سير الحجر على وجه الماء، و الإخبارعما أخفاه الناس كما حصل للعباس بن عبد المطلب عند الطلب الفدية منه، و هزم الجيوش الجرارة بكف من التراب، و جعل الحجر الصلد رملا أهيل فى حفر الخندق، والإبراء من لدغة الحية بنفثة من ريقة ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و غير ذلك مما لا يسع شرحه المقام .

فإن كل تلك المعجزات الباهرات ليست شيئا يذكر فى جانب معجزته الخالدة الباقية الخضرة النضرة، التى لا تنتهى حلاوتها و لا تزول طلاوتها و لا يملها السامع، و هو القرآن المجيد الذى حفظ الله به الأمة الإسلامية من الشك و الشرك خفيا كان أو ظاهرا، فلا تزال

و لن تزال تشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله، كل ذلك لم يكن بتلك المعجزات التى هى أكثر من الرمل عدا بل بمعجزة المعجزات و هى القترآن الذى جمع الله لنا فيه خيرى الدنيا و الآخرة و خير ما بعدهما . و القرآن دعوة و حجة و ما جاء رسول قبله إلا و دعوته غيرمعجزته، و لذلك فإن الله نسخ شرائعهم بعد موقم و جعل شريعة حبيبه محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ هى الباقية المهيمنة على الشرائع، و جعله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الأنبياء .

و تلك المعجزات الباهرات التى أظهرها الله على يد عيسى عليه السلام عندما قبض عليه الروم بدسيسة أحبار اليهود أنكره كل من عرفه حتى قال بطرس : أنا لا أعرفه . لم ذلك ؟ لأن الآيات التى جاءهم بها كونية محسوسة ملموسة لم تصل أنوارها إلى القلوب فتنعقد على الحق حتى يروا الموت فى الحق سعادة كبرى ما رأى أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ذلك، فكم من رجل منهم عذب عذابا لا تتحمله الجبال فلم يزدد إلا يقينا و إيمانا، و لو ذكرت لك أسماء من عذبوا فى الله لعجبت لكثرقم،

و لكن ألمع إليك ببلال و عمار و أمه سمية و والده ياسر و غيرهم ممن عمرت قلوبهم بروح القرآن و هم عجم لا يفهمون العربية، و لكن القرآن له نور يسبق إلى القلوب عند سماع ألفاظه، و كل تلك الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام تكاد تكون محصورة فى الطب، و سبب ذلك أن القوم فى هذا العصر كانوا متفوقين فى الطب تفوقا جعلهم يظنون أنهم يقدرون على إعادة صحة المريض إليه، حتى ظهر المسيح فقهرهم حتى اعتقدوا عجزهم و لكنها لم تؤثرعلى قلوبهم التأثر الذى يجعلهم مؤمنين .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

أى إن فيما أظهرته لكم من المعجزات الباهرات لعلامة ودلالة على صدقى فيما ادعيته من أنى رسول الله إليكم، و لا حجة أدل على ذلك مما رأيتموه بأعينكم من جعل صورة الطين طيرا يطير، و كان الطير خفاشا، و كان إذا نظر الناس إليه طار و إن لم ينظروا إليه سقط طينة . و فى الحقيقة ليس أدل على صدق عيسى عليه السلام فيما ادعاه من الرسالة شيئا أعظم و أكبر مما أظهره أمام أعين قومه، و لكن الله يهدى من يشاء، و يضل من يشاء و تلك المعجزات كما بينت لك لم تنتج إلا نتيجة واحدة : و هى تعظيم ذات المسيح عند من

قبل منهم تعظيما جعل النفوس لا تنظر إلا إليه و نسيت الحكمة فى إظهار تلك المعجزات التى هى تصديقه فيما جاء به من عند الله فلم يصدقوه شغلا بما باشر قلوبهم من تعظيمه و نسيان ما سوى ذلك، حتى كان إذا تكلم فيما جاء به من عند الله لا تقبله نفوسهم و تشتاق إلى آية من الآيات التى أظهرها، و كم بين لهم أنه عبد الله و أنه ما أظهرهذه المعجزات إلا بإذن الله أى بإرادته و قدرته . و فى قوله (أخلق لكم من الطين) والخلق هو التدبير والتصوير فسمى عيسى خالقها بمعنى أنه دبر الصورة وأحكمها وصورها والتدبير والتصوير لا يخرجان عن الخيال والوهم، والله تعالى خالق بمعنى أنه يريد ويبرز إرادته وقدرته من غير تدبير ولا تصوير وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فجائز أن تقول للصانع خلقت الأحذية و الثياب يعنى دبرتها وصورتها و لكن بمعنى أنه أرادها وأحكمها من غير تدبير ولا تصوير فلا ...

وشتان بين من يعمل ما يعمل بفكر وبحث و آلات وأدوات و تصوير و تدبير و بين من إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

قوله تعالى : ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾(٥٠)

﴿وَمُصَدِّقاً﴾

معنى هذه الجملة جئتكم رسول حال كونى مصدقا (لما بين يدى) أى بما سبقنى (من التوارة) فلست ناسخا لكتاب موسى، و لكنى أعتقد أنه كتاب من عند الله تعالى و أن موسى رسول الله من أولى العزم . و لا يلزم من تصديقه به الإيمان الذى يجعله تابعا بل يجوز له أن ينسخ منه بإذن الله تعالى بدليل قوله تعالى: (و لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم)

.

فإن الجمع بين الجملتين يلزمنا أن نفسر (مصدقا) أى معتقدا أنه كتاب من عند الله لأنه مؤمن به إيمان المتبعين لشريعته، فإن إحلال ما حرمه الله فى شرع موسى عليه السلام نسخ بعض أحكامه، و للجمع بين الجملتين نقول : إن الله تعالى حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات التى كانت حلالاً لهم تشديدا عليهم و تأديبا لهم و انتقاما كما قال سبحانه(فبظلم

من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) [1] و مما حرمه الله تعالى عليهم شحوم الأنعام إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، و كما حرم إسرائيل على نفسه فإنه حرم أكل الإبل بسبب مرض أصابه فنذر إن شفاه الله منه يترك أشهى اللحوم إليه و كان لحم الإبل أشهاها إليه ، فلما شفاه الله تركه فاقتدى به بنو إسرائيل، فلما بعث الله عيسى بن مريم أحل الله ما كان حرمه عليهم بسبب ظلمهم : و ليس ذلك بنسخ لأحكام التوارة . فقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام (مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) مع قوله (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)

لا خلاف بينهما و لو أنا تأولنا مصدقا أى مؤمنا إيمان متبع لموسى الذى لا ينسخ من أحكامه شيئا فيكون إحلال الله لهم على لسان عيسى عليه السلام ما حرمه عليهم على لسان موسى عليه السلام إنما هو كرحمة من الله بهم و تخفيفا للعقوبة، فكأن ما جاء به عيسى هو ما جاء به موسى عليهما السلام لأن القوم كانوا حديثى عهد بقهر فرعون، فلما نجاهم الله منه اتبعوا أهواءهم و نفذوا أغراضهم، و ذلك لا تطيب به حياة المجتمع و لكنهم بطول المدة و كثرة بعثة الأنبياء رقت طباعهم و زكت نفوسهم بالنسبة لما كانوا عليه، فإن الإطلاق بعد التقييد يقتضى انقلاب الأحوال و بذلك فقد أحل الله لهم ما كان حرمه عليهم تخفيفا و رحمة بهم .

(وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)

أى جئتكم بعلامات دالات على أنى عبد الله و رسوله أبين لكم ما به تفوزون بالجزاء الحسن يوم القيامة، و الآية هى الحجة و العلامة .

(فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ)

اتقوا الله أى خافوا عقوبة الله بمخالفة ما جئتكم به من عنده سبحانه، و أطيعون فيما بعثنى الله به إليكم .

---

(١) سورة النساء آية ١٦٠

قوله تعالى : (إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) (٥١)

(إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ)
براءة مما نسبه إليه أهل الجهل بالله تعالى من اليهود و النصارى، فإن النصارى بالغوا فى تعظيمه مبالغة ينكرها العقل و النقل، كذلك بالغ اليهود بعد ما جاءهم به من الآيات فقالوا أنه ساحر و ابن زنى، فكفر به عليه السلام طائفتان : طائفة كذبته فافترت عليه مالا يليق بالإنبياء، و طائفة عظموه تعظيماً لا يليق بمقام العبد الداعى إلى الله فضلا عن الرسل عليهم السلام ، فقوله : (إن الله ربى و ربكم) حجة قاصمة لظهور أعدائه من الطائفين لأنه يثبت بالبرهان القولى و الفعلى أنه عبد الله كسائر العبيد، و لله عليه حق الربوبيه كما هى على سائر الخلق، و لا يمتاز فى هذا المقام عن الخلق إلا بما فضله الله به من النبوة و الرسالة .
(فَاعْبُدُوهُ) أى فأخلصوا له العبادة كما أخلصت أنا له العبادة .

(هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)
الإشارة إلى ما جاءهم به عليه السلام من عقيدة و أخلاق فاضلة، و لم يأتهم بمعاملات و لا بعبادات، لأن قسم المعاملات و العبادات وضحته التوارة . و الصراط المستقيم هو السراط المستقيم بين نقطتين، و هو أقرب الطرق لأن الطرق غيره تكون غير مستقيمة .

قوله تعالى : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٥٢)

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ)
أى لما ثبت له منهم الكفر بدليل قوله تعالى (أحس) و ثبوته إما بقولهم أو بإعراضهم عنه أو بمناوأتهم له ، لأن (أحس) بمعنى أدرك ما يحكم عليه الحس، و الإحساس هو وجدان ما يدرك بالحس على تأويل الآية . فلما ظهر له من قولهم أو من عدم قبولهم ما يبينه لهم، تحقق أنهم كفروا و وجد كفرهم بحسب تأويله ثابتا، كما يجد ما يدركه الحس أراد أن يصطفى له صفوة فقال لمن يتبعونه : (مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ) أى من ينضم إلى لينصر دين الله تعالى كما

قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : [الذود إلى الذود إبل] أى الذود منضم إلى الذود إبل لأن تأويل (إلى) بمعنى مع لا يقبله العقل و إن جاز ذلك لغة فى غيرهذا الموضع ...

و المعنى من يعيننى على نصرة دينى و تأييده و كبح جماح أعداء الله و أعدائى لنصل إلى الله تعالى .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نحن أنصار الله﴾

قالها اثنا عشررجلا كانوا يصطادون من نهرالأردن و كان فيهم شمعون و يوحنا فقال له شمعون : أقم معجزة، و كان قد طرح شبكته يومين و لم يصطد بها شيئا فطرحها بأمرعيسى فملئت سمكا حتى عجزعن حمله من البحر فاستعان بسفينة أخرى و أخرج الشبكة فملأت السفينتين فآمن به و آمن معه الصيادون و اتبعه الملك الذى أحيا ابنه كما قدمت لك .

فقولهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ﴾ أى أنصار الله معك .

﴿آمَنَّا بِاللّهِ﴾

أى صدقناك فيما جئتنا به من عند ربنا .

﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

أى و اشهد لنا عند ربنا بما شهدته منا من انقيادنا وتصديقنا لك . ومن هذه الآية تقوم الحجة أن دين الإسلام هو دين كل الأنبياء عليهم الصلاة و السلام فمنحهم الله قسطا من العلم به ببركة تصديقهم شهدوا به أنهم فى معية الله تعالى فقالوا داعين ربهم سبحانه ما أخبرنا الله عنهم به و هو : (ربنا ءامنا بما أنزلت ..) الآية .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣)

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ﴾

أى صدقنا بما أنزلت تصديقا منحنا به من فضلك العلم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أى سمعنا و أطعنا كلام رسولك المعهود و هو عيسى عليه السلام فتفضل علينا بما أنت أهله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ) و هم الذين أخبر الله عنهم بقوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [(١)] و جائز أن يكون المراد بالشاهدين أى الذين كتبتهم يوم القيامة شهداء على الأمم التى خالفت الرسل و كذبتهم بدليل قوله تعالى فى مدح أمه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ :(و كذلك جعلناكم أمه وسطا لتكونوا شهداء على الناس) [(٢)] و جائز أن يكون المعنى بالشاهدين الذين أكرمتهم فأشهدتم بدائع إبداع صنعك و جمال آياتك فى مكوناتك لتزداد علما و يقينا و قربا منك .

قوله تعالى : (وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُالْمَاكِرِينَ) (٥٤)

المكر هو الإقدام على الشر خفية إذ هو إجماع الرأى و إحكامه و حسن التدبير فى نجاح المقصد : و قد يطلق و يراد به إجماع فئة مخصوصة تعمل خطيئة مخصوصة فى دجوة من الليل لا يعلم بها أحد للفوز بالمقصد، و بذلك يكون هذا العمل هو السياسة التى يراها الناس من الكياسة والعقل . وعندى أنها كذلك إذا كان الذين يمكرون يريدون بمكرهم تنوير أفكار الأمم أو المجتمعات أو خيرا لا تسعد الأمة إلا به، ويكون الماكرون ممن ملأ الله قلوبهم رحمة وميلا إلى الخير، وهذا هو السياسة القويمة والمكر الحسن وهو كياسة الأنبيا و الأئمة الهداة المرشدين. أما المكر الخبيث و السياسة العقيمة المعوجة التى يراد منها سلب منافع الأسرة أو القرية أو المدينة أو الأمة فهذا المكر كله شر و تلك كلها ظلم تدل على أن المسارعين إليها من شياطين الإنس الذين يوحى إليهم شياطين الجن .

(وَمَكَرُواْ)

أى سارعوا إلى عمل الشر خفية، وذلك الشر هو قتل المسيح و محو ما جاء به من النور و الهدى، و لما كان الحق جل جلاله قدر فى أزله أقداراً و قدر سبحانه أن يظهرها فى آنات مخصوصة و بأسباب وضعها سبحانه و تعالى ، و قد مع إبرازها أن يحدث أحداثا عظيمة من سر قدره تعالى فى مقابلة مكرهم و كيدهم للمسيح .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣

(وَمَكَرَ اللّهُ)

و مكر الله تعالى هو أنه أخفى عنهم سرالقدر و أظهرأمره و نهيه و أحكام دينه، مؤيدا المسيح بالمعجزة الباهرة فأبوا أن يقبلوا، و لجهلهم بسر القدر ناوءوا المسيح عليه السلام و مكروا به و هموا بقتله، فاجتمع أحبار اليهود ليلا و وضعوا طريق المكايد التى يكيدون له بها فرحين بما وضعوه . فمكر الله بهم من حيث لم يحتسبوا و رفع المسيح إلى السماء، و انتقم منهم ملك الروم الذى تسلط عليهم فمزق جمعهم فى الأرض حتى فر بنو النضير و بنو قينقاع إلى الحجاز .

(وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)

يعنى أن الله سبحانه و تعالى لم يقدر الشر فى أزله، لأن أسماءه العلية كلها حسنى، و فعله سبحانه و كلماته جل جلاله كلها خير، كذلك مكره جل جلاله إنما هو للخير و الهداية و السعادة، لا فرق بين مالاءم إنسانا و مالم يلائمه، فإن فيما لا يلائم الإنسان تزكية للنفس و تثقيف للعقول و تجديد صحة و عافية و تجمل بجمال العبودية لله تعالى-، و فيما يلائمه شهود لآثار قدرة الله و نعمته و فضله، و قيام بشكر المنعم، و تخلق بأخلاق الله تعالى فى إعانة أهل الحاجة، فيكون مكر الله خيرا لأنه خير الماكرين و لو كان فيه مالا يلائم الإنسان كما بينت لك .

قوله تعالى : (إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (٥٥)

معنى هذه الآية أن اليهود مكروا بعيسى مكر سوء ليقتلوه و يمحوا دينه بعد أن أظهر الله على يده مما تقدم لك . فمكر الله بهم .

(إذ قال) يعنى حين قال (و مكر الله) أى إن مكر الله تعالى بهم هو قوله سبحانه لعيسى عليه السلام : (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)

و معنى هذه الآية الشريفة جائز أن يكون متوفيك بالنوم لأرفعك إلى السماء فاقد الحس و الحركة فى منامك. قال سبحانه(الله يتوفى الأنفس حين موهما و التى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى) (١)

و جائز أن تكون الوفاة هو الموت فيميته سبحانه و تعالى و يرفعه إلى السماء ميتا محفوظا من أن يتمكن منه أعداء الله . و جائز أن يكون متوفيك أى متمم لك ما قدرته عليك فى الأرض و رافعك إلى إلى السماء و معيدك لأظهرعجائب ما قدرته أزلا مما بينه الحديث الشريف فى أنه عليه السلام يترل من السماء و يقتل المسيخ الدجال و يقيم الحجة على بطلان قول النصارى فيه عليه السلام و يؤيد صحة الخبرعن رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ قوله تعالى:(و يكلم الناس فى المهد و كهلا) كما تقدم و يكون كلامه كهلا بعد نزوله من السماء من أعظم المعجزات .

و لما كان محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الأنبياء لا نبى بعده أنكرالناس نزول عيسى، بدليل أنه لو نزل لكان هو خاتم الأنبياء و الله تعالى يقول:(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم و لكن رسول الله و خاتم النبيين) (٢) و لتقريب هذة المسألة إذا صح الحديث الوارد فى نزول عيسى : أن ابن مريم إذا نزل من السماء فى آخر الزمن فإنما يترل رجلا من أمة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ لا رسولا، لأن رسالته نسخت ببعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وحكمة نزوله هى إقامة الحجة على النصارى و اليهود بإبطال دعواهم، و قد ورد أنه يصلى وراء رجل آخر الزمان، و أنه يحكم بحكم الله و رسوله فى العالم، و أنه يقتل المسيخ الدجال، و ذلك كله جائز يقبله العقل و لا ينكره النقل، فالعقل يرى نزول المسيح من السماء إلى الأرض نجاة لأكثر العالم لأن قارتى أوربا و أمريكا و غيرهما من الجزائر يقولون إن المسيح ابن الله أو أنه هو الله، و اليهود يقولون المسيح ابن زنى، فتروله متمكنا فى الأرض بالحق نجاة للخلق ممن كفر بالغلو فى مدحه أو بالمبالغة فى ذمه .

و قد ورد فى نزول عيسى أحاديث لا بأس بها و إن أنكرها من لا علم له بما ورد فى السنة عن الفتن و الملاحم، و لنا أن نؤول الآية بحسب اللغة فنقول : إن الواو لا تقتضى ترتيبا

---

(١) سورة الزمر آية ٤٢

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٠

و لا تعقيبا كالفاء و ثم و لكنها تكون لمطلق الجمع . فقد يكون المتأخر عنها متقدما فى المعنى كما تقول : جاء الأمير و الجند و الذى جاء أولاهم الجند فكذلك :

(إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) أى إنى رافعك إلى و متوفيك و معنى قوله تعالى : (ورافعك إلى) أى إلى دار كرامتى و حفظى لك . و قد أول المجسمة هذا الحرف (إلى) فقالوا بأن الله له جهة، و تنزه ربنا و تعالى، و نحن نسلم أخبار الصفات، و نؤمن بما ورد فى القرآن إيمان من يعتقد أن الله ليس كمثله شيء فى ذاته و لا فى صفاته و لا فى أسمائه و لا فى أفعاله و لا فى كلامه . فقوله تعالى : (و رافعك إلى) يعنى يرفعه الله إليه و الرفع معلوم و الكيف مجهول، و نحن نسلم لله كلامه مصدقين بمعناه على قدره هو لا على قدرنا ....

(وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ)

معنى مطهرك : أى مخلصك مما كان يريد الكفار أن يوقعوك فيه، و رفعة إلى السماء خلاص له و طهرة منهم و الذين كفروا هم اليهود من معاصريه عليه السلام لأنهم جحدوا نبوته .

(وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ)

و هم من آمنوا به كما بين و اعتقدوا أنه عبد الله و رسول الله، و أنه جاءهم يحل لهم بعض الذى حرمته عليهم التوارة مما بينته لك و ذلك أن أتباع المسيح انقسموا ثلاث فرق عند رفعه، فرقة قالت : كان الله هنا و رفع .و فرقة قالت : كان ابن الله هنا و رفع، و فرقة أبت و قالت : كان هنا عبد الله و رسوله و رفع، و هؤلاء هم الذين اتبعوه حقا فى زمانه .

و أما الذين أخبرنا الله عنهم بأنهم يكونون فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة فهم المسلمون، و ذلك أن تجعل تلك الفوقية فوقية حجة و برهان و بيان،

و من ظن أن النصارى هم أتباع المسيح و أن لهم الفوقية الآن بحسب القوة و المال فقد ظن جهلا، لأن النصارى ليسوا أتباع المسيح و لا يعرفونه و لكنهم إما أن يكونوا عباد أوهام و خيالات أو خبثاء سياسين يخدعون الناس بالدين و هم ينكرونه .

أما أتباع المسيح الحقيقيون فى زمنه فهم الذين اختفوا خوفا من قهر الروم و اليهود الذين حكموا على عيسى و أتباعه بالقتل، كبولس، و لوقا، و متى، و يوحنا ، و غيرهم ممن أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (قال الحواريون نحن أنصار الله)

و أما النصارى الذين كانوا فى زمانه من أهل الجهالة بل ممن لا يعلم عن المسيح إلا ما أظهره من المعجزات التى بهرت عقولهم كإحيائه الموتى و إبرائه الأكمة و الأبرص و إخبارهم بما فى بيوتهم و ما فى نفوسهم مما يجعل أهل الجهالة يحكمون على من يفعل مثل هذا الفعل بالأولوهية و شجعهم على ذلك عناد اليهود الذين كانوا يقولون : إن المسيح ابن زنى و أمه زنى بها رجل من الروم أو يوسف النجار، و كان هؤلاء الجهلة يجهلون الضرورى من التنزيه و التقديس فقالوا فى عيسى مبالغة : أنه هو الله، و كذلك الذين قالوا : إنه ابن الله .

و قد ورد أن المسيح عليه السلام لما هم اليهود بصلبه قال للحواريين : من يحب أن يلقى عليه شبهه و يقتل مكانى ؟ فقال رجل منهم : أنا يا كلمة الله، فألقى عليه و رفع الله المسيح . و خادمه الخاص قد أطمعه الأحبار فى دراهم قليلة باع لهم بها المسيح و دلهم عليه و لما قبض عليه أخذه جنوده الروم إلى محل الصلب و كان معه رجلان محكوما عليهما بالصلب، فأخذ الروم يهوذا مع المسيح ليدلهم عليه فلما قام القوم فى آخر الليل ليصلبوه رفعه الله إليه . و فتشوا عليه فلم يجدوا إلا يهوذا الأسخريوطى فقبضوا عليه و رفعوه إلى الصليب فقال : يا إيلى لم شبقتنى ؟ و معناها بالعربية : يا ألله لم تركتنى و لست أنا المسيح ؟ فصلب انتقاما منه و هذا معنى (و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم) (١)

وكان يهوذا أشبه الناس بالمسيح جسما و لباسا، و لذلك فإن الروم بعد أن أنزلوه عن الصليب أدخلوه القبر فقال رجل منهم : هذا ليس هو المسيح، و إن الشعب غدا سيهيجون و يفتحون القبرعنوة فلا يجدونه هو . فأخرجوه من القبر و دفنوه فى رمل الصحراء، و لما فتح القبر لم يجدوه فيه و ذلك ثبت صريح فى الأناجيل الكثيرة التى تبلغ سبعة و ثمانين إنجيلا أشهرها إنجيل برنابا المطبوع فى هذا العصر.

و فى قوله تعالى : (اتبعوك) قد ظهر و تبين من خبر الله أنه لابد و أن يكون الاتباع موافقا كل الموافقة لما كان عليه عيسى عليه السلام و ما جاء به . و من هنا نتحقق أن الفوقية التى اقتضتها كثرة الأموال و قوة الحديد و النار ليست هى الفوقية التى يريدها الله تعالى، و إنما الفوقية هى فوقية العلم و البرهان و الحجة و أن يكون الذين اتبعوه على الحق الصريح .

---

(١) سورة النساء آية ١٥٧

و كم قد رأينا رسلا من أولى العزم قهرهم ملوك ظلمة و قتلوهم و أذلوهم، و ما بقى معنى من معانى الفوقية إلا معنى العلم و الحجة . و المسلمون و الحمد لله من أول سطوع الإيمان و هم فوقهم حجة و علما بل و قوة، و ما نراه من فوقيتهم علينا فى السلطة و الظلم فسبب ذلك عملنا، لأنا خالفنا سنة نبينا و أهملنا فى أحكام ديننا فسلط الله علينا أعداءنا، و لكن ليست لهم الفوقية علينا بل هى لنا بما منحناه من الإيمان و اليقين الحق بنبوة موسى و عيسى و محمد عليه الصلاة و السلام فنحن أهل الحق الذين أخبرنا الله مبشراً لنا بقوله : (كنتم أمة أخرجت للناس) [١]

فلنا الفوقية لأن المسلم المتمسك بالكتاب و السنة آمن بكل رسل الله صلوات الله و سلامه عليهم ، و بدليل قوله تعالى : (و المؤمنون كل ءامن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله) [٢] فالمسلم بصفته مسلما متبعا لكل الأنبياء مؤمنا بهم، لأن محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل، و ما جاء نبى قبله إلا و كان من كمال إيمانه الإيمان بكل الرسل السابقين عليه، فنحن نؤمن بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ و الرسل الذين جاءوا قبله، فنصدق بأنهم رسل الله و أن الله أنزل عليهم كتبا بين فيها شرائع دينهم، و أنه سبحانه أنزل على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ القرآن المجيد ختم به كتبه و جعله مهيمنا على الكتب و الرسل السابقين، و نسخ به الشرائع التى شرعها قبل محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

و إذا كان كذلك فالذين اتبعوا المسيح الاتباع الحق بعد الفرقة التى آمنت به فى عصره ثم قهرهم فرق الضلال ممن زعموا أنه ابن الله أو أنه الله فأضلهم الله و أعماهم، و لم يبق من أهل الهداية المتبعين للمسيح عليه السلام إلا أفراد لا يتجاوزون البضع من العدد كانوا منتشرين فى شواهق الجبال و فى الكهوف و المغارات فى الصحارى،وهؤلاء لم تكن بهم الفوقية على اليهود و لا غيرهم إلا بما اطمأنت به قلوبهم من توحيد الله و عبودية عيسى عليه السلام لله، لم تبق الفوقية بمبناها و معناها إلا لنا جماعة المسلمين .

و ما أورده بعض المفسرين من أن الفوقية لمن اتبعه من النصارى على اليهود مدللا على ذلك بما طعن الله به اليهود فأذلهم فى كل بلد و قرية بل و فى كل واد، و جعل الفوقية

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥

للنصارى عليهم، و هذا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره و على بيانه تكون الفوقية للروم، لأنهم على ما يراه الإمام ابن جريرهم أتباع المسيح ، و قد تحققوا بالفوقية على اليهود و على غيرهم و هذا يتمشى مع فهم أن الفوقية كونية جسمانية .

و قول الله تعالى (و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) يقتضى أن تكون الفوقية فوقية حجة و برهان و تعلق بالحق بمعناه الأكمل، و لا تتحقق تلك الفوقية إلا لنا جماعة المسلمين، و قد كانت لنا كونا و روحا من زمان أميرالمؤمنين عمر رضى الله عنه إلى أن فرقت الأطماع و الأهواء الأمة الإسلامية أيدى سبأ، صار المجتمع الإسلامى متمزقة أعضاؤه، بعد أن كان مجتمعا واحدا يحكمه خليفة يقوم فيه بما قام الخلفاء الراشدون أصبح الآن و كل أمة لها تاج،

و خصوصا بعد أن سلط الله أعداءه الإفرنج على الشرق و أهله مصداق قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى قال عليه الصلاة و السلام :قال تعالى:[إذا عصانى من عرفنى سلطت عليه من لم يعرفنى]و ما كان لبنى الأصفر أن يتسلطواعلى الشرق و قد كان الخليفة فى دمشق أو فى بغداد أو الأندلس ينظر إليهم بالعين التى ينظر بها إلى أهل الذمة.

و قد أرسل أمير المؤمنين معاوية جيشا جراراً يفتح القسطنطينية يقوده ابنه يزيد، و حصلت هناك و قائع قتل فيها أبو أيوب الأنصارى و مشهده مزار عظيم هناك، و لولا موت معاوية و رجوع يزيد إلى دار الخلافة لفتحت القسطنطينية فى زمان معاوية و قد فتح الجيش الإسلامى بعد مصر أفريقيا الشمالية و جنوب أوربا غربا و وسطا ، و كانت أوربا فى ظلمات الجهالة و طيش القوة و مع ذلك كانت فى ذل الخوف من جيوش المسلمين الذين كانوا لا يزيدون عن بضع ألوف .

بل كان المسلمون جميعا على وجه الأرض لا يزيدون عن بضع مئات الألوف، فكيف و قد أصبح المجتمع الإسلامى نحوا من أربعمائة مليون مسلم[1] و فى الشرق نحو سبعمائة مليون إنسان و أوربا ذات الحول و الطول على الشرق جميعه . و سبب ذلك الحقيقى هو مخالفة المسلمين لوصايا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مخالفة مزقتهم أيدى سبأ، فضعفوا و استكانوا بعد القوة و السلطان و الحول و الطول و متى عرف الداء عرف الدواء، و لو أن المسلمين

(١) ذلك العدد حين إملاء الإمام للكتاب

رجعوا إلى العمل بوصايا النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ و التمسك بأحكام القرآن لما أصبح لبنى الأصفر شبر أرض فى الشرق، بل و لا سلطان فى بلادهم، و الفوقية التى تؤسس على الذل و الخدع و الكيد و ختل العقول بل على الكفر بالله تعالى فوقية لا دوام لها، و لا ينظر الله إليها و لا يذكرها فى مقام المدح و الثناء، و إنما هى عقوبة من الله بصريح الحديث القدسى، و قد سلط الله بنى الأصفر على المسلمين و غيرهم فى الشرق عقوبة لهم على تركهم العمل بأوامر الله و وصايا رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

(إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذه الآية حجة لنا، و المعنى : جاعل الذين اتبعوك على ما بعثناك به إليهم من الحق الذى أنت عليه عقيدة و عملا و حالا . و الذى بينته لك بعد إقامة الحجة بالمعجزة الباهرة هو الذى كان عليه عيسى و ما جاء نابه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وقد زادنا الله تعالى بيانا فى القرآن بما لابد للمجتمع منه، وفصل لنا بقول رسول اللهصلى الله عليه وسلم وعمله وحاله فى العقيدة و العبادة و الأخلاق و المعاملة ما لم يتزله الله تعالى على نبى من الأنبياء السابقين، قال سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الإسلام دينا)(١)فكأننا و الحمد لله متبعون لعيسى و زيادة، بحيث لو أن رجلا اتبع عيسى على أكمل ما جاء به و ترك ما تفضل الله به علينا من الزيادة لكان كافرا،

حيث مقتضى الزمان يقتضى أن نتمم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما لم يكن فى عهد عيسى عليه السلام ، و إنما تكون النجاة بعيسى قبل بعثة محمد عليهما السلام، فيكون قوله تعالى (إلى يوم القيامة) حيث جعل المتبعين للحق فوق الكافرين به إلى يوم القيامة، و لا يتحقق ذلك بنا بجماعة المسلمين، و قد و هم ضلالاً دعاة النصرانية فجهلوا قوله تعالى : (اتبعوك) معنى و مبنى و تمسكوا بقوله تعالى : (فوق الذين كفروا)

فخدعوا أنفسهم و غيرهم و نشروا بين السذج من العامة أن الذين ينصرون يكونون فوق غيرهم لهم فوقية بالحديد و النار، كما كان لليهود و الروم الفوقية على المسيح و تلاميذه، حيث فرقوهم أيدى سبأ و ألبسوا المسيح الخزى و العار و الذل بدعواهم أنهم صلبوه، فإن كانت الفوقية هى السلطة و الظلم و القهر فاليهود و الروم الذين قهروا المسيح هذا القهر كانوا فوقهم و لهم المجد عند الله و الشرف بإذلالهم للمسيح، و لا قائل بهذا من المسلمين

فإن الله قد يسلط أعداءه على أحبابه و يكون ذلك غضبا من الله على الأعداء و وسيلة للانتقام منهم فى الدنيا و الآخرة، و كذلك فوقية الإفرنج على المسلمين الآن هى من هذا القبيل، و سيكون بعدها نقمة تمحقهم و تذلهم فى الدنيا و تصليهم نار جهنم فى الآخرة كما عذب اليهود فى الدنيا فمزقهم أيدى سبأ، و عذب الروم فى الدنيا بسلب ملكهم من يدهم و جعله فى يد المسلمين فكانت الفوقية لنا فى زمن سلفنا الصالح،

فوقية رحمة و عدل و نور و حق، أما فوقية الإفرنج فهى كما بينت لك فوقية ظلم بالحديد و النار و قهر بخدع و خيانة، و لو أن دعاة النصرانية فقهوا لتمنوا أن يكونوا ترابا و لا يدعون بتلك الدعوة و يدللون عليها بالقرآن الذى أخبرنا الله فيه عن القرآن بقوله : (لا يمسه إلا المطهرون) (١)

من الكفر و الافتراء، فكيف يظنون قبحهم الله أنهم يفقهون من القرآن شيئا، أو يمكنهم أن يتأولوا أية كلمة منه، و هو كلام الله تعالى الذى لا يمنح من فهمه شيئا إلا لمن وفقه الله لمحابه و مراضيه . و هنا أنصح لعامة المسلمين و خاصتهم أن يتركوا الجدل مع هؤلاء الطغاة المغرورين بالحديد و النار فى أيدى دولهم، عملا بكلام الله تعالى ، قال سبحانه : (و قالوا ءالهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) (٢)

يخبرنا الله عن كفار قريش أنهم يقولون آآلهتنا أى الأصنام خير أم عيسى الذى عبده من دون الله النصارى فرد الله عليهم بقوله : (ما ضربوه لك إلا جدلا) لأن الذين يعبدون عيسى عليه السلام كفار و كل من يعبد غيرالله كافر ، و ما أرادوا بذكرعيسى هنا إلا جدلا فذمهم الله بقوله : إن هم إلا قوم خصمون يجب أن يخاصموا، و أن جدل هؤلاء الدعاة لا يكون إلا بالسيف الماضى، و إذا كان السيف بأيدهم الآن فالأولى احتقارهم و البعد عنهم حتى يكون السيف بأيدنا و لديها يصح الجدل،

فإن الحق إذا اتضح و الهدى إذا وضح و قامت الحجة و وضحت المحجة فالواجب قتل كل معارض لأن نفسه خبيثة بقاؤها شر على المجتمع، و بشاشة الإسلام ما باشرت قلبا إلا هش لها و بش و أقبل و قبل، و متى طهر القلب من التعصب للآباء و من مرض الطمع فى غير

(١) سورة الواقعة آية ٧٩

(٢) سورة الزخرف آية ٥٨

مطمع و من سقم حب الرياسة و الانتقام و سمع آية من كتاب الله أو حديثا من كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ انجذب بكليته فقبل الدين و أقبل ، و لا حجة بل و لا محاجة إلا بالبرهان الساطع أو السيف القاطع .

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾

هذه الآية سيقت مساق الخطاب و هى للغيبة و هى من بليغ الكلام الذى يجذب القلوب جذبا إلى علام الغيوب . و المعنى ثم إلى مرجعكم أيها المؤمنون بعيسى عليه السلام و بما جاءكم به حبيبى محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بل و الكافرون بعيسى، من كفر به بمبالغته فى تعظيمه حتى جعله إلها، أو ابن الإله، و من كفر بمبالغته فى ذمة حتى جعله ابن زنى .

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾

أى أقضى بينكم بحكم عدل فأحسن إلى المحسن و أجازى المسيء بقدر إساءته يوم القيامة يوم قيام الناس لرب العالمين بعد موتهم .

﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

بعد قيام الحجة و وضوح المحجة بالمعجزات الباهرات و الآيات البينات .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٥٦)

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

يفصل لنا سبحانه ما أجمله من الآيات السابقة من معنى ذكر الطائفتين من الذين كذبوا المسيح و كفروا به، و الذين صدقوه و آمنوا به، و كل ذلك رد على وفد نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بين به سبحانه كل فئة، و أنه يحكم عليها بما تستحقه من الجزاء على الكفر أو على الإيمان . و الكفر هنا معلوم .

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾

حكم الله على الكافرين بالعذاب الشديد لأنه عقوبة لهم على الكفر، و لا عقوبة أشد من العقوبة على الكفر، لأن كفر الإنسان بعد بيان الحق له من الله على ألسنة رسله أعظم جريمة يرتكبها من كان عدما فأوجده الله و أمده بكل ما فى السموات و ما فى الأرض . و معنى هذه الآية أن الذين كفروا بما جاءهم به عيسى بعد ما أظهره لهم من المعجزات التى هى فى قوة قول الله تعالى : [صدق عبدى فى كل ما جاءكم به من عندى] لأن ما أظهره عيسى من المعجزات بينهم عمل فوق طاقة البشر مما لا يقدرعلى إحداثة إى الله و ما أظهره على يد عيسى إلا دليلا على تصديقه سبحانه له، و حجة منه سبحانه على بعثته إليهم ليدعوهم إلى ما يحبه تعالى و يرضاه .

و الكفر بعد تلك الدلائل الناصعة أعاذنا الله منه دليل على مقت الله لهم و غضبه و لعنته، و كل ذلك دليل على قوله تعالى : (فأعذبهم عذابا شديدا) و العذاب الشديد بخبر الله تعالى أقصى نهاية العقوبة التى سيعاقب الله بها من كفروا به بعد هذا البيان كله .

﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

العذاب الشديد فى الدنيا بأن يسلط على اليهود بختنصر فيخرب بيت المقدس، و يمزقهم أيدى سبأ ، و يسلط عليهم الروم فيستعبدونهم و يخربون بيت المقدس و يمزقونهم فى البلدان شر ممزق ثم يكون العذاب فى الدنيا أيضا بأن ينتقم الله منهم بحبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ و بأمته من بعده . و أما العذاب فى الآخرة فبأن يكبهم الله فى النارعلى وجوههم مخلدين فيها إلى الأبد كما قال تعالى : (خالدين فيها أبدا) (١)

و تلك الآيات هى أيضا من معجزات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن الله تعالى أخبرنا بما وقع من اليهود مع كل رسول بعثه إليهم من لدن موسى إلى عيسى و من بينهما عليها السلام، و فصل ما كان من زكريا و يحيى و مريم و أمها حنة و عيسى تفصيلا كان لا يعلمه إلا فحول أحبارهم، فكان هذا البيان معجزة كبرى و لكن من يضلل الله فلا هادى له .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦٥

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

أى و ليس لهم ناصر ينصرهم من الله تعالى ﴿ و ما النصر إلا من عند الله ﴾ [1] فإذا غضب الله على قوم بغض فيهم كل مقرب من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٧)

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

يعنى و أما الذين صدقوا المسيح فيما جاءهم به من عند الله، و الذى جاءهم به هو كل ما جاء به الأنبياء و الرسل من قبله ، إلا ما أحله الله على يده مما كان حرمه على أتباع موسى عليه السلام عقوبة لهم على ارتكابهم ما يكرهه الله تعالى، و الآيات كلها مساقة لإقامة الحجة على وفد نصارى نجران .

﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾

أى قاموا بتأدية أوامر الله مما فرضه سبحانه و سنه لهم رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾، و تركوا ما نهاهم عنه .

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾

أى فهؤلاء المصدقون المسارعون إلى عمل الصالحات يوفيهم أجورهم، و القرآن يخبرنا عن أهل الإيمان . و الإيمان هو تصديق المخبر فى خبره، و هم الذين آمنوا بالغيب بمجرد خبر الرسل عليهم السلام و بمجرد إقامة الحجج بالعجزة، و هم الذين رغبهم الله فى طلب العلم و فى تزكية النفوس و فى التقرب إلى الله بنوافل البر ليرفعهم الله إلى مقام العلم، الذى هو مقام الإحسان . و لأهل الإحسان منازلات فوق أحكام أهل الإيمان، فإذا بلغوا درجة العلم

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦

رغبهم الله تعالى فى النظر فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، قال تعالى : (سنريهم ءايتنا فى الأفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [1] فإذا انبلجت لهم الآيات ظهر لهم ملكوت السموات و الأرض مجلو على جواهر نفوسهم لصفائها بعد التزكية و السياحة الملكوتية، و هو مقام الإيقان قال سبحانه : (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات و الأرض و ليكون من الموقنين) [2] و كم مدح الله الذين آمنوا بالغيب من المفلحين، و حثهم على طلب العلم و على تزكية النفس بقوله تعالى : (فاتقوا الله يأولى الألبب) [3]

و بقوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون) [4] و بقوله سبحانه(و لو ردوه إلى الرسول و إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) [5] و بقوله تعالى : (و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان) [6] فخبر الله تعالى عن أهل الإيمان به خبر من علم ما تقبله نفوسهم مما به يشرح الله تعالى صدورهم و يطمئن قلوبهم . فقوله تعالى : (فيوفيهم أجورهم) بشرى من الله لأهل الإيمان بالغيب أما بشرى أهل مقام الإحسان و الإيقان ففى قوله تعالى : (وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [7] .

ثبت مما قررنا أن مقامات التوحيد العلية لا يمكن أن ينالها السالك إلا بعد تمكينه من مقام الإسلام، و هو التسليم لله رب العالمين تسليما مؤيدا بالإيمان بالغيب، ثم المسارعة إلى العمل بأوامرالله تعالى و ترك نواهيه، ثم تحصيل العلم بعد تزكية النفس، ثم التقرب إلى الله بنوافل البر و مجاهدة النفس على المسارعة إلى محاب الله و مراضيه و هو مقام الإحسان، ثم السياحة الملكوتية بالعبرة و الفكرة، ثم الحضور و المناجاة فى الحضور .

قال تعالى مبينا تلك المقامات : (إن فى خلق السموت و الأرض و اختلف الليل و النهار

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣

(٢) سورة الأنعام آية ٧٥

(٣) سورة المائدة آية ١٠٠

(٤) سورة الزمر آية ٩

(٥) سورة النساء آية ٨٣

(٦) سورة الروم آية ٥٦

(٧) سورة القيامة آية ٢٢ — ٢٣

لأيت لأولى الألبب) * الذين يذكرون الله قيما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموت و الأرض ربنا ما خلقت هذا بطلا سبحنك فقنا عذاب النار) (١)

انظر إلى قوله تعالى : (يذكرون الله قيما و قعودا و على جنوبهم) . و ذكر الله قياما و قعودا يكون بالصلاة و تلاوة القرآن، و ذكر ماله على الإنسان من النعم فى نفسه و فى الآفاق فى نومه و فى يقظته، ثم انظر إلى قوله : (و يتفكرون) بعد يذكرون فإن الفكر لا يأتى إلا بعد صفاء جوهر النفس بالجهاد الفادح فى رعاية الأنفاس و الحركات و السكنات، و القيام بالفرائض و السنن و المرغبات، ثم انظر إلى المقام الثالث و هو مقام الحضور مع الله و مناجاته مناجاة المخاطب لِلّْمُخَاطَبٌ بقوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا) فإن قول العبد ربنا لا يكون إلا فى حضور كامل مع تنزية كامل . و فى قوله (ما خلقت هذا باطلا) يقتضى شهود عيان لسر الإيجاد و الإمداد مفصلا جميع الحقائق .

و شتان بين من يبشرهم الله بقوله : (فيوفيهم أجورهم) و بين من يأمرهم بقوله (ففروا إلى الله) أى مما سواه . هنا يجب على أهل مقامات الإيمان ألا يتجاوزوا مقاديرهم قال ﷺ وآله [المؤمن من سرته حسنته و ساءته سيئته] و هذا خبر من رسول الله عن أهل الإيمان بالغيب و انظرمعى قوله تعالى(قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا) (٢) فهل من فرح بحسنة كمن فرح بفضل الله و برحمته . ؟ . لا .

و الجمع بينهما أن أهل الإيمان بالغيب يفرحون بالحسنة، أما أهل الإحسان ففرحهم بفضل الله و برحمته، أما أهل مقام الإيقان فقد أشار إلى مشاهدهم بعض الصحابة الذين كان الواحد منهم يقول لأخيه اجلس بنا نفرح بالله ساعة، و شتان بين من يفرح بحسنة و بين من يفرح بفضل الله و رحمته و من يفرح بالله تعالى . و لما كان أكثر العلماء لا يفرقون بين العلم و الإيمان مع وضوح الفرق بينهما فى صريح القرآن، فقد وقعوا فى مخالفات للحقائق أدت إلى وقوع من جهلوا الفرق بين العلم و الإيمان فيما حرمته الشريعة من التنابز و التقاطع و سب بعضهم بعضا، بل إلى أن ابتدعوا فى الدين ما ليس منه خصوصا فى علم التوحيد الذى يسمونه علم الكلام و علم التوحيد، ليس بعلم الكلام، و لكنه فضل الله

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ – ١٩١

(٢) سورة يونس آية ٥٨

تعالى و نور منه بل و روح منه يتفضل بها على من سبقت لهم منه الحسنى، أماما يسمونه علم الكلام مما أكثروا فيه الجدل و المخاصمات فصار بعضهم يكفر بعضا فليس من التوحيد فى شيء، و أحرى به أن يسمى علم البدعة و الفتنة، و الله يهدينا صراطه المستقيم . فقوله : (فيوفيهم أجورهم) أى يعطيهم جزاء أعمالهم كاملة بفضله و عدله بقدر تصديقهم بالغيب، فلا يحرمهم أجرهم فيعطيه لأهل الكفر فيكون ظلمهم و الله تعالى تنزه عن الظلم، بل و لا يعطى أهل الكفر من هذا الأجر شيئا، لأنه لا يخلف وعده و إن أخلف وعيده بالمغفرة و العفو و قبول التوبة . أما أهل مقام الإحسان و الإيقان فقد أخبرنا الله تعالى فى آيات من القرآن محكمات .

(وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

يخبر الله أنه لا يحب الظالمين، و الظلم هو التصرف فى ملك الغير بدون إذنه، و معنى أنه سبحانه لا يحبهم أنه جل جلاله يحب أن نتخلق بأخلاقه القدسية . و الظلم ليس من أخلاقه، بل هو ضد أخلاقه، و لما كان ظلم الظالمين لا يتجاوز أنفسهم فإن العبد لا يقدر أن يظلم ربه، و كل ما جاء فى القرآن دالا على الظلم و عدم رضاه به فهو ظلم العبد لنفسه إذ كيف يتصور أن المخلوق المقهور المربوب يظلم الرب الخالق القاهر. و عبد يجهل نفسه فيجهل ربه فيظلم نفسه بمخالفة ربه فى أمر أو نهى أو ينافسه جل جلاله فى اسم أو صفة من صفاته سبحانه قد تجاوز نهاية الظلم لنفسه، و قد بينت لك المحبة فى الله و لله تعالى بيانا تطمئن به القلوب فراجعه .

و إنى أزيدك فى هذه الآية أن الإرادة و المحبة مترادفتان، و لكن الإرادة قد تكون إرادة كائنة أو إرادة محبوبة، فالإرادة الكائنة قدر الله الذى قدره أزلا و هذا لا يتغير بوجه من الوجوه أبدا، و الإرادة المحبوبة هى أمر الله و نهيه، قال تعالى فى هذا المعنى : (يريد الله أن يخفف عنكم و خلق الإنسان ضعيفا)[1] يعنى يحب الله فهى بمعنى المحبة لا بمعنى الإرادة التى تخصص الكائن، و لو كانت بمعنى الإرادة الكائنة لسهل علينا حكم الله تعالى و ليسر القيام به لكل مسلم، و لكنا نرى غير ذلك فثبت أن ((يريد)) بمعنى يحب و الله لا يحب الظالمين،

---

(١) سورة النساء آية ٢٨

أى لا يريد لهم التوفيق و الهداية لما أمر به و نهى عنه و قد علمت معنى الظلم .

قوله تعالى : (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) (٥٨)

(ذَلِكَ)

الإشارة فى (ذلك) عائدة إلى خبر الله تعالى عن زكريا و يحيى و مريم و حنة أمها . و فى قوله تعالى : (نَتْلُوهُ عَلَيْكَ) شرف خص الله به محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ ، و إن قال فيه المفسرون إن الذى تلاه جبريل و لكن الله نسبه لنفسه وقوفا عند ما عقلوه، و إلا فطرق الوحى تتجاوز الإثنى عشر طريقا، بين منها الإمام البخارى فى أول صحيحه أنواعا، و قد قال الله تعالى : (و إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) [(١)] فكما أنه لا يبعد أن يكون الذى تلا على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تلك الأخبار المشار إليها باسم الإشارة هو الله سبحانه–، فجائز أن يكون تلقاها عن الله مباشرة لأنها أكمل معجزة تقوم بها الحجة على النصارى واليهود، لأن تلك الأخبار كان لا يعلمها إلا أحبار اليهود و رهبان النصارى، فكيف يخبر بها عربى نشأ فى جاهلية عمياء صماء لم تسبق لها دراسة الكتب بل ولا تلقى علم ولا سياسة ؟

و إن قلنا ما قاله المفسرون يكون هذا الشرف خاصا بجبريل حيث أمره الله أن يتلوه عليه ، و الذى تلاه جبريل . و إنى و إن كنت لا أقف موقف الظاهر بين إلا أنى أحب أن يكون ذلك الشرف الظاهر لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يؤيدنى فى ذلك لفظ القرآن (نتلوه) أى نقرأه، و إن كنت على يقين أن قرأ وتلى و رتل لكل لفظ منها معنى خاص يتذوقه أهل المعرفة بالله، فهذا ليس مقام بيانها، لأن الله يريد أن يقصم ظهور وفد نصارى نجران الذين حادوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كما بينت لك ..

يجادلون فى عيسى عليه السلام (عليك) خطاب لرسول الله . (من) و من هنا و إن كانت للبعيضة إلا أنها تفيد الاستغراق، أى أن الله جمع له ﴿ﷺ وآله﴾ كل ما كان لعيسى و ما جاء به فى عصره من (الآيَاتِ) أى العلامات و الدلائل على صدق رسول الله و كذب

---

(١) سورة النمل آية ٦

نصارى نجران .

(وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)

(ال) هنا للعهد (و الذكر) القرآن الحكيم وزن فعيل و يكون (حكيم) بمعنى فاعل أو مفعول . فإن كانت بمعنى فاعل يكون الذكر الحاكم، و بمعنى مفعول الذكر المحكم الذى أحكمه الله تعالى . فإن فعيل تأتى اسم مفعول من أحكم، كما تأتى أسماء الفاعل بمعنى المصادر، و تأتى المصادر بمعنى أسماء الفاعل .

قوله تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (٥٩)

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى)

افتتح الله تلك الآية بحروف التوكيد لدلالتها على بيان الحق فى أمر عيسى عليه السلام ، لأن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يجادلونه فى أمر عيسى، فأنزل الله تعالى قصما لظهورهم و بيانا لبهتانهم و كشفا للحقيقة التى هى فى نفس الأمر قوله : (إن مثل عيسى)

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ)

أى مثل حال عيسى فى شأنه الذى حير العقل، فحير أقاربه و أخواله حتى حكموا عليه أنه ابن زنى ، و حير غيرهم ممن سلب منهم نور اليقين و العلم فحكموا عليه بأنه ابن الله أو أنه الله . هذه الحالة العجيبة و الشأن العجيب لا يحتاج سامعه إلى دليل أو برهان، إذا رأى السموات و ما فيها و الأرض و ما فيها من فيها ، و رأى هذا الملك الذى لا تدركه الأبصار إدراكا للحقائق التى هى فيه قدرا وتأثيراً و انفعالا، لا يحكم على إنسان تربى فى جوف الرحم بين القاذورات التى لا يجهلها أحد،

ثم نشأ مبتذلا وضيعا بين قومه، ثم شب و ترعرع و أظهر من الآيات و المعجزات ما قامت به الحجة أنه مطاع عند الله تعالى ، و أنه مبعوث إلى بنى إسرائيل ليحل لهم ما شدد الله فيه

فحرمه عليهم عقوبة لهم فلم ينسخ حكما من أحكام التوارة و لكن خفف عنهم ما عاقبهم الله به . و عيسى عليه السلام رسول مبين لكتاب موسى عليه السلام ، خفف الله به عن بنى إسرائيل ما كان شدد به عليهم فى تحريم بعض الطيبات، و تكليفهم بأشياء يصعب القيام بها كما قال سبحانه : (و لا حل لكم بعض الذى حرم عليكم) (١). و ليس إحلال ما حرمه الله تعالى نسخا لأحكام التوارة، و قد بينت ذلك المقام فيما سبق فراجعه إن شئت الاطلاع عليه .

﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

كحال آدم فى إيجاده، فإن آدم أعجب عند العقل السليم من وجود عيسى عليهما السلام ، وكيف لا ورجل أمه طينة وأبوه طينة، وكلنا نقول عبد خلقه الله !! وإنسان آخر أمه شابة توفرت فيها دواعى الإنسانية بأكمل مظاهرها، وصارت صالحة لأن تلد ولو من غير ذكر، كما نرى أكثر النباتات تنبت من غير بذر، وللعقل مندوحة أن يقول توفرت فيها قوة إيجاد الغلام مما مازج ماءها ومن ريعان الشباب وقوة العناصر .

فحملت به . فإذا جاء خبر الله عنه قامت الحجة أنه آية من الآيات الكبرى من غير أن ندعى أنه ابن زنى ولا ابن الله، والأحرى بأهل العقول السقيمة والأوهام المفسودة والخيالات المريضة أن يتعلموا العلم من أهله وأن يسلموا لهم تسليما، ولكن غلاما ولد من فتاة بارة كان زكريا يكفلها فى محراب بيت المقدس ويغلق عليها سبعة أبواب، وكان إذ وجد عندها فاكهة تعجب لاعتقاده أنها لا ترى إنسانا فيقول : من أين لك ذلك ؟ ثقة بأنها لم تر، وبعد ذلك ترمى بأنها زنت!! إن ذلك لعجب ..

كل الخلق يعلمون أنهم أبناء آدم و أن آدم من طين، فإذا رأوا امرأة تلد غلاما كيف يدعون أنه ابن الله ؟ و لم نسمع أن أحدا قال على آدم أنه ابن الله، وإذا كان الله قد ولد فآدم أولى أن يكون هو ابن الله من عيسى عليه السلام ، تلك الآية الشريفة نور بدد ظلمات الأوهام وسحب الخيالات وضلالات العقول السقيمة ولكن (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٠

فلن تجد له وليا مرشدا) [1] (خلقه من تراب) لم يكن آدم قبل خلقه من التراب آدم حتى يقول خلقه، والضمير عائد إلى آدم لأنه فى قدر الله وإرادته ومشيئته، فعاد الضمير فى الحقيقة لآدم المقدر وجوده وخلقه عند تنفيذ القدرة لهذا الإيجاد والخلق بالأمر الذى فى كلمة كن، والفاعل هو الله تعالى .

ولكن الآية سيقت للدلالة على بدء آدم فتصورها بأن الله لاك التراب بماء التسنيم بيديه المقدستين وجعله كتلة طين، ثم صوره جل جلاله على صوة الرحمن سميعا بصيرا متكلما مريدا عالما، فسمى فى هذه الهيئة آدم فلما آن أوان تنفيذ الإرادة قال له : (كن) وكن هذه كلمة ليست بصوت ولا بحرف ولكنها مواجهته جل جلاله بمعانى صفاته العلية، فانجلت تلك المعانى فى الطينة فكان إنسانا سويا سجدت له الملائكة .

تلك المواجهة سبقت كينونة آدم بدليل الفاء فإن الفاء تقتضى الترتيب و الله جل جلاله الحكيم القادر لا يحدث حدثا إلا فى الآن الذى قدره له زلا، فهو الذى خصص الكائنات بأنواعها و جعل لكل آن ظرفا مخصوصا لا يتعداه و من ظن أن (كن) تقتضى أمدا و زمانا و شفتين و لسانا و حلقوما و بلعوما فقد ظن خطأ ، و إنما هو تجليه و مواجهته، و الله جل جلاله إذا واجه عبدا و هو فى أسفل سافلين البعد مرتبكا أكبر الكبائر رفعه حتى جعله فوق الملائكة المقربين.

لا أبعد بك أخى فإن عمر رضى الله عنه توجه إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و السيف بيمينه مسلط عازما بيقين على قتله، فلما و قعت العين على العين سقط عمر بين يدى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و قال : يا محمد أنا أشهد أن لا له إله إلا الله و أن محمدا رسول الله فأصبح فاروق الأمة .

تلك هى المواجهة و هذا تأثير القدرة العجيب، فكذلك هذه الكتلة من الطين واجهها ربك فقال لها (كن) فكانت كما أراد الله و قدر، و فى هذا من البرهان الساطع ما يرد النفوس الخبيثة عن غيها، و يكشف للعقول الحجاب عن سر الغيب المصون بل عن تفريد الله بالألوهة و اختصاصه بالربوبية و العبودية من عباده دون غيره .

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

قوله تعالى : (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ) (٦٠)

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ)

يعنى أن الله سبحانه يقول لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ما بينته لك بالنسبة لعيسى من أنه عبدى كآدم بل آدم أعجب و أغرب منه، لأن آدم كما بينت لك خلقته من تراب فليس له أم و لا أب أما عيسى فقد خلقته من امرأة وهذا ليس بعجيب بالنسبة لخلق آدم من تراب و فيما بينته لك الحق القاصم لظهور وفد نصارى نجران و غيرهم .

و ذلك الحق من ربك جل جلاله الذى خلق وهو أعلم بحقائقهم من كل مخلوق .

(فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ)

و الامتراء هو الشك و الريب و قد عصم الله نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ من هذا و لكن تلك الآى أتت دحضا لحجج نصارى نجران و هى من بليغ الكلام الذى يأتى لمناسبة السياق و الحجة، و لا يظن ظان أن رسولا كريما جعله الله خاتم الأنبياء و أتم به الدين و أكمل به النعمة يعتريه شك فى خبرالله تعالى : (فلا تكن من الممترين) توكيد لخبر الله تعالى، و أقامة للحجة على المفترين من النصارى بقولهم إنه ابن الله و على المفترين من اليهود بقولهم إنه ابن زنى !

قوله تعالى : (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(٦١)

(فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ)

المحاجة معلومة و هى المعارضة و غمط الحق و كفران النعمة، و الضمير عائد على المسيح عليه السلام .

(مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ)

أى بعد بيان الله لك فيه بيانا كشف الحقيقة على ما هى عليه فى نفس الأمر، و من هنا نعلم

أن العلم لا يحتاج إليه فى كشف الغيب المصون لأن العلم طريقه الحواس و السماع، و الغيث المصون لا ينكشف إلا بخبر الصادق و قبول هذا الخبر و التسليم له و طمأنينة القلب به، و لأن الشهود فوق العلم و لو كان عيسى عليه السلام موجودا لم يحتج إلى بيان بالعلم، و ذلك لأنه يشهد بالحواس التى تدرك أنه إنسان مثل كل الناس لا يختلف عنهم فى شيء مما يحتاجه البشر و ما يكون عليه فى الواقع و نفس الأمر من جميع الأعراض البشرية، غاية ما فى الأمر أنه عبد أنعم الله عليه بالرسالة و ما يلزمها من المعجزات التى تؤيده و تثبت رسالته مثل بقية الرسل عليهم الصلاة و السلام ،

و لذلك فالله سبحانه هو غيب الغيب فلا يمكن أن يدرك بطريق الكشف أبدا و ما بقى إلا معرفته بطريق العلم، و قد أثنى الله على العلماء به فى أكثر من آية و أثنى سبحانه على الذين يؤمنون بالغيب قال تعالى:(و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا و جعل لكم السمع والأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون) (١)،

فأثبت سبحانه أن طرق العلم كلها لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بالسمع الذى يتلقى ممن هو أعلم منك، و البصر الذى هو معبرعنه بالبصيرة لا عينى رأسك، و الفؤاد و هو البرزخ الذى هو بين السمع و القلب و هو الجزء الرفيع من القلب، دليل ذلك قوله تعالى : (و أصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) (٢)،

فبين سبحانه أن الفؤاد شيء و القلب شيء آخر و بهذا ظهر سر قوله تعالى : (من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين) .

(نَدْعُ أَبْنَاءنَا)

جائز أن يكون تغليبا للذكورعلى الأناث أى ندع أبناءنا و بناتنا، و جائز أن يكون الأبناء عندهم أعز من البنات فترك ذكر البنات و ذكر الأبناء و النساء .

---

(١) سورة النحل آية ٧٨

(٢) سورة القصص آية ١٠

(ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)
و التبهل هو اللعن و الهلاك و بهله لعنه و هو سؤال الله تعالى أن ينتقم من الكاذب باللعنة و الهلاك و الدمار أى نبتهل إلى الله تعالى سائلينه الانتقام من الكاذب بما شاء .
فلما أخبرهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و طلب منهم المباهلة قالوا حتى نرجع و ننظر، فلما خلا بعضهم ببعض قالوا للعاقب، و كان مرجعهم، يا عبد المسيح ما ترى ؟ فقال : و الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، و الله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم و لا نبت صغيرهم، و لئن فعلتم لتلهكن، فإن أبيتم إلا إلف دينكم و الإقامة على ما أنتم عليه فدعوا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و قد خرج محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن و فاطمة تمشى خلفه و على خلفها و هو يقول : إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران أى أعلمهم بأمور دينهم و هو أبو حارثة : يا معشر النصارى إنى لأجد وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ،
و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة . فقالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك و نترك لك دينك و نثبت على ديننا قال﴿ ﷺ وآله﴾ :[فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين] فأبوا، فقال : [إنى أحاربكم فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاقة، و لكن نصالحك على أن لا تغزونا و لا تخيفنا و لاتردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حلة حديد، و صالحهم على ذلك و كتب لهم كتابا بذلك، و قال : و الذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قردة و خنازير و لا ضطرم عليهم الوادى نارا و لا ستأصل الله نجران و أهله حتى الطيرعلى رؤوس الشجر،و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا]
و كان القتل إنما شرع لمحو الكفر و الظلم و التظالم و القوم إنما ظلموا أنفسهم، و جائزأن يكون الله تعالى لم يأذن لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالجهاد.و جائز أن تكون الدعوة تقتضى أخذ الجزية ممن أبى أن يسلم أو قتاله بدليل قوله : ﴿ ﷺ وآله﴾ [أسلموا] فأبوا عندما أبوا المباهلة فقالوا : لا طاقة لنا على قتال العرب، و لكن ندفع لك كذا و كذا جزية و بعد أن أقام الحجة مفصلة تفصيلا يسجد له العقل أنكر وفد نصارى نجران كل ذلك و أبوا إلا أن يكون المسيح إلها و ابنا للإله .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢)

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

و ذلك ما قصه الله على محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ من خبر عيسى عليه السلام من أول نشأته الأولى كآدم فى نشأته و سر تكوينه، و أنه كلمة الله وروح منه و أنه عبد الله و رسول الله أرسله إلى بنى إسرائيل خاصة، و أنه فى نشأته الأولى كما قررت لك أن آدم أعجب و أغرب منه بما بينته، و فى افتتاح الآية بحرف التوكيد و ذكر لام الابتداء فى وسط الآية دليل على أن الله تعالى يريد أن يقيم الحجة مؤكدة قاصمة بظهورهذا الوفد الذى بإقامة الحجة عليه بينة تقصم ظهور كل النصارى .

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ﴾

أتى بمن بعد النفى إفادة للاستغراق الكلى فى مقام النفى، فاستغرقت نفى الألوهة عن كل موجود من كل العوالم من أعلى عليين إلى مقام أسفل سافلين، و أتى بقصر الصفة على الموصوف أى قصر الأولوهة قصرا حقيقيا على الله تعالى لشهود أهل القرب و الحب، و بالحجة الدامغة على أهل الكفر و الحجب .

﴿وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أتى بحرف التوكيد فى هذة الآية أيضا لعلمه سبحانه و تعالى بخبث نفوس المنكرين، و أكد الخبر بلام التوكيد ليقوى فى قلوب أهل الإيمان، فيزيدهم الله إيمانا على إيمانهم، و ليقصم ظهور أهل الكفر بالله .

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قصر أيضا لمناسبة التوكيد بإن و اللام أو كالقصر، و(العزيز) هو الشديد الانتقام القوى الذى ينفذ مراده بالقهر الشديد، (الحكيم) الذى لا يصدر أفعاله و أقواله و أحواله إلا

بحكمة سبقتها إرادة و مشيئة، و من كانت له العزة و الحكمة وجب أن يكون هو الإله المعبود غيره، و المعنى هنا : و ما من معبود يعبد بحق إلا الله الموصوف بالقوة فى قهره و انتقامه و معاقبته بالقوة من خالفه .

قوله تعالى : (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ) (٦٣)

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ)

معنى هذه الآية أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن تولى هؤلاء القوم من نصارى نجران بعد ما أتاهم من الحجة، و بعد امتناعهم عن المباهلة التى دعاهم إليها و بعد ما بدا لهم من الغيب المصون على لسانه، من الحقائق التى لا يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، و لا يعلمها إلا أحبارهم الراسخون فى علمهم، فلا تحزن و لا تذهب نفسك عليهم حسرات و لا تدعوك الرحمة بالخلق إلى أن يعتورك هم أو غم، فإنى بعثتك لتكون حجة على أعدائى و حجة لأحبابى، و ما جملتك به من أسمائى التى هى الرءوف الرحيم فذلك لمن أحب لا لمن سبقت لهم السوءى أزلا (فإن الله عليم بالمفسدين) تقدم ما فى التوكيد من الإشارة إلى مراد الله تعالى تقوية لإيمان المؤمنين و قهر الكافرين .

(عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ)

تتضمن ما بينته لك من المعانى التى شرحتها فى الآية السابقة فكأنه يقول لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنى أحطت علما بما خصصته إرادتى من الأقدار فعلمت المفسدين فأبعدهم عن اتباعك كما أنى علمت المحسنين فوفقتهم و هديتهم إلى القبول منك، و العمل بما جئتهم به و فى ذلك أعظم تسلية لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحزن حتى تكاد نفسه تذهب حسرات حزنا على مخالفة قومه له ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى :(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٦٤)

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا : إنك تدعونا يا محمد إلى أن نعبدك من دون الله و نجعلك كعزير، أو قال النصارى إنك تريد أن نجعلك محل روح الله وكلمته، فأنزل الله تلك الآية قصما لظهورهم، و هذه الآية جائز أن تكون خاصة بالنصارى و هو الأقرب للفهم، و جائز أن تكون عامة لليهود و النصارى يأمر الله نبيه عليه الصلاة و السلام بأن يقول للنصارى و اليهود .

﴿تَعَالَوْاْ﴾

و فى كلمة تعالوا إشارة إلى أن الداعى مرتفع و أنهم إذا وصلوا إليه علوا .

﴿إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

أى إلى كلمة هى العدل و الحق الذى لا يتجاوز الوسط و هو المستوى القائم بين الرذيلة و الفضيلة لأن الطرف الأول غير هذه الكلمة رذيلة كبرى و هو طرف النصارى الذين قالوا المسيح هو الله أو ابن الله . بل قالوا إن أقنوم الحياة حل فى مريم . و أقنوم العلم حل فى ناسوت عيسى حتى قالوا الأب و الابن و الروح القدس، و جعلوا هذه الحقائق الذاتية المنفصلة كل الانفصال واحدة . و لو كلفت طفلا يتلقى المبادىء فى المكتب فقلت : الأب و الابن و الروح القدس (كم ؟)

لقال هذه الحقائق ثلاث، و لا تجمع لأنها مختلفة تمام الاختلاف، فالأب ذات منفصلة، و الابن ذات أخرى، و روح القدس ذات أخرى و إنما يجمع ما اتحد نوعه، فإذا اختلف النوع استحال الجمع لأن الجامع يقول ثلاث و لا يمكنه أن ينطق بتمييزها . فعقول لا تقبل ما تقبله عقول الأطفال فى المكاتب بئست العقول، و الله يأمر رسوله عليه الصلاة و السلام أن يدعوهم إلى كلمة وسط عدل تقبلها العقول هاشة باشة . ومن قبل غيرها فقد سلب عقله، و البهيم الأعجم أرقى منه وجودا .

﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ﴾

أما (ألا) فجائز أن تكون فى محل الجر بدلا من (كلمة) . و قد تقدم معنى العبادة . و بينت لك أنهم يقولون طريق معبد أى مذلل، فعبادة الله تعالى كمال الذل لذاته و الانقياد لأوامره و البعد عن نواهيه، ف (ألا نعبد إلا الله) أى لا نذل و لا نخشع إلا لله تعالى، و هذه الجملة استثنائية أفادت قصر العبادة على الله فهو المختص بالعبادة دون غيره و هى من القصر الحقيقى .

﴿ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾

رد سبحانه بهذه الآية على النصارى الذين اتخذوا المسيح إلها من دون الله و أشركوه به بجعلهم إياه ابن الله، أو أنه حقيقة دائرة بين ثلاثة : و هم الأب و الابن و الروح القدس . و إنما كان كفرهم لقولهم : ثالث ثلاثة ، و لو قالوا : ثالث اثنين لما كفروا، لأنه تعين تتريها أما قولهم ثالث ثلاثة فنكرة دائرة بين الثلاثة . و قد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ لأبى بكر فى الغار:[ما تقول يا أبا بكر فى اثنين الله ثالثهما ؟] و هو صريح الإيمان، فإن الحقائق تميزت . و جائز أن تكون الآية حجة على اليهود لأنهم جعلوا عزيرا ابن الله .

﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾

بيان لطهارة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن أن يدعو الناس أن يتخذوه إلها من دون الله كما رماه اليهود و النصارى فيما تقدم لك . و المعنى : أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعثه الله كما بعث إبراهيم و من بعده من الرسل عليهم الصلاة و السلام ، و أن ما يرمونه به من أنه يدعوهم إلى عبادته أو ألى تقديسه فمحض افتراء، بدليل قوله تعالى : (و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا)، فإن ما أورده الله فى هذه الآية من قوله : (ألا نعبد إلا الله) أى وأن لا نشرك به شيئا و أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فنفى الله تعالى بتلك الآية عن نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يدعى الأولوهية أو القداسة أو يكلف الناس أن يتخذوه ابنا الله كما اتخذ النصارى عيسى و اتخذ اليهود عزيرا .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

معنى هذه الآية أن نصارى وفد نجران و اليهود فى ضواحى المدينة إذا أبوا قبول الإسلام و الإيمان بالله و برسوله . بعد أن قامت الحجة و وضحت المحجة بيانا طابق ما لديهم من الكتب التى لم تبدل، فإن اليهود بعث الله إليهم بعد موسى أنبياء كداود و سليمان و يحيى و زكريا و عيسى فتولوا عن الإيمان بما جاءوا به، و هذا التولى طبعت عليه نفوسهم الخبيثة من لدن موسى و هارون عليهما السلام .

و قد بينت لك فيما سبق من الآيات أن الله تعالى لعنهم و أخزاهم و أمرهم بقتل أنفسهم بعد عبادة العجل، و كم قتلوا أنبياء، و فى قوله تعالى : (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) برهان قوى على أن أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بلغوا من كمال اليقين مبلغا يستحيل على كل مناوىء للإسلام أو معاد له أن يؤثر عليهم أدنى تأثير . ذلك لأنهم منحهم الله نفسا طاهرة قابلة للخير و الخير لا ينال إلا إذا كان هناك نوعان من العطايا : النوع الأول النفس القابلة .

و النوع الثانى الفيض المقدس و هو القرآن ، و النور الذى هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و متى منح الله القابل و الفيض سعد أهل القبول و متى لم يهب الله النفس القابلة للخير للعبد و جاء الفيض المقدس خسر العبد خسرانا عظيما . وكأن قول الله تعالى لمحمد﴿ ﷺ وآله﴾ :(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) لأننا بعد تلك الحجج و البراهين الواضحة تحققنا حرمان نصارى نجران و يهود ضواحى المدينة من قبول هذا النور .

و الآية تضمنت الحكم عليهم بالكفر مسجلا من الله تعالى مقيضا عليهم به منه جلت ذاته . و الإعراض منهم لحرمانهم القابل الذى يقبل عن الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ ﴾

سبب نزول هذه الآية : أن الله أخبرنا بأن الإسلام ملة إبراهيم، و هذه الآية كانت شجا فى عين اليهود ، فأشاعوا بين المسلمين فتنة هى أن إبراهيم كان يهوديا فأذلهم الله تعالى بالحجة

فى سياق أسلوب الحكيم لتكون فى نهاية النكاية، كما تقول لعدوك أبشر بشدة العقوبة، فلفظة أبشرك بالعقوبة فيها من التهكم و السخرية ما فيها ! فإن الله تعالى ناداهم ب (يا) المفيدة للقرب و جعلهم أهل كتاب، و فى ذلك من دواعى قبولهم لما بعد هذا النداء ما فيه . الاستفهام هنا للإنكار عليهم .

ينكر الله تعالى عليهم محاجتهم فى أمر لا يختلف فيه اثنان . و هو أنهم يدعون أن إبراهيم يهودى و لم تكن اليهودية قبل موسى عليه السلام ، لأنهم قالوا: (هدنا إليك) [1] أى رجعنا إليك و أنهم يعلمون حق العلم أن موسى عليهم السلام إن كان جاء بما جاء به إبراهيم عليه السلام فيكون ليس برسول بل هو نبى و مقرر لشرع إبراهيم عليه السلام . و ليس كذلك حكمهم على موسى لأنهم يحكمون عليه بأنه رسول من أولى العزم بعثه الله بشريعة تخالف شرائع الرسل من قبله .

و إن كان موسى كما يقولون نبى و رسول من أولى العزم فشريعته غير شريعة إبراهيم، و هم يعلمون أن دين إبراهيم حنيف أى خالص مستقيم . فإن قال لنا قائل منهم إن موسى كان من أولى العزم و له شريعة تخالف شريعة إبراهيم عليهما السلام ، و أنتم تدعون أن دينكم الإسلام هو دين إبراهيم فما توردونه علينا نرد به عليكم . و الجواب أننا لم نحكم بذلك و لكن الله هو الذى حكم قال تعالى : (ما كان إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا و لكن كان حنيفا مسلما) .

انظر إلى حجة الله القائمة التى قصم الله بها ظهور المفترين . و كيف لا و الحقيقة أن الخليل عليه السلام قبل موسى بزمان طويل و قد أنزل الله تعالى عليه كلمات بدليل قوله تعالى : (و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمت) [2] و صحفا . قال تعالى : (صحف إبراهيم و موسى) [3] . شرع له فيها مناهجه التى كلف بها أمة الخليل عليه السلام حيث مقتضى الزمن . ثم أنزل التوارة على موسى بعد الخليل بقرون طويلة اقتضى ما فيها من العبادات و الأخلاق و المعاملات زمن موسى .

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦

(٢) سورة البقرة آية ١٢٤

(٣) سورة الأعلى آية ١٩

فكانت التوارة ناسخة لشريعة إبراهيم و لم يرد فيها أن إبراهيم كان يهوديا . بل ولا الأنبياء من قبل موسى عليهم السلام . و بذلك ثبت أنهم افتروا على الله و على خليله و كذبوا على حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

أثبت سبحانه و تعالى أن القوم لا يعقلون، لأنهم لو عقلوا عن الله ما أنزله على الخليل و على موسى عليهما السلام لما افتراه هذا الافتراء، و لما كفروا بالتوارة التى بينت لهم صفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بل و مولده وهجرته فى أسفار كثيرة، و لولا أن القرآن بينه فى آيات كثيرة لأوردت عليك من آيات التوارة ما يدل على بهتانهم .

و أنهم عباد أوهام، و قد بينت لك فى سورة البقرة و فى أوائل آل عمران ما يطمئن قلبك، لأنهم قوم أضلهم الله على علم. هنا يجب علينا أن نعمل بكلام الله فلا نسمع من اليهود و لا النصارى بعد قول الله تعالى : (فاشهدوا بأنا مسلمون)، و لم يبق بيننا و بينهم إلا السيف فى حال ظهورنا، أو التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، و كل مسلم علم معنى تلك الآية و ركن إلى كلام اليهود أو النصارى و وقف لمجادلتهم يكون معرضا نفسه للفتنة و العياذ بالله ، فإن الحجة قامت من الله و بينها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

و القوم صم الآذان غلف القلوب عمى الأبصار، و إذا كانوا كذلك مع تلك الشمس المشرقة التى كشفت الحقائق بنورها كيف نطمع منهم أن يقبلوا منا إلا بالسيف، اللهم إنا نسألك أن تعيد لنا مجد سلفنا الصالح، و أن تمكن لنا فى الأرض بالحق، و أن تلهم إخواننا المسلمين العمل بكتابك و سنة رسولك ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى نعادى أعداءه . و نحب أحبابه ...

قوله تعالى : ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦)

(هَاأَنتُمْ هَؤُلاء)

الهاء هنا إما تكون للتنبيه أو تكون مبدلة من الهمزة كما تقول هريق الماء و أريق الماء و لك فيها المد و القصر و الهمزة بعدها و لك فيها التخفيف ... الأصل فى قوله (هؤلاء) أولاء و أتى بالهاء للتنبيه .

(حَاجَجْتُمْ)

لك أن تجعلها جملة مستأنفة و أن تجعل أنتم مبتدأ و هؤلاء خبرها، و لك أن تجعل هؤلاء بدلا أو عطف بيان على : أنتم، و (حججتم) خبر .

(فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ)

و هو الاعتراف بأن القرآن غير التوارة، لأنهم درسوا التوارة و سمعوا من القرآن فحكموا بالغيريه، و لهم فى ذلك مندوحة و إن كانوا لا علم لهم، و لكن الله تعالى نسب العلم إليهم فى هذا المقام لظهورعلمهم عندهم .

(فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ)

الاستفهام هنا للإنكار أيضا، و المحاجة أو المحاججة دفع الحقائق المعلومة بالإنكار و الغلبة أو بالحجة و البرهان (فيما ليس لكم به علم) أى فى الحكم على إبراهيم أنه يهودى و ليس لهم علم بذلك و لا نزلت التوارة فى أيامه بل و ليس فى التوارة أثارة من علم تدل على ذلك .

(وَاللّهُ يَعْلَمُ)

و الله يعلم أن إبراهيم قبل موسى و أنه كان مسلما، و أن شريعة موسى نسخت شريعة إبراهيم و شريعة محمد نسخت الكل .

ثم يعلم سبحانه أنهم يفترون على الله الكذب و أن الله تعالى قدر فى أزله سبحانه أن يكونوا من أهل العناد لأنهم ما تركوا نبيا من الأنبياء الذين جاءوا إليهم حتى عاندوه و حاربوه، و كم قتلوا أنبياء بل و لا تركوا موسى عليه السلام و الله يعلم ما قدره أزلا فقد قدر أزلاً

عنادهم و شقاقهم و محاربتهم لله و رسوله .

﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾
هذا الخطاب من الله تعالى يبين لهم جهلهم المطلق بكل الحقائق إلا ما أنزله الله على رسله فبينوه لهم فغيروه و حرفوه اتباعا للهوى، فالهوى أخو العمى أعاذنا الله من اتباعه .

قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧)

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً﴾
نفى الله تعالى اليهودية عن إبراهيم و النصرانية عنه كذلك بعد أن أقام الحجة المحسوسة الملموسة على افتراء اليهود على الله الكذب بقوله : (و ما أنزلت التوارة و الإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)، و بقوله : (و الله يعلم و أنتم لا تعملون)

﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾
سبق الكلام على قوله تعالى (حنيفا) فى سورة البقرة و لكنى أزيدك هنا بيانا، الحنيف : هو المقبل على الله بكليته بجاذبة الحسنى له بإقامته رسولا خليلا لله تعالى، المائل بكليته عما يخالف ذلك . و هذا معنى الحنيف فى سياق الآية يعنى مسلما لله تسليم الخلة . و لك أن تقول مسلما دينا لأنه عليه السلام هو الذى سمانا مسلمين، و لأنه كان على أكثر شراع الإسلام إلا ما أتم الله به لنا ديننا، مما زاد عما كان عليه الخليل عليه السلام ، من تفصيل الأخلاق و المعاملات و الآداب، و بيان أسرار الغيب المصون و بواطنها فى القرآن المجيد، مما لم تكن الأمم السابقة مؤهلة لتلقيه .

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
نفى سبحانه عن خليله عليه السلام الشرك ليثبت كذب اليهود و النصارى، أى، و لم يكن من النصارى الذين يقولون بألوهة عيسى عليه السلام و لا من اليهود الذين يقولون

بالتشبيه، لأن قول الإنسان بالتشبيه جاهلا بمقامات التتريه شرك بالله تعالى، كيف لا و التشبيه مشهد روحانى ليس للأجسام فيه قسط ، و التتريه للأشباح، فإن الله تعالى أشهد الأرواح جماله العلى تشبيها كما أشهد الملائكة جماله فى آدم، و لما كان الإنسان مكونا من روح طريق وصولها إلى الله تعالى بالتشبيه، و من جسم طريق وصوله إلى الله تعالى بالتتريه، كان من الفرض العينى على الإنسان أن يفتتح سلوكه إلى ربه جل جلاله بتحصيل علم التتريه، ثم يعمل بما علم حتى يمنحه الله روحا ملكوتية فيذوق أسرارالتشبيه مع المحافظة على الآداب بجسمه للعمل بعلم التترية حتى يكون عبدا كاملا و إنسانا كاملا جمع الله فيه جميع الحقائق و سخرله ما فى السموات و ما فى الأرض جميعا منه،

فإذا وقع فى الفتنه بصحبة أهل الجهالة من الدعاة إلى الطريق الذين يوقعون السالكين فى مهاوى التشبيه و هم على جهل بالأدب لله تعالى و لرسوله ﷺ وآله بدليل قوله تعالى:(قل أطيعوا الله و أطيعوا الرسول) (١)

و قوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢) مرق من الذين كما يمرق السهم من الرمية . و كم من شاطح لعب به الشيطان فسلب منه الأدب غرورا بحاله حتى ظن أنه يضر أنه و ينفع و يرفع و يشفع و يؤثر التأثير الكلى، و جهل أن الشيطان أخرج من الجنة من خلقة الله بيديه و نفخ فيه من روحه و أسجد له ملائكته و أسكنه جنته، و من مكنه الله من أول مخلوق بعد هذا الإكرام كيف يأمن المسلم كيده فى سلوكة إلى الله تعالى .

هذا مالا يقوله إلا جاهل بآداب الشريعة. و اليهود قبحهم الله تعالى يقولون بالتشبيه من غيرعلم، فالنصارى مشركون باتخاذ عيسى إلها و اليهود مشركون باتخاذ العزير ابنا لله .

قوله تعالى : (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) (٦٨)

---

(١) سورة النور آية ٥٤

(٢) سورة النساء آية ٨٠

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾
يكشف الله لليهود حقيقة يعقلها من هداهم الله للحق و هى :

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾
أى أعلمهم به و بما جاء به من عند الله تعالى هم الذين اتبعوه اتباعا حقا فى عصره، و سارعوا إلى القيام بما جاءهم به من عند الله تعالى بيقين حق بما أشهدهم الله من الحجج و البراهين القوية التى منها إلقاؤه فى نار نمروذ و جعلها بردا و سلاما عليه، و هم الذين يحق لهم أن يكونوا أولى الناس به علما و اتباعا، و أولاهم به يقينا حقا و شهودا صدقا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، كما قال تعالى:(و هذا النبى) و الإشارة إلى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ هو أن الله تعالى أعلمه بحقيقة الخليل عليه السلام و أشهده عيانا ما هو عليه من المكانة و الخصوصية بالخلة،
و كيف لا : و إبراهيم عليه السلام و من قبله من الرسل و من بعده واثقهم الله لحبيبه عليه الصلاة و السلام ليكونوا أتباعا له، فكل الأنبياء مستمدون من نوره و علمه صلوات الله و سلامه عليه ، و بذلك يكون أولى بهم من أممهم لأنهم شهدوا بنبوته وأقروا بزعامته وآمنوا به ونصروه﴿ﷺ وآله﴾ وهم فى عالم الغيب فكان رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ هو وليهم حقا و يقينا، و تأكدت هذه المعانى فى الحياة الكونية حيث أنه ﴿ﷺ وآله﴾ قام بإنصاف كل نبى مما نسبه إليه قومه وبرأ ساحتهم جميعا صلى الله عليهم أجمعين بما جاء فى القرآن الكريم و فى أحاديثه و بيانه ﴿ﷺ وآله﴾ فى شأن و أمر كل نبى سبقة، فهو بحق أولى الناس بإبراهيم و بجميع المرسلين .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾
و المراد بهم أمة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ لذكرهم بعده .

﴿وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾
يعنى أن الله تعالى منحهم الحسنى أزلا فى سر قدره، و تولاهم فأقامهم فى محابه و مراضيه بتوفيقه و عنايته و من يكن الله وليهم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين فى الدنيا بما

يشهدهم الله من جماله و تترلاته و آياته، و فى الآخرة بما يجليه لهم من بهائه و ضيائه و نوره وكماله . و فى الآية أكمل بشرى للمؤمنين لأن الله أخبرنا أنه و ليهم ولم يخصص الله تعالى ولايته لأشخاص أو يعين لها قوما بأعيانهم، و لكنه جعل ولايته عامة لكل مؤمن و ما على العبد إلاأن يسارع إلى الإيمان بالله و رسوله و يطيع الله و رسوله ثم يفرح بولاية الله له قال سبحانه : (قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [1] ...

قوله تعالى : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (٦٩)

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾
كرر الله هذا المعنى فى القرآن فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : (ود كثير من أهل الكتب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) [2]
و قوله.(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) [3] و غيرها، و هذا بيان من الله تعالى لأهل الإيمان ليحتاطوا لأنفسهم من الفتن التى هى كقطع الليل المظلم التى أخبرنا الله بسببها و هو تمنى أهل الكتاب من اليهود فى عصررسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ مع قوة المسلمين و شروق أنوار الحجة و المعجزة، أما فى زماننا هذا فقد قام بهذه الدعوة ظلمة أوربا و جعلوها آخر سهم يكيدون به للإسلام و المسلمين ،
و بعد أن كان اليهود يدعون تلك الدعوة فى خفاء و سر كما فعلوا مع عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان حين جلسوا يخدعوهم بأباطيلهم مما يزعمونه فى كتاب موسى عليه السلام ، فقهرهم الله تعالى بتلك الآية الشريفة التى هى معجزة فى عصرنا هذا، فإن ظلمة أوربا جعلوا تلك الدعوة علنا بأساليب جهنمية و بالغوا فيها حتى أنفقوا عليها من أمريكا و أوربا أكثر من مائة مليون جنيها ليخرجوا مسلما من دينه فباءوا بالخسران المبين و القوم لم يدعوا

---

(١) سورة يونس آية ٥٨
(٢) سورة البقرة آية ١٠٩
(٣) سورة النساء آية ٨٩

تلك الدعوة خدمة لدين المسيح و لكنها وسيلة من وسائل سلب مرافق الحياة، و إلقاء التفرقة بين المسلمين على ظنهم و الله جل جلاله حكم و الحكم له سبحانه بقوله تعالى :
(وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)
و هم اليهود أى تمنت لو يضلونكم . و لو هنا للتمنى أيضا أى لو يردونكم عن دينكم فبشرنا الله تعالى قهرا لليهود و إبطال ما يصنعون :

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ)
أى و ما يهلكون إلا أنفسهم بيانا للحقيقة فى نفس الأمر، لأن المسلم إذا باشر الإسلام قلبه هش له و بش و عقد عليه عقدة لا يحلها السيف، و لذلك حكم الله أنهم يهلكون أنفسهم بسبب نشر تلك الدعوة الباطلة ، و إهلاكهم أنفسهم متحقق فى الدنيا و الآخرة : أما فى الدنيا فإن الله تعالى يمكننا منهم فيكونون أرقاء تحت أيدينا ، و أما فى الآخرة فإن الله يضاعف لهم العذاب، و لو فرضنا المستحيل و قدرنا أن جاهلا من الجهلاء فارق الإسلام بدعوتهم فإن ذلك يكون إهلاكا لهم بسبب ما ينتقم الله به منهم فى الدنيا و الآخرة .

(وَمَا يَشْعُرُونَ)
أى و ما يعلمون حقا الباطل من الحق، لأنهم لو كانوا يعلمونه ما ودوا أن يضلوا أهل الإيمان بالله . و قد أذل الله تلك الفئة (اليهود) فإنا نراهم إلى الآن ممزقين أيدى سبأ فى البلدان يسامون الخسف و الذل و الهوان . و كذلك سينتقم الله تعالى من ظلمة أوربا و أمريكا الذين دعاهم الجهل و الغرور إلى أن ينشروا بين المسلمين دعاة النصرانية من غير أن يتدبروا فيما انتقم الله به من اليهود،
و إن الله تعالى ما توعد قوما بالعذاب فى الدنيا و الآخرة إلا عجل لهم، و ما نراهم فيه من زينه الحياة الدنيا و زخرفها فذلك استدراج من الله تعالى لينفذ أقداره التى قدرها عليهم . قال تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت و ظن أهلها أنهم قدرون عليها أتها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) [١] و قد أخذت زخرفها وازينت

(١)سورة يونس آية ٢٤

و تحقق ظن أهلها . و المراد هنا بالأرض : الأرض المعهوده و هى أرض أوربا التى أخذت زخرفها وازينت و نشرت زينتها على بقية بقاع الأرض، فلم يبق إلا أن ينفذ الله وعده بقوله : (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) و الواجب علينا فى هذا الزمن أن نتلو تلك الآيات الواردة فى القرآن التى يخبرنا الله فيها عن سوء تمنيات أعدائنا لديننا،

و خصوصا و قد أصبح المسلمون متفرقين بعضهم على بعض تمكينا لأعدائنا منا فلا تكاد ترى أمة من المسلمين إلا و أهل الغنى منها مخالفين للكتاب و السنة خارجين بعضهم على بعض مع ما هم فيه من استعباد الإفرنج لهم الأمر الذى يجعل الكلاب تتحد، فإنك إذا رأيت مجتمعا من الكلاب تتخاصم و رأوا ذئبا خرج عليهم تركوا الخصام جميعا و اتحدوا على مقاتلة الذئب، لكنا و السبع مرايض فى حدود ديارنا يخرج بعضنا على بعض فتضعف قوتنا و يتمكن منا عدونا، أيقظ الله قلوبنا و جمعنا على الحق حتى يعود لنا مجد سلفنا الصالح. و قد كتبت سفرا صغيرا فى الرد على دعاة النصرانية فراجعه إن شئت أن تعلم نياهم و تمنياهم للأمة الإسلامية .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) أى كلما فصلنا الآيات عن أخبارالأنبياء و الرسل و أممهم من إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى و أمه و حنة أمها و يحيى و زكريا (نفصل الآيات) فى اليهود و فى نواياهم بالنسبة لكم و فى النصارى فى زمن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و فى زماننا، و لكن الآيات التى يفصلها الله تعالى لا يفوز بنيل خيراها و يسعد بالعمل بها إلا الذين منحهم الله الفكر فى آيات الله من التوارة و الإنجيل و القرآن الشريف .

و أهل الفكر هم أهل العقل الذى يعقل عن الله جل جلاله ما أوحى به إلى أنبيائه، و هناك فكر هو العبرة بالآيات التى أخبرنا الله عنها الدالات على عجائب قدرته و غرائب حكمته فى ما أحدثه بمن أطاعه من الأمم و بمن عصاه منها . و قد ورد أن فكر ساعة خير من مئات السنين عبادة، و الفكر هو عمل القلب الذى جعل الله له نورا .

قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾
تقدم الكلام فى أهل الكتب . ﴿لِمَ﴾ استفهام إنكارى توبيخى ﴿تَكْفُرُونَ﴾ أى تجحدون ﴿بِآيَاتِ اللّهِ﴾ بما أنزله على موسى و عيسى عليهما السلام ، لأن المنادى هنا هم اليهود و النصارى الذين يصدق عليهم أنهم أهل الكتاب، و المراد بآيات الله تعالى ما أنزله الله فى التوارة و الإنجيل من بعثة محمد ﴿ﷺ وآله﴾
و أنه النبى الأمى المبعوث إلى الناس عامة الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوارة و الإنجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم . و بعد هذا البيان الذى بينه الله لليهود و النصارى كفروا بآيات الله أى بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، الذى أنزل الله فيه آياته دالة على بعثته رحمة للعالمين .

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾
أى تقرون بتلك الآيات فى التوارة و الإنجيل قبل بعثته فى زمان سلفكم، و تشهدون الحقائق مجلوة أمامكم بعد بعثته ﴿ﷺ وآله﴾ بينكم، و ذلك الجحود أكبر فرية.

قوله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٧١)

و النصارى و اليهود كانت نفوسهم الخبيثة تسعى بجد أن تخفى آيات التوارة و الإنجيل المنزلة على موسى و عيسى عليهما السلام إظهاراً لقدر محمد ﴿ﷺ وآله﴾ بأن تلبسه فتخلطه بباطلهم و تمزجه بكلام مموه و هذا هو اللبس، و كانوا يهمون أيضا بأن يخفوا تلك الحقائق و يكتموها عن الناس إنكار للحق و كفرا بنعمة الله و عنادا لرسول الله
﴿ﷺ وآله﴾ و حسدا من أنفسهم . و هذا هو كتم الحق و هاتان الخصلتان ثبت أن اليهود و النصارى حاربوا بهما رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقهرهم الله بالحجة قائلا : ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾

و الاستفهام للإنكار و التوبيخ كما قدمت ذلك لك .

(وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)

أى و أنتم على علم اليقين أن الله بين لبنى إسرائيل من اليهود و النصارى شأن هذا النبى الكريم، و كان الجميع بنتظرون بعثته بل كلان يهود قريظة و قينقاع و بنو النضير يتوعدون العرب به ﴿ ﷺ وآله﴾ فيقولون : قربت بعثة نبى كريم يقتلكم بالسيف و يحدكم حصدا و سننصره عليكم، فلما بعثه الله أنكروا آيات الله و جحدوا حججه كما قال تعالى : (تلبسون الحق بالباطل) بل و كتموا تلك الآيات و أخفوها، و لا قبيح أبشع و لا أشنع من عالم بالحقيقة يلبسها بالباطل أو يخفيها عن أهلها فيوقع عباد الله فى الكفر به سبحانه .

قوله تعالى : (وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٧٢)

سبب نزول هذه الآية أن بضع من رجال من اليهود دعاهم خبث نفوسهم إلى أن يكيدوا الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يؤمنوا ثم يرتدوا عنه، و يشيعوا بين المسلمين أننا اتبعناه فلما عرفنا ما عنده ورجعنا إلى أحبارنا و رهباننا ظهر لنا كذبه بالحجة فرجعنا عنه، ليوقعوا المسلمين فى الشك و الريب به .

و قال بعض المفسرين : إن جماعة اجتمعوا على الكيد لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و قالوا نؤمن به وجه النهار أى أول النهار و نكفر آخره يعنى بعد الظهر، و صادف أن ذلك اليوم حولت فيه القبلة فآمنوا صباحا فلما حولت فيه القبلة ظهرا ارتدوا قبحهم الله و أثاروا تلك الإشاعة بين المسلمين ليردوهم بدليل .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
أى رجاء أن نرجعهم عن دينهم ..

قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣)

﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾
هذا من مقول أهل الكيد و الخدع فإن مقولهم : (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره)
من تمام كيدهم فإنهم يزيدون الكيد بكيد شر منه ﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ﴾ أى ولا تصدقوا و لا تركنوا إلا لمن تبع دينكم من اليهود و العرب أما من خالف دينكم فلا تؤمنوا به و لا له .

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ﴾
هذه الجملة معترضة بين الكلامين و هى خبر من الله تعالى أتى بها سبحانه إدحاضا لحجتهم، و بيانا أنه سبحانه هو الذى هدى موسى و عيسى و الأنبياء، و هدى حبيبه محمدا ﷺ وآله﴾ و أنه لا يشاركه فى هداية من شاء أن يهديه أحد ثم انتقل فأتى بالخبرعن اليهود فقال :

﴿أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾
و معنى هذه الآية الشريفة التى هى من مقول هؤلاء القوم المغرورين بأسلافهم و أنسابهم بعد بيان الله كل البيان بقوله : (و لا تزر وازرة وزر أخرى) (١) أنهم يقولون لا تصدقوا و لا تركنوا إلا لمن تبع دينكم و لا تصدقوا أن يؤتى أحد من الخلق ولو كانوا أنبياء مثل ما أوتيتم من التوارة، فالآية بعد الجملة الاعتراضية و هى قوله : (قل إن الهدى هدى الله) متصلة على هذا المعنى بقوله تعالى (و لاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) و هو خبر

من الله تعالى عن اليهود .

(أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ)

أى كما انتفى أن يؤتى أحد مثل ما أوتى اليهود و بحسب خبرهم انتفى احتجاج أحد عليهم عند ربهم و هذا تأويل معنى من معانى الآية، و جائز أن تكون الآية خبرا عن الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ و أمته و يكون المعنى : قل يا محمد إن الهدى هدى الله يهدى من يشاء و يضل من يشاء و إن للتوكيد و الهدى اسمها و هدى الله بدل من الهدى الأولى و أن يؤتى جملة وقعت على تقدير حذف لا و هو كثير فى اللغة الفصحى .

و المعنى إن الهدى هدى الله و إذا كان الهدى خاصا بالله تعالى و قد منحكم أكمل قسط من الهدى و أتمه فلا يؤتى أحد مثل ما أؤتيتم فحذف كل ذلك بدلالة قوله تعالى : (إن الهدى هدى الله) و هو مقدر ملحوظ و جائز أن يكون المعنى بعد قوله تعالى (إن الهدى هدى الله) و خبره أن يؤتى مثل ما أؤتيم لأن الهدى بيد الله و يكون المحذوف ضمير فصل تقديره هو أن يؤتى أحد و يكون المعنى أنه هدى الله الذى لا هدى غيره هو الذى هديت به موسى و عيسى و إبراهيم و هديتكم أنتم به هداية أكملت لكم بها دينكم و رضيت لكم الإسلام دينا،

و تأويل هذه الآية بأنها خطاب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أقرب إلى الفهم من تأويلها أنها تتمة كلام اليهود و إن صح ذلك تقدير التقديم و التأخير و الحقيقة يعلمها الله و المجتهد المخطىء له أجر . قوله تعالى : (أو يحآجوكم) أى أجد المقيم عليكم حجة عند ربكم بعد أن منحكم الله الهداية الكاملة و هى عطف على قوله (أن يؤتى أحد مثل ما أؤتيتم) و فى قوله تعالى (عند ربكم) دليل من الله لرسوله﴿ ﷺ وآله﴾ أن الله خصه وأمته بالهدى و الحق حتى جعل الله له الحجة على كل من سبقه فلا تقوم لأحد عليه

﴿ ﷺ وآله﴾ حجة عند ربه جل جلاله ، و إن كانت من مقول اليهود، و قد بينت لك تأويلها و يكون تأويل قوله تعالى : (عند ربكم) من مقولهم و هو الحجة عليهم لأن الحكم على الله جهل به قال تعالى : (إن الحكم إلا لله) .

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ)

يثبت الله تعالى كمال تفريده بالإيجاد و الإمداد، و ليس لأحد سواه فضل فيدعيه بل و ليس فضله محصور على الخليل و موسى، بل و لا على أنواع خلقه من الملائكة العالين و الأنبياء المرسلين، بل الفضل بيده سبحانه يعطى محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ و أمته ما يشاء من الفضل الذى لم يفز به أحد من رسله مثله، لا كما زعم اليهود أن الفضل أعطاه الله لهم و لموسى فقط بدليل قولهم فى الآية السابقة : (و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أى لا تصدقوا أحدا و لو كان نبيا خالف التوارة، و من جاءكم من الأنبياء مخالفا للتوارة فلا تؤمنوا به و لا له .

(يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ)

يعنى سبحانه وتعالى أن أحدا من الخلق ليس له حق على الله تعالى ، بل كل أنواع المخلوقات عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، لا فرق بين أبيض وأسود ولا ملك وإنسان عند الله تعالى ومتى شاء جل جلاله أن يخص عبدا من عباده بفضل لا ينازعه فى ذلك أحد، وقد بينا ذلك فى قصة آدم وإبليس حيث خلق آدم من الطين ثم رفعه حتى أسجد له ملائكته، ورفعه فأسكنه الجنة،

ورفعة فسخر له العوالم كلها وهو طينة، ومن كانت هذه صفته سبحانه لا يسأل جل جلاله عما يفعل من الفضل إذ المتصرف فيما يملك شأنه بين أمرين : بين عدل حق، وبين فضل محض .

(وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

الوسعة الإلهية فوق تبينها الإشارة فكيف تكشفها العبارة إلا أنا نبين ذلك بقدر ما تصل إليه العبارة ، و على هذا فمعنى (واسع عليم) أى أنه سبحانه و تعالى منح العالم فضلا فوق أن يحصر، فما من موجود من جمادات أو نباتات أو حيوانات أو أناسى أو أجواء أو أرجاء أو السموات و عمارها إلا و هو فضل من الله تعالى،

و هذا كله الذى يحكم به العقل و يحده الحس لا يساوى ذرة رمل فى صحراء بالنسبة لما تفضل الله تعالى به على العالم أجمع ، و متى أراد الله أن يتفضل على عبد من أحبابه أكمل الله له العقل فجمله بمعانى صفاته كما أكمل لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فجمله باسمين من

أسمائه الحسنى فقال : (رءوف رحيم) [(١)] و هذا هو الفضل العلى الذى عجزت العقول و الأرواح عن أن تحوم حوالى فنائه، و ما عدا هذا من فضل الله على العبد بمحبة الله له أو برحمته أو بإقامته فى محاب الله و مراضيه، و كل هذا الفضل لا يعطيه الله للعبد باستحقاق أو لعلة و غرض أو لقرابة و نسب تتره و تعالى و إنما ذلك إحسان منه سبحانه ليظهرعجائب قدرته و غرائب حكمته فيعرف قوله تعالى : (وما خلقت الجن و الإنس إلاليعبدون) [(٢)] أى ليعرفونه ومن لم تجذبه سوابغ فضل الله إلى الله تعالى قامت الحجة على أنه من عوالم الشياطين ، فإن نعم الله تعالى إذا استعملها العبد فيما يغضب الله هلك مع الهالكين .

قوله تعالى : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (٧٤)

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ)

يعنى سبحانه أنه يختص بالنبوة و العلم و الهدى من يشاء من عباده، كما اختص موسى بالرسالة و الكلام و اختص حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بالنظر إلى وجه الله . المقام الذى طلبه موسى فرد بلن وصعق ودك به طوره، و فى هذه الآية بشائر لأهل الإيمان يحسن فيها الطمع فى فضل الله و رحمته .

(وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

لفظة فضل تفيد التفضيل من محسن إلى محسن إليه و الأمر كذلك، و لكننا نبين لك لفظة العظيم هنا بينت كمال البيان أن ذلك الفضل أكمل مقام يتفضل الله به على كل رسله، و لا مقام أجل و لا أعظم و لا أشرف مما تفضل الله به على حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد بينه سبحانه فى القرآن المجيد حيث أقامه سبحانه فى كثير من آيات القرآن مقام نفسه عز و جل . قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) و قال سبحانه : (قل إن كنتم تحبون

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨

(٢) سورة الذاريات ٥٦

الله فاتبعونى يحببكم الله) و قال ما هو أقرب من هذا : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)[(١)] و هذا هو الفضل العظيم الذى ذكره الله تعالى فى سياق إقامة الحجة على اليهود و الإشارة لمقام حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٧٥)

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ....)

بين الله تعالى أحوال اليهود من حيث ما هم عليه من العناد للأنبياء و تكذيبهم و الافتراء عليهم، و خصوصا مع رسول الله محمد ﴿ﷺ وآله﴾ حيث بلغ بهم المكر و الدهاء أن قالوا:(آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره) و حيث قرروا بينهم ألا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم ثم أخذ يبين حالتهم النفسية فى المعاملة و الأمانة و الوفاء و العفاف و لما كانت المعاملة هى البرهان القاطع على جوهر النفس فى الصفا و النور بينها الله بيانا واضحا و قال ﴿ﷺ وآله﴾ [الدين المعاملة].

(و من أهل الكتب) من هنا للتبعيض و هو القليل منهم . (مَنْ إِن تَأْمَنْهُ) أى الذى إن تأمنه على مالك و متاعك و سلعتك التى تشتريها . (بِقِنطَارٍ) و القنطار ألف و مئتا أوقية . (يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ) أى يرجعه إليك عند طلبك أو عند وعده معك، كما فعل عبد الله بن سلام الصحابى رضى الله عنه حيث ائتمنه رجل قرشى على قنطار من الذهب فأرجعه إليه، و قليل من يكون كذلك من اليهود مع غيرهم لأنهم قاتلهم الله يعتقدون أن أموال غير اليهود حل لهم بدليل قوله تعالى : (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) .

فكانت أمانة عبد الله بن سلام و إرجاعه القنطار إلى صاحبه دليلا على طهر نفسه من خبث جوهرها و على ما جمل الله به قلبه من الاستعداد للإسلام .

(١) سورة الفتح آية ١٠

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾
أى و منهم اليهود و هم الكثير بحسب استقراء حالتهم، و لا تزال تلك الصفة لاصقة بهم .

﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً﴾

قائما هنا هو بمعنى مقاضيا مطالبا ملازما له حتى يمكنك أن تخلص الدينار منه، و فى هذه الآية لأهل الإيمان بالله تعالى ليتحفظوا من القوم على دينهم و على أموالهم و على أخلاقهم، فإن الخائن الذى لا تخفى له خيانة يجب أن يحذره الإنسان، و حسبك أن كذبوا على الله وعلى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و كم قتلوا أنبياء الله و ليس بعد بيان الله لنا بيان، و قد بينت لك فيما سبق ما هم عليه أخزاهم الله بالنسبة لنا و لو نسينا كل شىء لا ننسى أعمالهم فى بيت المقدس .

أسأل الله تعالى ألا يمكن لهم فى الأرض و أن يجدد عليهم الخزى و الصغار حتى يكونوا أذلاء لنا كما وعدنا الله فى القرآن المجيد و أسأله أن يعيد لنا العزة كما قال تعالى : (و لله العزة ولرسوله و للمؤمنين)[١].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾
ذلك العمل الذى هو سلب أموال الأميين و إحلاله لهم يجترءون بعملهم هذا على الله افتراء، لأنهم يدعون بأن الله أباح لهم فى التوارة أموال الأميين و كذبوا لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ سئل عن ذلك فقال : [كل شىء فى الجاهلية تحت قدمى هاتين إلا الأمانة]و الله تعالى إنما بعث الرسل لذلك،و قد سأل رجل فى الأمانة ابن عباس عما ينالونه من أهل الذمة من دجاج أو طعام فقال : كيف ذلك ؟ فقال : ليس علينا فى أموالهم شىء فقال : هذه دعوى اليهود، و ما دمتم تأخذون منهم الجزية فأموالهم و دماؤهم حرام عليكم إلا بطيب خاطرهم .

(١)سورة المنافقون آية ٨

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

يعنى أنهم يكذبون فى الخبرعلى الله لما يرونه خيرا لهم حسب هواهم و طمعهم، و الحال أنهم يعلمون الحق ويتركونه و يتبعون الباطل لخبث نفوسهم .

قوله تعالى : (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (٧٦)

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى)

بين لنا حال اليهود فى خيانتهم أموال الأمين، و فى كذبهم على الله بتغيير آياته عن حقائقها، فرد عليهم قصما لظهورهم بقوله:(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل)كأن الله تعالى يقول لهم ليس الأمر كما تدعون من إباحة أموال الأميين، و لا ما أخبرتم به عبادى عنى من الكذب و تغيير آياته ثم حكم جل جلاله حكمه الحق بقوله

: (بلى من أوفى بعهده) يعنى عهد الله تعالى الذى عاهد به موسى و من معه بأنه إذا أدرك زمان خاتم الرسل محمد

﴿ ﷺ وآله﴾ يتبعه و ينصره، و ما بينته التوارة من بيان اسم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ و العمل بكتابه و بنصرته فن الله يحب المتقين .

و قبل أن نفسر هذه الآية نتمم معانى الآية قبلها و جائز أن تعيد الضمير فى قوله (بعهده) على (من) فيكون الضمير وقع مفعولا للمصدر و يكون المعنى (بلى من أوفى بعهده) من بنى إسرائيل الذى عاهده الله به فى التوارة و اتقى الله فى مراعاة ما أمر الله به فلا يفترى الكذب على الله بتغييرآيات الله و لا يخون الله بإنكاره نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ و جائز أن تكون (بلى) نفيا للكلام السابق و هو قولهم:(ليس علينا فى الأميين سبيل)و على هذا فالوقف يكون على (بلى) و جائز أن تكون (بلى) افتتاحا لكلام مستأنف و لا يجوز الوقف عليها و على قراءة الوقف على (بلى) يكون ما بعدها مستأنفا .

(فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

نصت هذه الآية الشريفة على مدح الله تعالى لأهل الوفاء بالعهد المحافظين على الصدق، سواء كانوا من بنى إسرائيل أو من العجم، فإنه لا فرق عند الله بين العرب و العجم و إنما

هى أعمالنا ترد علينا فيقبل الله العمل الصالح من الفقير الوضيع ويجازية عليه، و يكره العمل المخالف من الشريف الرفيع فى قومه و يعذبه عليه، و لا يسأل عما يفعل و قد بينت لك أن أنواع التقوى أربعة و هى : تقوى اليوم، و تقوى النار، و تقوى الرب، و تقوى الله تعالى،

و لكل نوع منها أهل و هم مقامات فى العلم و السلوك على مقادير تقواهم قال تعالى : (و اتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) (١) و قال تعالى : (فاتقوا النار التى وقودها الناس و الحجارة) (٢) و قال تعالى (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم) (٣) و قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله) (٤)

فالذين أقامهم الله مقام تقوى النار ليسوا سواء هم و من مقامهم يتقون اليوم أو يتقون الرب أو يتقون الله تعالى، و فى تلك الآية أكبر بشرى لأهل تقوى الله بأنه سبحانه و تعالى يحبهم، و محبة الله للعبد أعلى مقامات القرب من الله تعالى، و قد بينت معنى محبة الله للعبد بقدر ما تطيق العقول،

و قد شرحت الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع فى المضنون حيث لا تطيقه العقول و ناهيك أيها المؤمن بقوله (فاتبعونى يحببكم الله) و لم يقل سبحانه يحببكم ربكم، و إذا أحب الله العبد و كان أبعد الخلق منه رفعه فكان أقرب خلقه إليه و لا يسأل عما يفعل . فنسأله سبحانه أن يمنحنا محبته و أن يحفظ لنا مواهبه فإن الله تعالى إذا أحب العبد لم يبال العبد بما فعل بدليل قوله سبحانه:(يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم)و بدليل قوله﴿ ﷺ وآله﴾ [إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه و أنسى ذلك جوارحه و معالمه من الأرض حتى يلقى الله و ليس عليه شاهد بذنب] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨١

(٢) سورة البقرة آية ٢٤

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة آل عمران آية ١٠٢

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٧)

سبب نزول هذه الآية يدل على عموم الحكم، فهذا الحكم و إن نظر إليه بعض المفسرين أنه خاص باليهود بحسب ما أخبرنا الله عنهم فى الآيات السابقة إلا أن أنواع الأحداث التى اقتضته كثيرة . منها : أن اليهود قبحهم الله غيروا آيات الله التى أنزلها فى التوارة مبينا بها بعثة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ، و مكانته العلية مع من كانوا قبله ذاكرا اسمه و مولده ودارهجرته فبدلوا كل ذلك افتراء على الله و على كلامه الذى أوحى به إلى موسى و غيره من الرسل عليهم السلام حبا للرياسة و طمعا فى المال، و كان قد وفد على رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ وفد من اليهود فتكلموا معه حتى أثبتوا ما فى التوارة من الآيات المنبئة عنه، و لما قاموا و تقدموا إلى كعب بن الأشرف الذى كان يعطيهم الرشا فى كل سنة قال لهم : إنى لا أدفع لكم ما عودتكموه لأنكم صدقتم محمدا فانقلبوا على أعقابهم و قالوا لم نصدقه و أن الرسول المكتوب فى التوارة من ولد إسحاق و ليس من العرب و غيروا و بدلوا طمعا فى أخذ الرشا من كعب بن الأشرف و فضلا عن هذا الافتراء أنهم كانوا يحتالون بأنواع الخبث أن يمنعوا الناس عن الإسلام بدليل قوله : (أمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره) كما تقدم لك قال الأشعث ابن القيس : ((فى و الله نزلت هذه الآية كان بينى و بين رجل يهودى أرض فجحدنى فقدمته إلى رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقال لى رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ : ألك بينه قلت : لا فقال لليهودى تمليك بيمين فقلت : يا رسول الله إذا حلف ضاع مالى)) فأنزل الله هذه الآية .

واختصم عبدان وامرءوا القيس إلى رسول الله﴿ﷺ وآله﴾ فى أرض فتوجه اليمين على امرىء القيس فسأل رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ أن ينظره لغد، ثم جاء من الغد فأعطى الأرض لليهودى. و أحداث كثيرة تدل على أنها سبب لهذه الآية، و الحقيقة أن الحكم و إن كان سببه خاصا باليهود فإنه عام، لأن خصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم، و إنما الأحكام لا تقيد بخصوص السبب ... و الشراء لغة : هى المبادلة . فصاحب السلعة إذا أعطاها لمن دفع الثمن يقال له اشترى

و يقال له باع، و من بيده الثمن إذا دفع يقال له اشترى و يقال باع و اشترى بعهد الله أى باع عهد الله و اشترى مالا . و فى تلك المعاملة أبخس الربح الذى يناله بذلك سحت فى الدنيا و عذاب فى الآخرة، و العهد ما ضمنت أن تقوم به لغيرك فى أى حق من الحقوق من تجارة أو زراعة أو خدمة أو مصنوعات، أو قيام بواجب تقتضيته أبوة أو قرابة أو وفاء حق لله و لرسوله و لأولى الأمر .. و الأيمان هى القسم الذى تؤكد به الأخبار أو تقوى به الضمانة .

(بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً)

أى ما عهد الله به إلى عباده، و أول عهد عاهد الله به عباده عهد يوم ألست بربكم حيث قال : (و إذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم) [1] الآية، ثم عهد الله إلى أنبيائه أن يبلغوا أممهم ما أوحى به إليهم، ثم ما أخذه من العهود على من اتبعوا الأنبياء، و من تلك العهود ما عاهد الله عليه اليهود من أنه إذا بعث حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى يبعث فى آخر الزمان بمكة يجب عليهم أن يؤمنوا به و يتبعوه، و بين لهم أوصافه و بقيت التوارة ناطقة شاهدة بذلك فصار كل خلف يجده فى التوارة إلى زمانه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و هم يجدونه حقا فى التوارة و لكنهم اشتروا بهذا العهد عرض الحياة الدنيا و الرياسة و اشتروا بأيمانهم هذا العرض الفانى مع يقينهم أنهم على باطل .

(أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ)

حكم الله تعالى على الذين يشترون بتغيير أحكام الله تعالى، و صرفها عما أنزلها الله لأجله عرض الدنيا الفانى، و يؤكدون أخبارهم الكاذبة عن الله بالإيمان و المواثيق بخمسة أحكام من انتقامه جل جلاله منهم، أولها : قوله تعالى (لا خلاق لهم) أى لا نصيب لهم من الأجر و لا قسط من الثواب، بل فى معنى لا خلاق لهم حرمانهم من كل خير يوم القيامة (فى الآخرة) يعنى أن هذا الحرمان يتحققون به فى الآخرة حيث ينتظر المحسن جزاء إحسانه، و يقع المسىء فى إساءته، لأن المسىء لا ينتظر حياه ثانية و ذلك لوقوعهم فى المعاصى المبنيئة

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢

بنسيانهم يوم الحساب قالى تعالى :(بما نسوا يوم الحساب)و قال سبحانه:(كما نسيتم لقاء يومكم هذا) فللمحسن فرحتان : فرحة انتظاره يوم القيامة الأمر الذى به يطمئن قلبه، و الفرحة الثانية فوزه بما وعده الله من النعيم المقيم، أما المسىء فإنه بنسيانه يوم القيامة، يكون قيامه لها أشد عليه من عذاب النار، ثم يقع فى ما توعده الله به من تلك الحقائق التى ذكرها سبحانه، و فى هذه الآية دليل على حرمان المراقبة، لأن المراقبة تدعوا إلى رهبة من الله و دوام خشيته، فهى لا تلائم الطبع البشرى و يكون الإنسان بها فى آلام لمنع نفسه من نيل مشتهياتها و لتمثيل العقاب يوم القيامة، و بالمراقبة هذه يكون الإنسان كأنه فى آلام طول عمره، فإذا مات و خرج من الدنيا أكرمه الله تعالى بأن يقيمه فى نعيم أبدى طول الأبد .

(وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ)

كلام الله سبحانه الذى يكلم به خلقه لا يكون إلا فى حظوة لدنية، و هو أعلى مقام يوليه سبحانه و تعالى نبيا مرسلا أو وليا مجتبى، و ما من الله بكلامه على عبد إلا و قد اجتباه بل و اصطفاه، وعلى هذا التأويل يكون نفى الكلام عنهم دليلا على حرمانهم من نيل الخير الذى يتفضل الله به على أحبابه و أوليائه، و ما عدا ذلك من كلام الله تعالى الذى يتعلق بالحساب يوم القيامة بينه و بين هؤلاء العباد فإنه يكون بواسطة الملائكة أما فهم هذه الآية الشريفة على حسب اللغة فقوله تعالى : (و لا يكلمهم) أى لا يعطف عليهم و لا يرحمهم و لا يقبل منهم، لأنك قد تتكلم مع خصمك فتقول له أنا لا أتكلم معك مع أنك تتكلم معه، فيكون المراد بذلك أى لا أحسن إليك و لا أساعدك ... و لما كان علم الغيب المصون المتعلق بالعلم بالله تعالى و بأسمائه و صفاته و بأيامه و أحكامه و حكمة أحكامه لا وسيلة إلى نيله إلا بالسمع، فانتفاء الكلام عنهم دليل على حرمانهم من كل تلك العلوم، و إن علموا ما عداها مما يتوصل الإنسان إلى العلم به بواسطة الجوارح، ففى قوله (لا خلاق لهم) بيان لحرمانهم قوة الفكر المؤدى للمراقبة (و لا يكلمهم الله) بيان لحرمانهم السماع من الله سبحانه و تعالى أو عنه سبحانه و فى ذلك من القطيعة عن الله ما فيه .

(وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

هذه الجملة الشريفة تدل على أن محل نظر الله تعالى هو الحق المحبوب له سبحانه ، فإن الله

إذا نظر إلى شيء كان نظره إليه دالا على عنايته سبحانه به و إقباله عليه و إمداده له بما يليق بإحسانه و فضله ، و كل شيء لم يكن في علم الله و تحت نظر الله تعالى فهو عدم باطل، و قد ورد أن الله خلق الدنيا و لم ينظر إليها أى أنه لا يعلم جل جلاله أن فى الدنيا مخلوقا له ربوبية أو ألوهية على أحد كما ادعى فرعون ونمروذ و غيرهما ممن يدعون الملك و الإمارة و الغنى و هم أقل عقلا من الممرورين، و لو أن الأحمق فيهم تحرك فى رأسه شريان نسى كل شيء و تمنى أن يحمل التراب على رأسه و يستريح إلى الأبد، فالله تعالى لا يعلم أن إلها فى الأرض يسمى فرعون،

لكنه يعلم سبحانه أن عبدا ذليلا حقيرا بطنه ممتلىء خبثا يسمى فرعون، ففى قوله : (و لا ينظر إليهم) أى لا يثبت لهم وجودا حقا يقتضى نظر الله تعالى إليهم بل المثبوت أن وجودهم باطل و عملهم باطل فليسوا أهلا لأن ينظر الله إليهم : و من شاء الله أن ينظر إليهم أثبت وجودهم سبحانه فصاروا محل نظره . (يوم القيامة) أى فى يوم أن يثبت وجودهم الحق أنهم أعداء أنفسهم ظلموها بمخالفة أوامر الله تعالى و وصايا أنبيائه عليهم السلام ، و يكون وجودهم الحق مقتضيا خلودهم فى نار جهنم لأنهم حرموا الوجود الحق فى الدنيا الذى يقتضى نظر الله إليهم.

(وَلاَ يُزَكِّيهِمْ)

التزكية بحسب كل شيء طهارة، فقد تكون التزكية يوم القيامة بشهادة الرسل لهم، و قد تكون بقلوبهم و بالتوبة عليهم و بمغفرة ذنوبهم، و قد تكون بكشف الحجاب عنهم حتى يشهدوا ما أعده الله لأحبابه المقربين، فنفى تزكية الله عنهم حجة عليهم أنهم من أهل جهنم، فهذه الآية دليل على أن نفوسهم من أردأ جواهر النفوس الخبيثة لفقدها القابل من الله تعالى، كالنفس الأمارة بالسوء .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذا هو الحكم الخامس عليهم، و قد تقدم شرح كلمة العذاب و الأليم أيضا ...

قوله تعالى : (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٧٨)

بين الله لنا ما كان عليه اليهود من أيام موسى عليه السلام إلى عصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيانا سجل الله تعالى عليهم به ما شرحته فى الآية السابقة من أنواع الانتقام الخمسة، و فى هذه الآية يبين الله لنا ما كانوا عليه من افتراء الكذب على الله تعالى ، و الخيانه التى غيروا بها كلام الله و أحكامه فى التوارة، و خصوصا ما يتعلق بذكرمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله سبحانه :

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً)

أى و إن من اليهود الذين كل فئة منهم حاربوا الله تعالى و رسله عليهم السلام بنوع من أنواع العنتاد و المعصية . و هنا يخبرنا الله تعالى عنهم بأنهم فى عصر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

(يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم)

أى يفتلونها و يقبلونها .

(بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ)

أى بآيات التوارة و المراد باللى الفتل كما يقال لويت عنقه أو ذراعه يعنى فتلته، و اللى هنا كناية عن تحريف الكتاب و تغيير ما جاء فيه عن محمد﴿ ﷺ وآله﴾

، ويقرأون ما حروفه و غيروه بلحن قراءة التوارة، حتى إذ سمعه العامة اعتقدوا أنه من التوارة، و هم كاذبون على الله بدليل قوله تعالى :

(وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ)

أى ليس من كلام الله تعالى، بل هو افتراء على الله سبحانه ، و كذب و خيانة لأمانته جل و علا فيضلوا الناس عن الهدى و يردوا من أسلم من العرب عن الإسلام بتشكيكهم، و

تلك عوائدهم قاتلهم الله . و قد بين الله ما كانوا عليه من خبث نفوسهم من أيام موسى إلى زمان عيسى . فكم قتلوا أنبياء و كم حاربوا الحق و ليس الأمر بخفى، فإن الله يبين لنا خبثهم فى زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنهم كانوا يلوون ألسنتهم ليها فى تلاوة التوارة بكلام باطل يوهمون الناس أنه كلام الله تعالى ، فيقولون إن نبى آخر الزمان من ولد إسحق لا من من ولد إسماعيل، و ينكرون صفات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ التى بينها الله تعالى فى التوارة .

(وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ)

أى أنزله تعالى على موسى من عنده إيهاما للعامة و حرباً بالله و لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقهرهم الله بالحجة بقوله تعالى :

(وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ)

نفى الله أن هذا الكلام من عنده سبحانه ، و إذا أخبرنا الله تعالى بأن هذا الكلام ليس من عنده ثبت كذبهم و وجبت عدواتهم و الاحتراز منهم، فإنهم قبحهم الله يخفون الحق و يظهرون الباطل و هى سمتهم ، فكذلك يخفون البغض لنا فى قلوبهم و يظهرون المحبة و المودة . و الواجب على كل مسلم إذا أحوجته الضرورة إلى معاملتهم أن يكيد لهم أكثر مما يكيدون له، خصوصا بعد بيان الله تعالى فى هذه الآية . و ما تقولون فى قوم يكذبون على الله مع علمهم بكذبهم عليه، كيف يخلصون لنا فى معاملة .

(وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

هذه الآية خبر من الله شرح لنا فيها سوء قصد اليهود و خبث نواياهم و عظيم جحدهم بالله تعالى و كفرانهم نعمه، حيث أخبرنا أنهم يقولون على الله الكذب فيدعون أنه أنزله عليهم كلاما من عنده و هو محض الكذب و الاختلاق من غير مراقبة لعظمته و لا خوف من قهره، و يدعون أنهم مؤمنون بالله و بموسى عليه السلام ، و متى يكون الكاذب على الله و على نبيه أبشع الكذب مؤمنا . و من كان يعلم أن الله سبحانه توعد المذنب بعذاب الله فكيف يكون حال من يحاربه و يكذب عليه، لابد و أن تكون له عقوبه أشد من عذاب

النار . و من كان يعتقد أن له إلها قادرا على أن ينفذ وعيده ثم يلقى بنفسه فيقع فيما يغضبه كيف يكون مؤمنا به، إلا إذا كان يجعل الإيمان به سبيلا لسلب أموال الناس فهو يبيع الدين بالدنيا . و معنى الآية : أنهم يخبرون الناس عن الله فيما يتعلق بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ أخبارا كاذبة و هم يعتقدون كذبها لشدة عنادهم لرسول الله و حسدهم له عليه الصلاة و السلام و حرصهم على أن تدوم لهم السيادة فى الدنيا بالدين و تجبى لهم الأموال .

قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩)

سبب نزول هذه الآية أن بعض أحبار اليهود يتعبدون الناس بتغييرهم أحكام التوارة بزيادتهم عليها ليثبتوا لأنفسهم القداسة فيعبدهم أتباعهم، و أيضا فإن وفد نصارى نجران و وفد اليهود لما حضروا عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و أقام عليهم الحجة القاصمة لظهورهم قال حبر من أحبار اليهود : يا محمد ما أردت إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى . و قال قس من نصارى نجران : يا محمد ما أردت إلا هذا . فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ :(معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثنى و لا بذلك أمرنى) أو كما قال . فأنزل الله عز و جل هذه الآية .

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي)

و معنى هذه الآية : أن الله سبحانه و تعالى يقيم الحجة البالغة على اليهود و النصارى بأنه لا ينبغى لبشر، و البشر اسم جمع لبنى آدم لا واحد له من لفظه أى كل إنسان يتفضل الله تعالى عليه بإنزال كتاب من عنده و يمن عليه ببيان هذا الكتاب، و هذا البيان هو الحكمة و هو الحكم، و يخصه جل جلاله بالنبوه التى هى كشف أسرار الغيب حتى يتمثل جوهر النفس ما عليه الغيب فى الحقيقة و نفس الأمر من جمال و جلال و بهاء و نور و كمال، ثم بعد هذا الفضل العظيم و اليقين الحق الكامل يجهل مواهب الله لديه و يقول للناس كونوا عبادا لى الأمر الذى هو فى قوة المستحيل .

﴿مِن دُونِ اللّهِ﴾

أى أن يدعو الناس لعبادته جاحدا توحيد الله تعالى و انفراده بالربوبية و الألوهية، و بتلك الحجة يثبت للعقل أن أى إنسان يفترى الكذب على الله تعالى و يغير أحكامه بما يناسب هواه و طبعه يحكم عليه بالكفر و الضلال، و تقوم الحجة أنه مفترعلى الله تعالى و أنه محروم من فضله سبحانه و تلك الحجة بعينها تقوم على كل من يدعى أنه داع إلى الله تعالى و إلى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ و يخالف السنة فى صغيرة أو كبيرة بأنه ضال مضل . و كيف يحكم الله تعالى على من يدعو الناس إلى عبادة نفسه بالكفر و الجحود و يتركه من غير أن يناله ما يستحقه من الغضب و اللعنة .

و المسلم البصير لا يقتدى بمن خالف السنة و الكتاب و لو قال للشىء كن فيكون، لأن الله يستدرج أهل البدع و الضلالة ليميز سبحانه الخبيث من الطيب، فالمؤمن الكامل أشد الناس تمسكا بآداب الشريعة، و المسلم الذى لا عقل له يتبع كل ناعق، و إنما يتميز المسلم البصير من غيره بالنظر الثاقب عند الفتنة و بالسلامة من المحنة .

﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾

أى يقول للناس كونوا ربانيين، كونوا حكماء عند صولة الفتن، علماء عند وقوع الشبه، فقهاء عند هجوم الريب .

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

أى بما كنتم تعلمون غيركم الكتاب الذى علمكموه الله، و بما كنتم تدرسون الكتب التى أنزلها الله تعالى و تتعقلونها و تتفاهمون فيها للعمل بها مع الأدب لصريح ما أنزل الله فيها و التسليم لمتشابهها .

قوله تعالى : ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ﴾

هذه الآية معطوفة بالواو على قوله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتب و الحكم و النبوة) الآية . و المعنى و لا أن يأمر الناس المسلمين له أن يتخذوا الملائكة و النبيين أربابا أى آلهة من دون الله تعالى ، و هو الذى ثبت لديه أنه سبحانه هو المختص بالألوهية دون غيره المعبود بحق، و هو الذى جاء من عنده سبحانه يدعو عباده لعبادته الخالصة و ذلك القول الذى نفاه الله عن الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا و نزه عنه ساحتهم، هم و الذين اتبعوهم على نور و بصيرة من العلماء العاملين الذين يبلغون رسالات الله لعباده لا يقول به إنسان له مسحة عقل .

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

الهمزة للاستفهام الإنكارى . ينكر ربنا كل الإنكار أن يكون نبى مرسل من عنده سبحانه يأمر المقتدين به بالكفر ألا بجحود الوحدانية لله تعالى و إنكار استحقاقه للعبادة دون غيره و ذلك مستحيل جدا بعد تسليمهم له و اقتدائهم به بدليل : قوله تعالى : ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى مسلمون له أموركم ...

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

قبل أن نتكلم على تأويل هذه الآية الشريفة نلمع إلى رذاذ من شميم الأرواح ... معلوم أن الذى يذكر بحادث عظيم لابد و أن يكون شهده فى آية، فإذا ذكر به استحضره تمثيلا فكان كالحاضر لأنه مرسوم على جوهر
النفس ...

يذكر الله الذين أشهدهم ميثاق أنبيائه قبل عهد ألست كما بينه سبحانه فى هذه الآية و هم الذين أخبرنا الله عنهم أنه رضى عنهم و رضوا عنه من أصحاب رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، بل و من التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ممن و رثوا تلك المكانة أو أقامهم الله أبدالا لرسله صلوات الله عليهم و أكرمهم باختصاصهم بالوارثة من مقام الرسالة أو من

المكانة الأحمدية، لقوله تعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ)

أى و اذكروا وقت أخذ الله تعالى ميثاق النبيين . إشارة علية إلى أن هذا الميثاق ميثاق استجلاء لكمال الأسماء و الصفات الإلهية، و هو فوق مقام عهد ألست الذى هو ظهور لمعانى صفات الرب جل جلاله بدليل قوله تعالى : (و إخذ ربك) و بين المشهدين كما بين الرسول و المؤمن التابع، فهذا الميثاق برهان على على المكانة الأحمدية، فإن الرسل بالنسبة له﴿ ﷺ وآله﴾ أمة و هو رسولها،

و هذه المكانة هى ولايته﴿ ﷺ وآله﴾ على جميع الرسل، و مثال ذلك أنك ترى مجلسا جمع أهل العلم و الهدى و التقوى و رجل هو وليهم و هم أتباعه ينصرونه، فكذلك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هو رسول مثل الرسل و لكنه عليه الصلاة و السلام ولى الرسل بتصريح هذه الآية الشريفة . و معناها و اذكروا وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء كما هو صريح الآية، و إن فسرها بعض المفسرين بأنه أخذ ميثاق الأنبياء على أممهم، و الميثاق تقدم تعريفه فيما سبق .

(لَمَا آتَيْتُكُم)

ورد فى اللام الفتح و تكون ما اسم شرط جازم أو اسم موصول، و ورد فيها الجر و تكون ما مصدريه و المعنى لأجل ما آتيتكم .

(مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)

الكتاب هو ما أنزله الله تعالى على كل رسول مشرع، و الحكمة ما تفضل الله به على الأنبياء من العلم ببيان الكتب و العلم بمحاب الله و مراضيه .

(ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ)

و المراد بالرسول هو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

(مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ)

يعنى مؤيدا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى . و إن خالفت شريعته شريعتهم فى فروع الفقه و المعاملات، و فى تفصيل إجمال علوم التوحيد و أسرار غيب الأسماء و الصفات و الحكم و الآداب، فإن ذلك مقتضى بعثة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه و عليهم الذى أخبرنا الله بما تفضل به علينا بسببه لقوله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الإسلام دينا)فإن كل رسول بعث قبله جاء بما جاء به من كان قبله و زيادة حتى أتم الله دينه و أكمل نعمته على العالم أجمع ببعثة حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ . و هذه الآية الشريفة جاءت فى سياق بيان فضله ﴿ ﷺ وآله﴾

و إثبات رسالته لتقوم الحجة على وفد نجران من النصارى و على اليهود فى البيان السابق فى المباهلة و البرهان، وهذه الآية خاصة بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ دون غيره من الأنبياء. (ثم جاءكم رسول) ومعلوم أن (ثم) للتعقيب و التراخى و لا يكون التعقيب و التراخى إلا بعد النهاية و طول المسافة .

(لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)

اللام هنا للقسم و تؤمنن مؤكد بالنون ففيه توكيدان، و إن كانت الآية توجب على كل نبى لو بعث رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى عصره توجب عليه أن يؤمن به و أن ينصره فكيف يكون الحال بغير الأنبياء من أتباعهم و غيرهم ، فيكون الإيمان منهم به و نصرهم له من باب أولى . و فى تلك الآية من بيان قدر رسول الله عند الله و رفعة شأنه لديه جل جلاله ما فيه مما لا يخفى على من فقه خطاب الله تعالى .

(قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي)

على هذا التأويل يكون الاستفهام تقريريا، و يكون الخطاب من الله لأنبيائه و هو تأويل على عليه السلام و ابن عباس و غيرهما من أئمة الصحابة رضوان الله عنهم و الإصر:هو العهد الوثيق المعقود على كمال الإيمان و التسليم و قد سبق الكلام عليه .

﴿قَالُواْ أَقْرَرْنَا﴾ أى قبلنا و سلمنا بيقين .

﴿قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾
أى بينوا هذا الميثاق لأنفسكم و لغيركم بالحجة حتى تفوزوا أنتم و غيركم بما وعدت به من آمنوا برسولى محمد ﴿ﷺ وآله﴾ و نصروه .

قوله تعالى : ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢)

﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾
الفاء للفصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر و من تولى اسم الشرط و فعله ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الفاء رابطة للجواب و أولئك إشارة عائدة إلى من ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ خبر الإشارة و الجملة جواب الشرط . و معنى الآية على تأويل أن الميثاق مقصود به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ يعنى أن الله واثق الأنبياء لمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ فمن تولى من الأنبياء فلم يوف لله تعالى بما واثقه به بترك الإيمان و النصرة لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ (فأولئك) أى الخارجون من الدين .

و فى هذه الآية معنى قوله تعالى : (لئن أشركت ليحبطن عملك) وهو حكم من الله تعالى الذى قدرعصمة رسله عليهم الصلاة و السلام و لكنه سبحانه هو العلى الكبير الذى لا يسأل عما يفعل و لا عما يقول فإنه سبحانه و تعالى فوق كلمته لأنه تنزه عن أن يشبه الحوادث، و ليس فى هذه الآية ما يومى إلى أن بعض الرسل عليهم الصلاة و السلام رجع عما واثق الله عليه و لكن الله هو القاهر فوق عباده . و الرسل ومن دونهم عبيد مقهورون وعباد مربوبون وهو سبحانه القاهر فوق عباده ...

و يجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى : (فأولئك هم الفاسقون) راجعا إلى من تولى بعد ذلك الميثاق من أهل الكتاب و غيرهم عن الإيمان برسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ و عن نصرته و تأييده و يكون ذلك من باب النعى و التنديد بهم، كأن الله يقول لهم إذا كان رسلى و أنبيائى قد آمنوا برسولى و نصروه و عاهدونى على ذلك و وثقوا هذا العهد بالإقرار و الشهادة و بينوا ذلك فى التوارة و الإنجيل و غيرها من الكتب هل بعد ذلك كله يكفر به

﴾ ﷺ وآله﴿ أحد، و يتولى عن نصرته و الإيمان به إنسان له أدنى عقل يعقل به . إن ذلك هو الفسق و الخروج على جميع رسل الله وشرائعه و سننه .

قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ﴾

يظهر أن ذكر هذه الآية بعد ما تقدم من ذكر اليهود و النصارى مساقة للدلالة على أن أعداء الله و رسوله بعد أن قامت الحجة على بعثة رسول الله ﴾ ﷺ وآله﴿ بما أنزله الله تعالى فى التوارة و الإنجيل من علاماته و بما بينه رسول الله ﴾ ﷺ وآله﴿ من الأسرار التى أنزلها الله تعالى فى كتبه مما لا يعلمه إلا علماؤهم و أحبارهم و ما أظهره الله تعالى من المعجزات الباهرات و غير ذلك من تأييد الله لرسوله ﴾ ﷺ وآله﴿

ونصرته على العرب جميعا من قريش و غيرهم و مع كل تلك الأدلة الواضحة و البراهين الساطعة، و المعجزات الباهرة، تأبى نفوسهم الخبيثة إلا إنكار الحق و الكفر بالله و رسوله .

و إن كان ورد فى سبب نزول هذه الآية أن اليهود و النصارى اختصموا إلى رسول الله ﴾ ﷺ وآله﴿ يدعى كل منهم أنه على الحق و أنه أولى بإبراهيم عليه السلام فأخبرهم رسول الله ﴾ ﷺ وآله﴿ أنهم جميعا على الباطل فأبوا الحكم فأنزل الله تعالى تلك الآية بسياق الخبر على رواية يبغون ويرجعون بالياء فيهما و بسياق الخطاب على قراءة تبغون و ترجعون .

و معنى هذه الآية الشريفة : أن الله تعالى ينكرعليهم ما يبغونه بدليل همزة الاستفهام التى هى للإنكار و معنى قوله تعالى:(يبغون) أى يطلبون دينا و عبادة لغير الله سبحانه و طاعته و الإيمان به سبحانه و برسوله ﴾ ﷺ وآله﴿ جملة .

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾

جملة حالية، و أسلم أى سلم له أموره منقادا لأمره و نهيه مسارعا إلى ما يحبه و يرضاه مما أوجبه و رغب فيه منتهيا بكليته عما نهاه عنه و كرهه له .

﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

من الملائكة و الإنس و الجن .

﴿طَوْعاً﴾

يريد بهم الملائكة و الرسل و الأنبياء، و من سبقت لهم منه سبحانه و تعالى الحسنى من الأمم أتباع الرسل صلوات الله و سلامه عليهم .

﴿وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

الظاهر أنهم الذين قهروا على الإسلام بما أظهره الله تعالى من المعجزات التى أيد بها حبيبه محمد ﴿ﷺ وآله﴾ و أصحابه من بعده : و لك أن تقول : إن أعداء الله تعالى الجاحدين توحيده و المنافقين فى دينه مهما نطقت ألسنتهم بالكفر و الجحود يحكمون أن لهم إلها قادرا عليا هو الذى خلق الخلق بدليل قوله تعالى : (و لئن سألتهم من خلق السموت و الأرض ليقولن الله)[١]

و بدليل قوله تعالى : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)[٢] فالذين نطقوا بالكفر و عملوا به هم فى الحقيقة مسلمون لله معترفون أن الذى خلقهم و رزقهم هو الله تعالى، و هم كفرهم بألسنتهم إذا أحوجتهم الضرورة و استغاثوا بما اتخذوه من دول الله شريكا و لم يغثهم يلجأون إلى الله تعالى كما فعل فرعون عند الغرق حين قال : (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو ءاسرائيل و انا من المسلمين)[٣]

و جائز أن يكون معنى (و كرها) يوما القيامة حين تنكشف الحقائق جلية حين يقول

(١) سورة لقمان آية ٢٥

(٢) سورة الزمر آية ٣

(٣) سورة يونس آية ٩٠

الكافرون : (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا)[1] و بذلك تتحقق الكلمة بمعناها . و لك أن تقول (و كرها) أنهم مقهورون بإرادة الله تعالى لهم الكفر و الإضلال بدليل قوله تعالى : (يضل من يشاء و يهدى من يشاء)[2]

أثبت الله البعث بهذه الآية . و معناها أن عباده جميعا طائعهم و عاصيهم و مؤمنهم وكافرهم يرجعون إليه سبحانه ، ليجازى المحسن بإحسانه و المسيء بإساءته، و هنا قامت الحجة لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و المراد الكائن نافذ لا مرد له و لله الحجة البالغة، و إنما بعث الله تعالى الرسل ليميز الخبيث من الطيب، ويقبل بمن سبقت لهم منه سبحانه الحسنى على الإيمان و حسن الاتباع لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، و يقيم الحجة على أعدائه الذين سجل عليهم سوء العاقبة . أعوذ بوجه الله الكريم من سوء القدر .

قوله تعالى : (قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (٨٤)

هذه الآية الشريفة وردت دليلا على بعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنها أنزلت بعد قوله تعالى : (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم)[3] و معنى الآية أن الله يأمر رسوله محمدا﴿ ﷺ وآله﴾أن يقول لليهود و النصارى ما يأمره الله تعالى به من قوله سبحانه :

(قُلْ آمَنَّا)

و قوله (قل) خاص برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه هو المقصود، وقوله (ءامنا) عام له و لأصحابه الأخيار رضى الله عنهم الذين صدقوا الله و رسوله .

---

(١) سورة السجدة آية ١٢

(٢) سورة فاطرآية ٨

(٣) سورة آل عمران آية ٨١

(بِاللّهِ)
أى صدقنا الله تعالى بما أنزله علينا من إثبات رسالة محمد ﴿ﷺ وآله﴾ و من القرآن المجيد .

(وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا) . من القرآن كما تقدم .

(وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) من الصحف . (وَإِسْمَاعِيلَ) وهو الابن الكبير للخليل عليهما السلام ، و هو الذبيح على التحقيق و أمه هاجر عليها السلام . (وَإِسْحَاقَ) و هو الابن الثانى للخليل من سارة زوجته الأولى عليها السلام (وَيَعْقُوبَ) وهو ابن اسحق . (وَالأَسْبَاطِ) و هم الاثنى عشر أبناء يعقوب و قد تقدم ذكر أسمائهم .

(وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى)
و إن الذى أوتيه موسى هو التوارة، و ما أوتى عيسى هو الإنجيل، و قد تقدم ذكر ما يتعلق بهما فى الآية السابقة .

(وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ)
ممن ذكر الله فى القرآن، و من لم يذكرهم بدليل قوله سبحانه: (منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك) (١)

(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)
أى أننا نؤمن بهم كما أخبرنا الله عنهم و بين ما فى سيرهم، لا نختلف فى واحد منهم كما فعل أهل الكتاب ففرقوا بين الرسل عليهم السلام و فرقوا بين الأنبياء و قتلوا بعضهم و أنكروا على بعض كما بين الله ذلك فى القرآن المجيد مشنعا على من آذوا الأنبياء و طعنوا عليهم (و نحن له مسلمون) أى منقادون لأمره و نهيه و طاعته و عبادته، مسلمون له أمورنا بالتفويض، معتقدون أنه سبحانه له الخلق والأمر

---

(١) سورة غافر آية ٧٨

كما قال تعالى : (ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العلمين) [(١)] و بهذا البيان قامت الحجة عليهم ووضحت المحجة لكل من سبقت لهم الحسنى من الله .

قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥)

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

هذه الآية الشريفة هى نتيجة هذا البيان المفصل فى الآية السابقة و هى مرتبة على أخذ الله الميثاق على أنبيائه أنهم إذا جاءهم خاتم الرسل عليهم الصلاة و السلام مصدقا لما معهم وجب عليهم الإيمان به و نصرته، و قد جاء ﴿ﷺ وآله﴾ بدليل ما أظهره الله على يده من المعجزات الباهرات، و ما بينه من الحقائق التى صرحت بها التوارة و الإنجيل،

و هو ﴿ﷺ وآله﴾ بين أمة جاهلية لا علم لها بالشرائع و لا بالكتب السماوية و لا بأخبار الرسل عليهم الصلاة و السلام ، و لا بأسرار الغيب المصون من العلم بالله و بأيامه و بأحكامه، و من العلم بأسرار الغيب فيما يتعلق بالإنسان من أول وضع النطفة فى الرحم، إلى يوم القيامة، و ما يكون فيها من بعث و نشر و حساب و نعيم و عذاب مما لا يعلم علمه إلا الله تعالى و من يرسله سبحانه لدعوة الخلق إليه جل جلاله ،

فكانت تلك الآية هى الحكم القاطع من الله تعالى بأنه سبحانه أرسل حبيبه محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ لنجاة العالم، و أن كل مخلوق يخالفه ﴿ﷺ وآله﴾ يحكم عليه بالشقاء الأبدى خلودا فى الحطمة .

(و من) هنا اسم شرط جازم . (يبتغ) فعلها . (فلن يقبل منه) جوابها . يعنى أن الحجة الواضحة قامت على إثبات بعثة رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ للناس كافة و أنه جاء بالإسلام دينا و أن الإسلام هو دين الرسل و الأنبياء من قبل، و إن من يعتنق دينا غيرالإسلام لن يقبل منه صرف و لا عدل لأنه اعتنق باطلا و رضى بالكفر و أقام الحجة على نفسه أنها نفس خبيثة عنادية تستحق غضب الله و لعنته و الخلود فى عذابه بدليل

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤

قوله تعالى :

(وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

وهذه الآية : و إن كانت جزاء من الله إلا إنها حكم لازم، و الله تعالى لا يخلف وعده و إن جاز أن يخلف وعيده، و إذا قدر ذلك وفق من توعده بالنار إلى التوبة و الإنابة إلى الإسلام، و معنى هذه الآية أن من يرتضى غير الإسلام بعد قيام الحجة و وضوح المحجة فالحكم عليه أن يكون يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من النعيم المقيم، و خسروا أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها لأنها أوبقتهم فى نار جهنم ..

قوله تعالى : (كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (٨٦)

سبب نزول هذه الآية أمور كثرة منها : أن بنى قريظة و النضير كانوا يخبرون العرب ببعثة رسول منهم بشرت به التوارة و يهددون العرب بأنهم ينصرونه عليهم مؤيدين له ﴿ ﷺ وآله﴾ قبل بعثته، فلما بعثه الله بشيرا و نذيرا مطابقا لما أخبر به اليهود جحدوا بنبوته و كفروا بالله و برسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

و معنى هذه الآية استبعاد نيل بنى قريظة و النضير هداية الإحسان من الله تعالى التى يفوزون بها بالإيمان بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بدليل ما ورد فى التوارة من بيان صفاته ﴿ ﷺ وآله﴾ و لكنهم قاتلهم الله أبعدهم الحسد عن الفوز بتلك النعمة العظمى، و سبب آخر و هو أن اثنى عشر رجلا من الأنصار منهم حارث بن سويد ارتدوا و لحقوا بمكة فأرسل الحارث لأخيه بالمدينة أن يسأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هل لهم من توبة ؟ فنزلت الآية الشريفة، فأخبره أخوه فقال : أنت صادق و رسول الله أصدق منك و الله تعالى أصدق الثلاثة : ثم تا ب و رجع إلى الإسلام .

و معنى الآية أن الله تعالى يخبرنا أنه سبحانه لا يهدى هداية الإحسان قوما كفروا به بعد أن آمنوا به سبحانه و بنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ و هم اليهود قبل بعثته صلوات الله و سلامه عليه ، و الرهط من الأنصار بعد إيمانهم به و شهادتهم له بالنبوة عليه الصلاة و السلام ، و لكن الله ذو فضل على عباده إن هم تابوا و أنابوا إليه سبحانه ، و أقبلوا عليه بقلوب طاهرة و نفوس صادقة و دخلوا فى دين الله مخلصين النية لله و لرسوله .

(وَشَهِدُواْ)
أى شهدوا إقرارا بألسنتهم و اعتقادا بقلوبهم حتى ثبت إيمانهم، و الواو هنا جائز أن تكون للعطف و يكون قوله تعالى : (و شهدوا) جملة فعلية عطفت على كلمة إيمانهم التى وقعت مضافا للظرف حذف منها (بعد أن) و يصح العطف، و الحذف جائز إذا علم المحذوف، و جائز أن تكون الواو للحال و تكون الجملة حالا فى الضميرمن (كفروا) .

(أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ) أى أنه رسول الله بيقين .

(وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ)
تأويلها بالنسبة لليهود ما جاء فى التوارة من نبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ و صفاته و محل مولده و هجرته، و ما بشر به موسى و عيسى و النبيون من قبلهم عليهم الصلاة و السلام مما ثبت فى التوارة و الإنجيل بصريح العبارة و غيره، و لكن اليهود و النصارى كفروا عنادا و حسدا و بالنسبة للأنصار الذين ارتدوا و رجعوا فالأمر ظاهر لما أظهره الله على يده ﴿ ﷺ وآله﴾ من المعجزات الباهرات فى الأحداث الكونية و فى القرآن المجيد المعجز و قوله (البينت) حجة دامغة معترف بها من اليهود و النصارى، و من فطاحل أرباب اللغة و فحول علماء الكتب السماوية، و لكن لعن الله الحسد و الطمع فى غير مطمع و حب الرياسة فإنها مهلكة لمن ختم الله على قلوبهم و أعمالهم، و أعماهم عن نور الحق .

(وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)
الظلم لغة : هو وضع الشىء فى غير موضعه، و اصطلاحا : هو الشرك، فإذا قامت الحجة على بيان الحق و جحده من أبعدهم الله عن الفوز بهذا الخير العظيم كان ذلك هو الظلم فى نهايته و متى ثبت ذلك تعين أن الله تعالى لم يقدر لهم هداية فى أزله، قال﴿ ﷺ وآله﴾ :[اعملوا فكل ميسر لما خلق له]و قال تعالى:(من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد

له وليا مرشدا) [(١)].

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٨٧)

﴿أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

اللعنة من الله تعالى هى البعد عن نيل مغفرته و رحمته و توفيقه لما يحبه و يرضاه، و اللعنة من الناس و الملائكة هى بغض الملعونين بالقلب و ذمهم باللسان، و كفاهم تعسة لعنة الله عليهم أعاذنا الله تعالى بوجهه الجميل مما يوجب لعنته و غضبه . و ذكر الملائكة و الناس هنا إشارة إلى أن لعنة الله تجعل الملعونين فى حالة سيئة توجب بغض الملائكة و الناس لهم و كراهيتهم و عدم معاونتهم، و إنك لا ترى إنسانا لعنه الله إلا وهو مبغوض عند والديه و أقاربه و الناس أجمعين، لأن إبعاد الله العبد عن رحمته و مغفرته يجعله يهوى فى موجبات المقت حفظنا الله تعالى من معصيته و أسبابها .

قوله تعالى : خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨)

هذه الآية الشريفة تبين أن من يلعنهم الله يبعدهم عن الرحمة، و من أبعدهم عن الرحمة سقطوا فى نار جهنم سقوطا مقيدا بالتأييد و بتجديد العذاب بأنواع مؤلمة فى كل نفس لا يخفف عنهم بل يشتد، و لا يرد عليهم وارد يتنفسون به نفس أمن يجعلهم يظنون إرجاء العذاب و تأخيره أو انتهائه و فى ذلك من عذاب أبدانهم وعذاب قلوبهم ما فيه مما تذوب قلوب أهل الإيمان عند تذكره واقعا بأهل الكفر، فكيف بمن أوبقهم الله فى هذا العذاب الأليم ؟ و كيف ذا ؟ و ذكر عذاب أهل اللعنة يذيب قلوب أهل القرب فى قربهم اللهم ارزقنا الخشية منك، و الرغبة فيما عندك، و التوفيق لمحابك و مراضيك .

قوله تعالى : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٨٩)

---

(١) سورة الكهف آية ١٧

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾

بعد أن بين الله تعالى بيانه فيمن ذكرهم فى الآية السابقة استثنى منهم من سبقت لهم الحسنى منه أزلا و وسعتهم رحمته الواسعة، و قيد المستثنى بصفات يحبها لا يوفق لها إلا من قدر له السعادة فى الآخرة . و الذين مستثنى و صلتها الصفات الجواذب إلى الله تعالى التى تنيلهم القبول منه سبحانه ، و التوبة و الرجوع إلى الحق بعد الندم و العزم على عدم العودة، و القيام بتكاليف الشريعة .

﴿وَأَصْلَحُواْ﴾

أى أصلحوا بينهم و بين الله و رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ و بين إخوانهم المسلمين، و أصلحوا ما أفسدوا بعمارة الأوقات بالقربات، و عقد القلب على التوحيد الكامل بالمسارعة بالجوارح إلى تأدية المأمورات و ترك المنهيات .

﴿فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

معنى (غفور) يستر كفرهم و كبائرهم حتى عن أنفسهم و عن الملائكة و عن معالمهم من الأرض ، و (رحيم) أى يعفو عنهم و يبدل سيئاتهم بحسنات.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ ﴾ (٩٠)

بين الله تعالى أنواع أهل الكفر و الردة و النفاق بيانا كشف الستار عن حقائقهم، و بعد أن حكم عليهم بما يستحقونه فتح باب القبول و استثنى من كل حقيقة أن الله يقبل توبة من تاب منهم .

و فى هذه الآية الشريفة بين شر أعمالهم و هم الذين لبسوا الكفر من مبدئهم، و لو زعموا أنهم من أهل الكتاب كاليهود الذين كفروا بموسى لمخالفتهم صريح التوراة و ظنهم لجهالتهم أنهم على الحق ثم كفروا بعيسى عليه السلام ، ثم ازدادوا كفرا لكفرهم بمحمد ﴿ﷺ وآله﴾ و محاربتهم للحق، و النصارى الذين كفروا بعيسى عليه السلام لاعتقادهم فيه عقيدة هى صريح الكفر .. و كيف لا ؟ و بعضهم زعم أنه أى عيسى هو الله و هو شر

الكفر، و بعضهم زعم أنه ثالث ثلاثة لا يتعين و هى شر الكفر أيضا لأنهم جعلوا الله نكرة دائرة بين ثلاثة لا يتعين، و لو قالوا ثالث اثنين لما كان كفرا كما ورد فى الحديث و هو قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأبى بكر : [ما تقول فى اثنين الله ثالثهما] و مع كفرهم بعيسى عليه السلام مع ورود دلائل نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الإنجيل متواترة عند سؤال يحيى بن زكريا بقولهم له ((أئيليا أنت :قال: لا. فقالوا:المسيح أنت ؟ فقال. لا .فقالوا الرسول أنت ؟ فقال : لا)) و إيليا و المسيح ثبت مجيئهما و ما بقى إلا الرسول .

و ما ادعى الرسالة من عيسى إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مدع و أقام الحجة على دعواه إلا خاتم الرسل عليه الصلاة و السلام ، فقد قامت الحجج تلو الحجج من معجزات باهرات و آيات للغيب مبينات و تأييد من الله لحضرته ﴿ ﷺ وآله﴾ بالنصرة على الأعداء و بالملائكة ينزلهم الله تعالى لنصرته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فقد ازدادوا كفرا على كفرهم بجحودهم و إنكارهم لرسالته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و هذا النوع سجل عليه القضاء بالحرمان من التوفيق للتوبة، لأنهم لو تابوا فإنما يتوبون من خطايا ارتكبوها ليست كفرا فيتوبون منها مع كفرهم فلا يقبل الله توبتهم لأن الله أخبرنا أنه يقبل التوبة ممن تاب .

و للتوبة شروط : أهمها عقد القلب على عقيدة التوحيد الخالص الذى هو كمال الإيمان، و كل من عقد قلبه على الكفر بالله و برسله صلوات الله و سلامه عليهم و تاب من الكبائر لا يقبل الله منه صرفا و لا عدلا بل كل من ارتكب كبيرة و تاب منها خاصة و لم يلاحظ التوبة من ذنوب دقيقة يتساهل فيها ربما لا تقبل توبته، فقد يكون العبد عاقا لوالديه أو قاطعا لرحمه أو حسودا أو نماما أو غشاشا ثم يرتكب كبيرة جسمانية فيتوب منها معتقدا طهارته من الذنوب غيرها، فهذا لا تقبل توبته و يكون كالذى يهتم بالصلاة و الصوم و يترك الزكاة و الحج،

أو يغسل بعض أعضاء الوضوء و يترك بعضها و يصلى فلا تقبل صلاته و كذلك التوبة فإنها طهرة لجميع الحقائق الإنسانية و من طهر جانبا و غيره متنجس فهو نجس، كما لو وضعت قدر الخردلةمن النجاسات على قنطارين من الطعام فإنه يصير نجسا، و لا يدفع النجاسة عن نفسه إلا بالماء الطهور المطلق مالم يتغير لونا أو طعما أو ريحا ، و كذا المؤمن الذى عقد قلبه على خالص الإيمان فإنه طهور لا يتنجس بالمعاصى و الذنوب إذا وفقه الله للتوبة مالم يتغير الإيمان بشوب الشرك الظاهر أو الخفى أعاذنا الله منهما فإن التوبة من

ذنوب الجوارح لا تقبل ما دام فى قلبه شوب الشرك .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ)

افتتحها بأداة التوكيد تقوية للخبر، و الكفر معلوم سبق الكلام عليه و كفروا صلة الذين .

(ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً)

معطوفة على الجملة السابقة كما بينت .

(لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ)

نفى قبول التوبة بما يفيد التأبيد مع ورود الآيات الكثيرة الحاثة على التوبة المبشرة بقوله إن الله تعالى يحب التوابين و كما ورد عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن الله يغفر الذنوب كلها للعبد إذا تاب توبة نصوحا يذنب الذنب ثم يتوب، و لكن هذه الآية الشريفة لم تخالف الآيات المتضمنة قبول التوبة لأنها وردت فى معنى خاص و هى توبة أهل الكفر بالله من الخطايا التى يقعون فيها غير الكفر لأن الكفر بالله تعالى أكبرالكبائر و قد قال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[1] فعدم قبول الله تعالى توبة العبد إذا تاب من الخطايا و قلبه منعقد على الكفر لأنه لم يتب فى الحقيقة و لا توبة إلا بعد الإيمان .

(وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ)

الإشارة عائدة إلى الذين كفروا، ثم ازدادوا كفرا و الضلال هو الهلاك أو العمل فى غير حق .

و معنى (أولئك هم الضالون) أى الهالكون و هم الذين يخلدون فى نار جهنم و هو الهلاك الأكبر أعاذنا الله تعالى من السلب بعد العطاء و من كفران النعمة و حرمان الرضا ...

---

(١) سورة النساء آية ٤٨

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٩١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

هذه الآية الشريفة بينت شر أنواع الكفار، و قد بينت سر افتتاحها بأداة التوكيد فى الآية السابقة.

﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾

أى داموا على كفرهم حتى أماقم الله الموتة العزرائيلية، و هم شر خلق الله على الإطلاق إذا لم يكونوا من أهل الفترة، بل بلغتهم الدعوة و جحدوا و أنكروا وداموا على ما كانوا عليه من الكفر بالله و برسله صلوات الله و سلامه عليهم .

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾

أتى بالفاء هنا و لم يأت بها فى الآية السابقة لتفيد وقوع الحكم وقوعا لازما . و (لن) نافية مع التأبيد نفت قبول الشفاعة لهم و القبول منهم مهما قربوا من تقربات لأن الإنسان بعد موته ينقطع عمله بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ [إذا مات ابن آدام انقطع عمله إلا من ثلاث] الحديث .. و من مات كافرا انقطع عمله من كل ناحية كما قررت لك بدليل الآية و هى قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

﴿مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً﴾

فملء بكسر الميم ما يملأ به و بفتحها المصدر، و كأن الله سبحانه و تعالى يحكم عليهم بالعذاب الأبدى و ينفى عنهم أى واسطة تدفع عنهم العذاب .

و فى هذه الآية بيان لأهل الحرص على المال أنهم لا ينتفعون به لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، لأن المال لا ينتفع به فى الدنيا ما دام فى يده حتى يفقده منها، و ما دام حريصا عليه فهو عبد له يضره فى الدنيا بحراسته و الخوف عليه و البلاء فى تنميته و خصومة الناس على جمعه و يكون يوم القيامة جمرا يكوى به فى نار جهنم، و ما ترك إنسان مالا وراءه إلا ندم يوم

القيامة، و تكون ندامته على أنه لم ينفقه ليرفع الله درجته به إلى المقربين و قد يترك المال فينتفع به ورثته و يكونون به أعلى درجة منه فى الجنة، و قد يكون معذبا به يوم القيامة و من ورثه منعما به، و قد يكون سببا فى عذاب المورث و الوارث، لأن الوارث هوى به فى نار جهنم كما هوى به مورثه و تكون الخصومة به فى نار جهنم، اللهم إلا من ادخر المال لينصر به الدين و يعين به على نوائب الحق، و قد كان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يدخر قوت سنة لأهله من غلة أرضه فى خيبر و تبوك، أما من عبد المال و حرص عليه ليكون كنزا فذلك هو العذاب الأكبر نسأل الله تعالى السلامة و العافية .

(وَلَوِ افْتَدَى بِهِ)

لو هنا حرف امتناع لامتناع، يعنى امتنع العفو عنه و الإحسان إليه و المغفرة له لامتناع وجود ملء الأرض ذهبا، و لأن الله تعالى غنى لا يحتاج إلى جزاء على عفوه و لا عوض عليه، و فى هذه الآية تبكيت و تشنيع على قوم طلب منهم أن ينطقوا بكلمة التوحيد و أن يقوموا بفرائض الشريعة من صلاة و صيام و زكاة و حج و هو شىء قليل بالنسبة لملء الأرض ذهبا فلم يقبلوا و قد كفروا بالله تعالى و برسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و من أين لهم ؟ و قد انكشفت لهم الحقائق حتى ظهر عجزهم و ذلهم و فقرهم و ندمهم على كفرهم فى الدنيا و تحققت العقوبة ولات حين مندم . قال أنس بن مالك بسند الإمام بن جرير قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ :[يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به ؟ فيقول : نعم، قال : فيقال لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك] .

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)

بين الله للكافرين عاقبتهم يوم القيامة بحكم حق بعد قيام الحجة و وضوح المحجة، و الإشارة فى قوله تعالى (أولئك) عائد إلى الذين كفروا .

(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

خبر لأولئك و معنى ذلك أن الله تعالى أعد لهم عذابا مؤلما شديدا جزاء لكفرهم به سبحانه ، لأن الكفر بالله ليس له جزاء فى الدنيا يكافئهم الله به و جزاؤهم لا يكون إلا يوم القيامة

و مهما عمل الكافر من الذنوب و الخطايا فى الدنيا فإن الله سبحانه و تعالى يستدرجه حتى إذا أخذه لم يفلته، و أما المؤمن فقد يعجل الله عقوبته فى الدنيا تطهيرا له ليرجع إلى الله بالتوبة و الإنابة، حتى يرجع إلى الله يوم القيامة و ليس عليه شاهد بذنب رحمة بالمؤمنين، و كل البلايا التى تصيب المؤمن هى خير له مما يصيب الكافر منها فى الدنيا فإنه تعجيل لعقوبته فيها قبل الآخرة و فى الآخرة لهم عذاب إليم، إنما ينتقم الله من الكافر فى الدنيا إذا ظلم عباده لأنه سبحانه يكره الظلم من نفسه فكيف يرضى به من عباده .

(وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)

نفى الله عنهم وجود نصير لهم لأن الله إذا كره عبدا كرهه كل مؤمن تقى بل كرهه الملائكة المقربون فلا يجد له شفيعا و لا نصيرا و لا وسيلة تنجده من عذاب الله تعالى، بل يكون كل قريب له فى الدنيا أو حميم عدوا له يوم القيامة يسره أن يراه فى الحطمة، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ بسند البخارى : [إذا أحب الله العبد نادى جبريل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه و توضع له المحبة فى الأرض فلا يراه أحد إلا أحبه، و إذا كره العبد نادى جبريل إنى أكره فلانا فاكرهه و على هذا يكرهه كل وجيه عند الله تقبل شفاعته] .

قوله تعالى : (لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (٩٢)

قبل أن نتكلم على تأويل هذه الآية نلمع إلى شميم من عبيرالأرواح على فرض أن المراد بالنفقة بذل المال فى وجوه الخير . معلوم أن المال عند أكثرالناس أعز من الروح فإنا نرى الناس يقتلون دون أموالهم، و قد يعادى الإنسان والديه و أولاده حرصا على المال، و قد ينسى الإنسان أن المال وسيلة إلى نيل الضروريات و الكماليات فيجعله مقصودا لذاته يضحى فى سبيل جمعه و نموه بكل رخيص و غال من صحة و قرابة دين، لذلك كان البرهان على كمال الإيمان بالله و حسن التوكل عليه بذله فى وجوه الخير، فحصر الله البر فى منح المؤمن بعض ما يحبه منه لأقاربه و أهل الحاجة إيثارا لهم على نفسه كما قال سبحانه

: (و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة) [١] و قد بين الله تعالى أنواعا كثيرة من الخير و جعلها من البر كما قال تعالى : (و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و آتى المال على حبه ذوى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل) [٢] .

و إن تأولنا قوله تعالى:(حتى تنفقوا مما تحبون) على وجه الإطلاق يكون الذى ينفقه المؤمن مما يحب عاما من علم و مال و حياة و شرف و ترف و عفو عن المسىء وصلة للقاطع و إعطاء لمن حرمه و إيثار للمؤمن على نفسه، و بذلك يكون قد جمع أنواع البر حتى ينال برالله تعالى له فيؤثره الله تعالى بتفريده لذاته لقوله تعالى : (تا الله لقد آثرك الله علينا) [٣] و يكون البر جماع الخير كله .

(لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ)
من الله تعالى الذى هو جماع الخير منه سبحانه من حبه للعبد و قربه منه سبحانه، حتى يجمله بمعانى صفاته و يخلقه سبحانه بأخلاقه و يجعله معه و عنده ولديه .

(حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ)
أى حتى تقدموا لله من خير ما تحبون، إيثار له سبحانه و تعالى على الدنيا و الآخرة بل وعلى النفس ، و هذا مقام التفريد الذى هو كمال التوحيد و جمال المزيد، و هذا لا يمنع من أن يكون البرهو الجنة كما قال الله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) [٤] و قوله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم على الارائك ينظرون) [٥] الآية، و هؤلاء الأبرار هم الذين بروا فى عهودهم و مواثيقهم فقاموا بحقوق الشريعة قياما جعلهم فى

---

(١) سورة الحشر آية ٩

(٢) سورة البقرة آية ١٧٧

(٣) سورة يوسف آية٩١

(٤) سورة الإنسان آية ٥

(٥) سورة المطففين آية ٢٢ – ٢٣

معية محمد
﴿ ﷺ وآله﴾: و هم الذين فصل الله لنا صفاقم فى آخر الفتح . أما البر هنا فهو البر من الله تعالى لأوليائه الذين هم ضنائن الله فى خلقه، و هم المفردون بفتح الراء أو بكسرها كما قال رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾: [سيروا فقد سبق المفرودن وضع الذكرعنهم أثقالهم] الحديث . و تأويل هذه الآية أن الله سبحانه و تعالى يبين لأصحاب النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ و لنا ما به ننال البر منه سبحانه، لأن اليهود و النصارى و كفار قريش بعد كفرهم بالله و رسوله و تمسكهم بما كان عليه أباؤهم من الكفر و الضلال حرصوا على أموالهم من أن ينتفع بها فقير، فبين الله لنا ما به نفوز بالسعادتين و نحظى منه سبحانه بالحسنيين، و هو أن ننفق فى سبيله مما نحب، و الذى ينفق مما يحب مع احتياجه إليه واثقا بما فى يد الله و موقنا بنيل الخير منه سبحانه أقام الحجة عند الله تعالى لنفسه بكمال إيمانه، و حسن توكله على الله تعالى، و ثقته بما فى يده سبحانه .

(مِمَّا تُحِبُّونَ)

من هنا للتبعيض، ليعلمنا الله تعالى التوسط حتى فى عمل البركما قال سبحانه : (و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط) [1] و كما قال سسبحانه:(و كان بين ذلك قواما) [2] و لأنه جل جلاله خلق الإنسان و فطره سبحانه و تعالى على ما فطره عليه فهو أعلم به فطالبه بما يسهل على المؤمن مع انشراح الصدر و طمأنينة القلب .

(وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

(و ما) شرطية، و (تنفقوا من شيء) فعلها (فإن الله به عليم) جوابها . و (من) فى قوله (من شيء) لبيان المنفق من أى نوع، و فى قوله تعالى : (فإن الله به عليم) أى يجازى عليه بحيطة علمه كما و كيفا و قدرا فإن الجواب فيه معنى الجزاء، فظهر إذن أن أنواع البر الذى ذكره الله تعالى فى الآية هو بر العبد لنفسه عند ربه، و معنى البر هنا هو بر الله تعالى لأوليائه

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٩

(٢) سورة الفرقان آية ٦٧

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تفسير قوله تعالى ((تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض))	
سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ سيد الرسل و خاتمهم	
الحث على الإنفاق فى سبيل الله	
بيان معنى (هو)	
بيان معنى أسماء الله الحسنى	
لمن تكون الشفاعة يوم القيامة	
أقول العلماء فى الكرسى و رأى الإمام المجدد	
سماحة الإسلام	
ولاية الله للمؤمنين و ولاية الطاغوت للكافرين	
قصة العزير بعد إحيائه	
سيدنا إبراهيم عليه السلام و سؤاله عن الموتى	
الإنفاق ابتغاء مرضاة الله لا يتبعه من ولا أذى	
مواطن الخوف و الحزن التى تعترى المؤمن الكامل	
تفسير قوله تعالى ((قول معروف و مغفرة))	
بيان فى من يمسك يده عن الإنفاق فى سبيل الله	
إن الله طيب و لا يقبل إلا كل طيب	
تعريف الإمام المجدد للحكمة و بيان أقسامها	
الحث على نفقة السر	
تفسير قوله تعالى ((ليس عليك هداهم))	
كيف نخرج الصدقة ؟ و لمن تعطى ؟	

الموضوع	رقم الصفحة
الفقراء كما وصفهم الله	
مبحث فى الربا	
بيان فى المحبة و نفيها عن كل كفار أثيم	
رأى الإمام المجدد فى إقامة الصلاة	
الفرق بين الإيتاء و الإعطاء فى الزكاة	
طريق التوبة من الربا	
أثر التقوى فى نفوس المتقين	
نفى الله الظلم عن نفسه لمعنيين عظيمين	
الدين و إثباته و آداب أدائه	
تفسبر قوله تعالى ((و إن كنتم على سفر))	
جواهر النفوس و تفاوتها	
من نتائج الإيمان أنه يورث العلم	
الإيمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله	
عدم التفريق بين الرسل فى الرسالة و تفاوتهم فى المترلة	
الدعاء مخ العبادة	
رد الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ على مزاعم وفد نصارى نجران	
الدليل على أن القرآن من عند الله تعالى	
مظاهر القدرة فى تصوير الإنسان فى الرحم	
بيان أن الآيات المحكمات هن ام الكتاب	
مبحث فى المتشابه من الآيات	
الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه	
يوم الرجوع إلى الله يوم لا ريب فيه	
حرص الكفارعلى أموالهم و أولادهم و مقاماقم منعهم عن الإيمان	

الموضوع	رقم الصفحة
مناظرة بين الإمام المجدد و مستشرق أمريكى حول سر الخلود الجنة و النار	
مصير من كذب بآيات الله	
شتان بين خزائن العلوم و خزائن الفهوم	
إخبار القرآن يصيب الكفار قبل وقوعه	
بيان فى معنى تزيين حب الشهوات	
تفسير قوله تعالى ((قل أؤنبئكم بخير من ذلكم))	
أنس الأرواح خير و أبقى من جنة الأشباح	
بيان صفات العباد الملاحظين من الله	
شهادة الله و الملائكة و أولى العلم على وحدانية الله	
الإسلام دين جمع الفضائل كلها	
أدعياء الجهالة شياطين يستدرجهم الله ليفتن بهم أهل الضلالة	
رأى الإمام المجدد فى قضية التثليث	
معنى إسلام الوجه لله تعالى	
قصر هداية الإحسان على الله سبحانه و تعالى	
وعيد الله لليهود الذين كفروا و قتلوا الأنبياء و المصلحين بالعذاب الأليم	
الحكمة هى الطريق الحق للداعى إلى الله بالموعظة	
من أدلة الشفاعة يوم القيامة	
سيف الإسلام كان كالمشرط فى يد الحكيم	
رأى الإمام المجدد فى أهل الذمة	
إخلاص العمل لله من أعظم القربات إليه سبحانه و تعالى	
أنوار الغيب تنجلى للرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ و هو يضرب الصخرة فى حفرة للخندق	
الملك و العزة بيد الله يهبهما لمن يشاء من عباده	
مفهوم الخير و الشر و السعادة عند الإمام المجدد	

الموضوع	رقم الصفحة
حكمة أن الله تعالى يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل	
رأى الإمام المجدد فى أسباب كثرة أمراض العصر، النفسية و الجسمية	
بيان فى أن الرزق بيد الله وحده يرزق من يشاء بغير حساب	
النهى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين	
رأى الإمام المجدد فى ((التقية)) و اختلافه مع العلماء فيها	
من كمال الإيمان فى القلب يقين المرء أن الله يعلم السر و أخفى	
رأى الإمام المجدد فى أن السموات سبع و أن الأرض واحدة	
بيان أن النفوس مرهونة يوم القيامة بما كسبت فى الدنيا	
بيان أن محبة الله تكمن فى اتباع رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾	
دعاة التكفير و التشريك و التحقير قوم خرجوا عن جادة السنة	
الرد على منكرى محبة الله للعبد	
إطاعة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هى إطاعة لله تعالى	
تفسير قوله تعالى ((إن الله اصطفى آدم و نوحا))	
نذر امرأة عمران إن ولدت ذكرا أن تخصصه لخدمة بيت المقدس	
كفالة ذكريا عليه السلام لمريم و مشاهدته عجائب الرزق الذى كان يأتيها	
رأى الإمام المجدد فى إثبات الكرامة للأولياء و الرد على من أنكر ذلك	
بيان أن الماكن تبارك بالصالحين	
قدرة الله فوق عقول الأنبياء	
إخبار الرسول عن عيسى و أمه من دلائل صدق نبوته	
عيسى المسيح عليه و السلام هو بشرى الله لمريم	
معنى الكلمة و معنى المسيح	
توضيح معنى كلام عيسى فى المهد و كهلا	
إكرام الله لنبيه عسى دليل قاطع على عبودية عيسى لله	

الموضوع	رقم الصفحة
معجزات عيسى عليه السلام من إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص و الإخبار بالمغيبات	
بيان فى زوال المعجزات الحسية و خلود معجزة القرآن	
بيان أن شريعة عيسىعليه السلام أحلت بعض ما حرم فى التوارة	
تفسير قوله تعالى ((فلما أحس عيسى منهم الكفر))	
بيان عن الحواريين و إيمانهم بالمسيح	
بيان شاف فى مكر الله، و رفع الله لعيسى إليه	
رأى الإمام المجدد فى نزول عيسى آخر الزمان	
المصلوب هو من ألقى شبه المسيح عليه	
الرد على زعم أن للنصارى الفوقية	
بيان عدم جواز الجدل مع غير المسلمين	
رد الرسول على مناظرة وفد نجران بشأن المسيح	
بيان فى أن خلق الله لأدم كخلقه لعيسى	
دعوة النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أساقفه نجران إلى المباهلة و نكوصهم عنها	
الرد على دعوى التثليث	
كذب اليهود و النصارى فى إدعائهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا و بيان أن ملته هى الإسلام	
النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أولى الناس بإبراهيم عليه السلام لموافقة شريعته صلى الله عليه وسلم لشريعته	
التحذير من فتن اليهود و أهل الكتاب للمسلمين ليردوهم عن دينهم	
توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بالقرآن و هم يعلمون صحته	
تصميم الكفارمن أهل الكتاب على أن يؤمنوا أول النهار و يكفروا آخره للتلبيس على عوام المسلمين	

الموضوع	رقم الصفحة
الله يحذر المؤنين من كيد اليهود	
تقسير قوله تعالى ((و من أهل الكتاب))	
بيان حال اليهود فى استحلالهم أموال المسلمين	
أنواع التقوى	
الوفاء بالعهود و جزاء الناكثين لها	
بيان عدواة اليهود للنبى و الكتاب و افترائهم على الله الكذب	
تتريه الأنبياء عليهم الصلاة و السلام عن أن يأمروا الناس بعبادهم	
تتريه الأنبياء عن أن يأمروا الناس باتخاذ الأنداء	
أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بالنبى محمد ﴿ﷺ وآله﴾	
وعيد الله لمن بدل عهد الله و ميثاقه	
النفوس الخبيثة تأبى الحق مع وضوحه وانجلائه	
أمر الله نبيه أن يؤمن بالله و القرآن و ما أنزل من قلبه على الأنبياء من كتب	
بيان أن من تحرى بعد مبعثه ﴿ﷺ وآله﴾ دينا غير دين الإسلام فهو غير مقبول	
بيان أن من جاءه الحق و عرفه بالأدلة ثم أعرض عنه حرم الهداية	
من كفر بعد إيمانه فلن تقبل توبته	
من مات على الكفر لا يقبل منه فدية و ماله من نصير	
بيان أن البر جماع الخير كله	

الطبعة الأولى

يوم الخميس غرة رجب ١٤٠٣ ه

١٤ أبريل ١٩٨٣ م

رقم الإيداع ٢٧٥٨

١٩٨٣

تطلب مؤلفات الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم

من مكتبة دار الكتاب الصوفى

002 022 3901030تليفون

١١٤ش مجلس الشعب

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ﴾ وآله.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ﴾ وآله

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وآله.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أســرار القــرآن

الجزء الثالث

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

/ تليفون المكتبة

002 022 3901030

تم بحمد الله و حسن توفيقه الجزء الثالث

و يليه الجزء الرابع و أوله ((كل الطعام كان حلا))